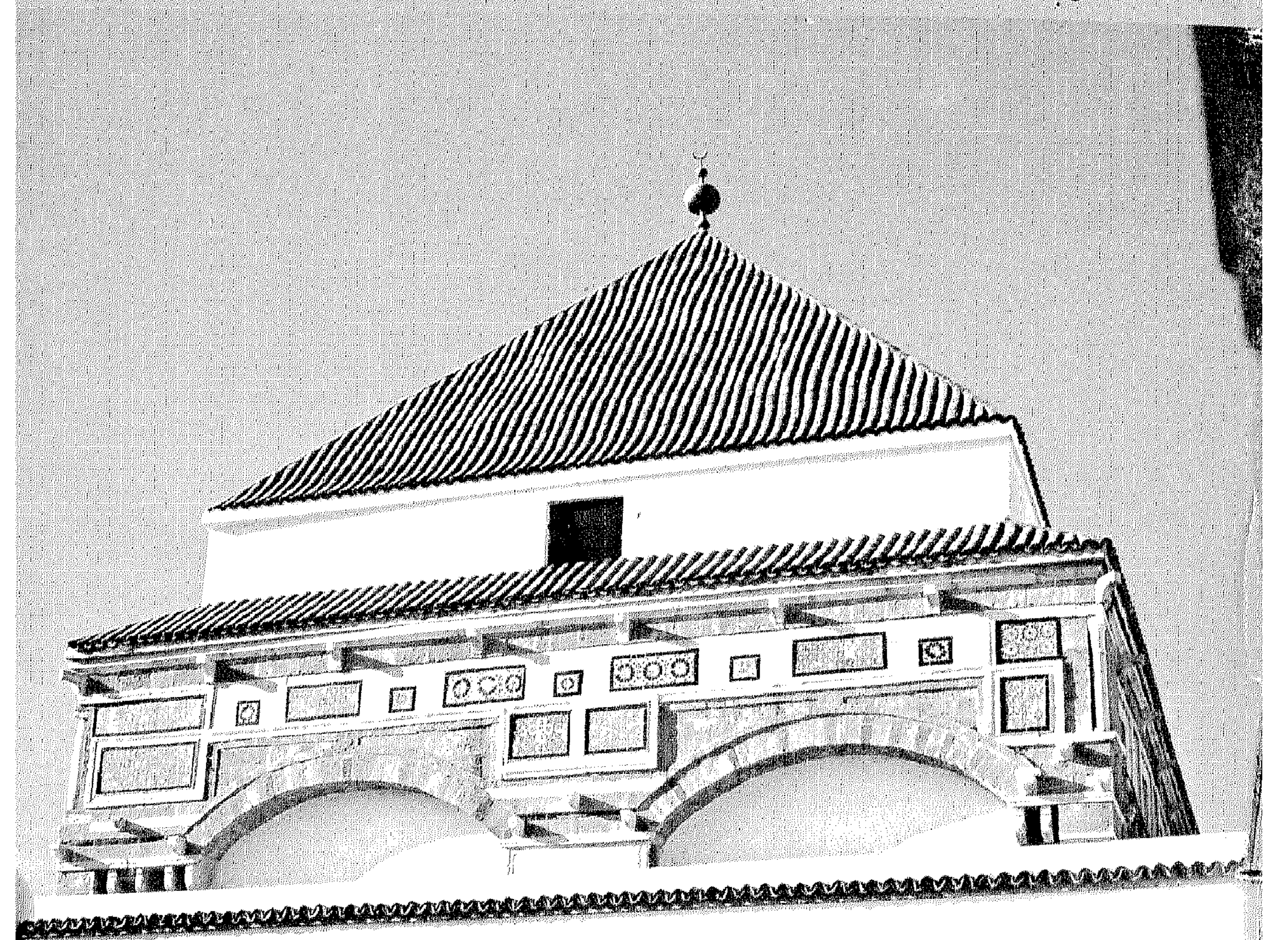
عدد خاص عن تونس

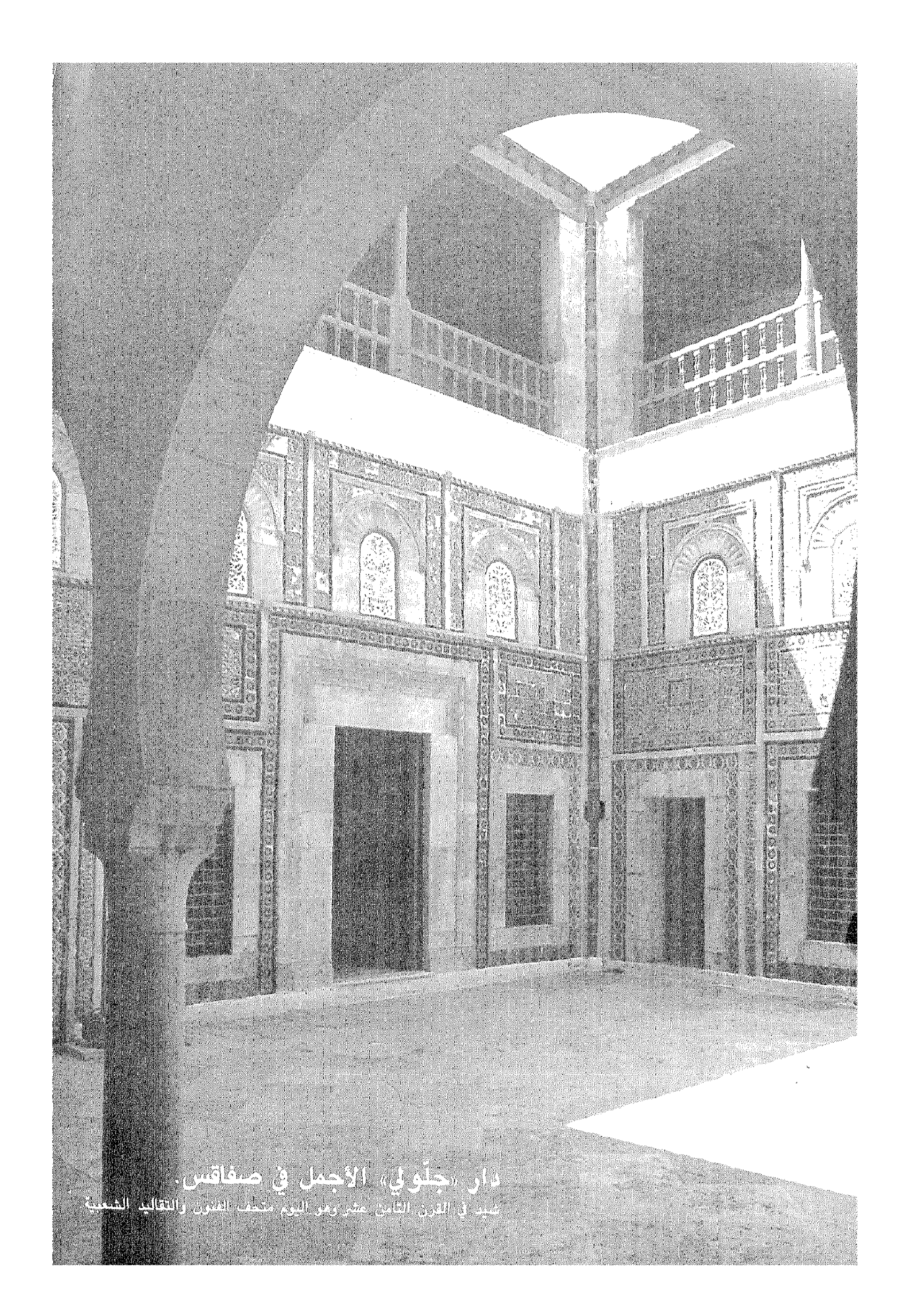
تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الرابعة • العدد الواحد والأربعون • آذار (مارس) ١٩٨٢م • الموافق جمادى الأولى ١٤٠٢هـ



مقام سيدي قاسم الجليزي
تونس العاصمة



دار «جلّولي» الأجمل في صفاقس.
شيد في القرن الثامن عشر وهو اليوم متحف الفنون والتقاليد الشعبية



بين يدي هذا العدد

إنه مدعاة للسرور والاعتزاز لمجلة «تاريخ العرب والعالم» وأسرة تحريرها أن يخصص هذا العدد من المجلة للقطر العربي التونسي الشقيق.

وهذا العدد هو ثاني عدد متخصص يفرد لقطر عربي. ومع أن لبنان، في تاريخه الحديث خاصة، كانت له علاقات وثيقة ـ ثقافية وتجارية وسياحية ـ مع أجزاء الوطن العربي، بدءاً بجارتيه سورية وفلسطين، وانتهاء بأقطار الجزيرة العربية ومصر وشمال افريقية، فإن صلته بتونس فريدة في نوعها.

فقبل نحو ثلاثة آلاف سنة خرجت اليسار الفينيقية من صور، على الساحل اللبناني، الى الغرب، واستقرت في تونس، حيث انشأت ـ هكذا تقول الرواية التاريخية ـ مدينة قرطاجة. وهذه الابنة الفينيقية اللبنانية، بعد أن صارت بونية وتجذرت في أرض تونس، أصبحت أماً لعدد من المدن والقرى والمراكز التجارية في حوض البحر المتوسط الغربي، وكوّنت لها امبراطورية امتدت من طرابلس (ليبيا) إلى طنجة (المغرب). وهذه الامبراطورية القرطاجية هي التي قارعت رومه، الامبراطورية الناشئة، وتبادلت معها، على أيدي أبطالها الكبار، مثل هنيبال (حنيبعل)، النصر والهزيمة، حتى تغلبت عليها رومه سنة ١٤٦ ق.م. وقضت عليها. لكنها كانت قد نشرت في تلك الرقعة الواسعة الكثير من أمورها الحضارية من الحَرْف إلى الحِرَف إلى الزراعة إلى التجارة. ومن هنا كانت هذه الرابطة القوية بين لبنان وتونس. أما في العصور الحديثة فلعل خير ما يدل على هذه الرابطة أن جريدة «الرائد التونسي» (التي أنشئت سنة ١٨٦١) كان أحد الذين عملوا على اخراجها لبناني من اسرة كميد.

وأهمية المشاركة الفعّالة والضرورية بين الأشقاء العرب لا تقوم فقط على استمرار مثل هذه الخطوات الرائدة، بل في التعاون الثقافي الفاعل، خاصة في هذه الأيام العصيبة حين يتعرض فيها الوطن العربي لغزوة فكرية شرسة، لا تستهدف الجيوش والحدود فقط، وإنما تستهدف التشكيك بتراثنا، ليكون هذا التشكيك والهدم، مقدمة لإضعاف مقاومتنا أمام هذا الغزو الفكري الجديد.

وما كان لمجلة «تاريخ العرب والعالم» أن توفق في اخراج هذا العدد لولا ان تفضل عدد من الأخوان التونسيين في الاسهام به. وفي مقدمة هؤلاء الأستاذ محمد مزالي رئيس وزراء تونس. والأستاذ مزالي من اهل القلم وقادة الفكر في تونس قبل ان يكون من رجال السياسة البارزين. فهو منشىء مجلة «الفكر» التونسية، التي نقلت الى العالم العربي آثار المفكرين في ذلك القطر وجيرانه في المغرب العربي قبل أن تقوم بذلك أية مجلة أخرى.

والبشير بن سلامة، وزير الشؤون الثقافية، هو الآخر من اهل القلم الكبار في تلك الديار ورئيس تحرير مجلة «الفكر» والذي يدعو باستمرار الى نهضة عربية اسلامية متلائمة مع عالمنا الحاضر. ولسنا نريد أن نضع بين أيدي القراء تعريفا بالكتاب التونسيين في هذ العدد، فآثارهم واضحة فيه.

فإلى كل من هؤلاء الإخوان الأفاضل الذين أعانونا على إعداد هذه الدراسات، توجه مجلة «تاريخ العرب والعالم» وأسرة تحريرها خالص الشكر، على أمل ان نعود الى العمل الثقافي العربي المشترك معهم في المستقبل.

«اسرة التحرير»

تاريخ العرب والعالم

العدد ٤١ • آذار ١٩٨٢

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

أمين التحرير : د. محمد أمين فرشوخ

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٥ ل.ل.	تونس	١ دينار
العراق	٨٠٠ فلس	الكويت	٧٠٠ فلس
السعودية	٨ ريال	الامارات	٨ درهم
الأردن	٥٠٠ فلس	قطر	٨ ريال
البحرين	٨٠٠ فلس	عدن	٨ شلنات
مسقط	٨٠٠ بيزة	المغرب	٦ درهم
فرنسا	١٠ فرنكات	بريطانيا	جنيه استرليني
سوريا	٦ ل.س.	اميركا	٣ دولارات

الاشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ٧٥ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٠٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٤٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولار
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ــ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT , LEBANON

Vol. 4 No. 41, MAR. 1982

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■





السؤال الأول:

هل توجد مدرسة تاريخية تونسية؟ ما هي ملامحها قديماً وحديثاً؟

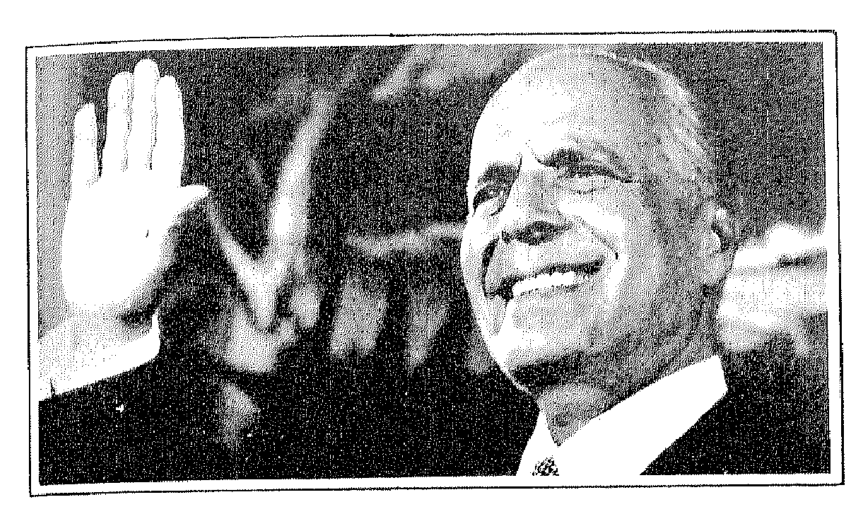
الجواب:

ان الحديث عن المدرسة التاريخية التونسية قديماً وربما المدارس التاريخية التي عرفتها تونس، يقودنا إلى أحقاب تاريخية بعيدة تعدو بنا إلى عهد ابن خلدون. وأنه لمن نافلة القول أن أؤكد هنا في اجابة سريعة عن هذه الأسئلة على منزلة ابن خلدون كمنظر ومؤرخ ومؤسس لعلم الاجتماع وقد تناولت هذه القضية في أكثر من موضع وخاصة في محاضرة ألقيتها في افتتاح ملتقى ابن خلدون الذي نظمته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالتعاون مع وزارة الشؤون الثقافية بتونس منذ سنتين.

أكتفي هنا بالاشارة إلى المنهج الواقعي العلمي الذي استند إليه ابن خلدون وتأثيره المتواصل في الفكر التاريخي التونسي، وإلى أن هذا المفكر العربي الكبير إنما هو مفكر تونسي، ولست أرى تناقضاً بين طابعه العربي الشامل وبعده الانساني المؤكد من جهة وانتمائه إلى تونس منطلقاً ومنشأ ومهداً لتكوينه وبناء فكره من ناحية ثانية.

أما في العصر الحديث فقد تجلت ملامح واضحة لمدرسة تاريخية تونسية تتميز بخصوصيات معينة ولعل الرئيس الحبيب بورقيبة هو أبرز من يمثلها بما قدمه، في مناسبات مختلفة، وبني عليه نضاله المستميت من تحاليل تاريخية هامة تميزت بالعمق والطرافة وبالنظرة الواقعية الدقيقة إلى تاريخ تونس وما تحقق فيه من مساهمات ايجابية على المستوى الإنساني، ولم يغفل في الوقت ذاته، عن جوانب الضعف والخذلان وأسباب التقهقر والضعف في عهود طويلة من تاريخنا الوطني.

بذلك ساهم الجهد البورقيبي في بناء المدرسة التاريخية التونسية الحديثة بتخليصها من منزعين شائعين يسيئان إلى الحقيقة التاريخية ويعرضان الوعي التاريخي إلى أخطاء خطرة: منزع تمجيدي يقوم على التغني بالماضي وكأنه ملاذ نطلب العودة إليه وجملة من الأمجاد لا سبيل الى تناولها بالنقد ولا الى اخضاعها للتحليل العلمي. ومنزع استعماري عنصري إلى



الرئيس الحبيب بورقيبة

تاريخ تونس على أنه عهود من الظلام تتخللها ومضات براقة من شعوب وافدة غازية.

السؤال الثاني:

كيف ترون دور المدرسة التاريخية التونسية الحديثة في اعادة الاعتبار إلى تاريخ تونس الحديث والمعاصر وتنقيته من النظرة الاستعلائية والتحقيرية التي سلطتها عليه المدرسة التاريخية الاستعمارية (قوتيي...).

الجواب:

أشرت في الاجابة على السؤال السابق إلى أن المدرسة الاستعمارية العنصرية قد امتهنت تاريخ تونس، ونظرت إلى هذه البلاد على أنها ملتقى لحضارات وافدة: فينيقية ورومانية وبيزنطية... وحتى عربية إسلامية.

وتجاهلت، عن قصد أو عن غير قصد، دور التونسيين في بناء هذه الحضارات الإنسانية وما قدمته تونس إلى البشرية جمعاء من رجالات ومآثر خالدة على مر الدهر. فكأن تونس في نظرهم ليست أكثر من وعاء لهذا التاريخ.

ولقد سبق لي أن حللت، وخاصة في كتابي «مواقف»، الأسس الكبرى للمدرسة التاريخية التونسية الجديدة وما ينبغي أن يكون لها من موقف إزاء النظرة الاستعمارية لتاريخنا. وأبرزت ذلك في جملة من المبادىء أشير منها هنا إلى النقاط التالية:

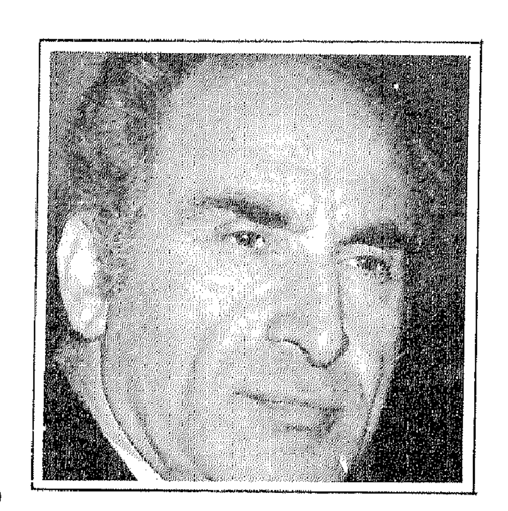
١ ـــ دراسة تاريخ تونس دراسة موضوعية ومنصفة تقوم على إرادة كشف الحقيقة ولا تنبع من كراهية وتعصب «دراسة تتصف على الأقل بالحياد النفساني لا التحقير والازدراء».

يجب أن ندرس تونس لا بوصفها كانت في وقت ما مقاطعة رومانية أو فرنسية كما كان الأمر في عهد الحماية، بل ينبغي أن ندرس تونس من حيث هي دولة وشعب وحيز جغرافي لها تاريخ ومميزات... ليس من المعقول أن نقول «تونس الرومانية» بل تونس في عهد الرومان.

وانه لمن دواعي الارتياح أن نشهد تغير النظرة إلى تاريخ تونس لدى عدد من المؤرخين الأوروبيين أنفسهم إذ تجاوزوا مقولات «قوتيي» و «رينان» وأشباههما واكتشفوا ضلال هذه النظرة العنصرية.

يقول المؤرخ «بيكار» في كتاب له عن حنبعل: «هل نحن، يعني المؤرخين الأوروبيين، ضحية جهل مطبق إزاء حنبعل وإزاء تاريخ هؤلاء القوم بصفة عامة؟ وهل هناك عملية تجهيل أو عملية كذب جماعية استمرت قروناً كان ضحيتها حنبعل ومن كان في مثل شجاعة حنبعل من رجالات هذه البلاد»؟.

٢ ـــ ان الأساتذة والباحثين التونسيين هم المعنيون قبل سواهم بخدمة تاريخ تونس، ولقد أصبح لدينا عدد هام من المؤرخين التونسيين الأكفاء الذين سلطوا أضواء جديدة متميزة على تاريخ بلادهم في مختلف العهود وساهموا بقسط وافر في تغيير النظرة الاستعمارية المتعصبة إزاء



رئيس الوزراء السيد محمد مزالي

هذا التاريخ.

٣ ــ ان دراسة تاريخنا الوطني بهذه الصورة المتسمة بالموضوعية وتجاوز الاتجاهات المغرضة من شأنه أن يساهم في تعميق وعي صادق بالتاريخ لدى شبابنا ويوطد ثقة الشبان بأنفسهم وببلادهم، ويؤكد قدرة أمتهم على العطاء والاسهام الايجابي في صنع تاريخ الانسان ويجنبهم عوامل الزيغ والاغتراب.

لذلك نرى رئيس الدولة يحرص بصفة متواصلة على العناية بالتاريخ، ولقد جمع في سنة ١٩٦٣ عدداً كبيراً من المؤرخين والأساتذة المختصين بمدينة الكاف وألقى بينهم خطاباً حثهم فيه على العناية بالتاريخ وعلى التأليف في تاريخ تونس من العصور الأولى إلى العصور الحديثة.

ولقد ظهرت بوادر هذه الدعوة الصادقة بظهور تقدم محسوس في هذا المضمار أصبح اليوم واضحاً جلياً إذ قطعت خطوات في كتابة تاريخ تونس على هذا النحو المأمول.

٤ ــ ان دراسة تاريخ تونس تلقي أضواء هامة على سياستنا الحالية وما نتخذه من اختيارات وأساليب في بناء تونس المعاصرة.

بل ان الكثير من اختيارات رئيس الدولة مبني على نظرة عميقة متفحصة لتاريخ تونس وما شهده من عوامل القوة والضعف والوحدة والتشتت.

ويعد الرئيس بورقيبة من أبرز القادة القادرين على الاستفادة من تاريخ بلادهم وعلى إدراك أبعاده وخفاياه واستخلاص الدروس الملائمة منه.

السؤال الثالث:

لقد قامت مجلة «الفكر» بدور مهم في بناء الثقافة التونسية الحديثة. هل يمكن لكم سيدي الوزير الأول أن تحددوا لنا ملامح هذا الدور؟

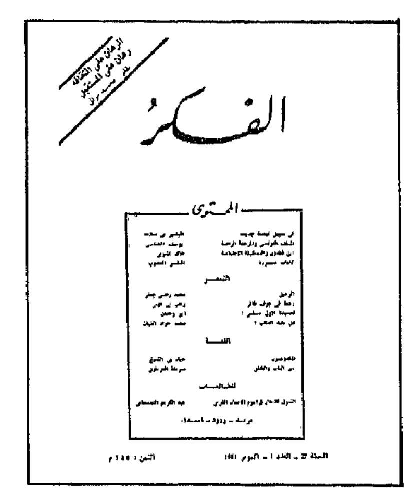
الجواب:

دخلت مجلة «الفكر» في شهر أكتوبر ١٩٨١ في سنتها السابعة والعشرين فهي، بلا منازع، من أرسخ المجلات العربية قدماً وأطولها نفساً وأقدرها على التواصل والاستمرار.

وربما كان غيري أولى مني، وأنا صاحب هذه المجلة ومؤسسها، بالحديث عن دورها في بناء الثقافة التونسية الحديثة، وقد كتب الكثير وقيل الكثير في هذا الموضوع، وأعدت دراسات جامعية عن مجلة «الفكر».

لذلك أكتفي، في الاجابة على هذا السؤال، بالاحالة على ما قاله غيري وتأكيد نقاط أساسية لا بد أن تذكر هنا:

أولاها أن هذه المجلة هي أساساً مغامرة نضالية صدرت في ظروف ومرت بمراحل لم تستطع أن تصمد فيها مجلات كثيرة مماثلة وقبلها وبعدها، وكان تحديها الأساسي في قدرتها على مواصلة الاضطلاع برسالتها مهما كانت الصعاب والعقبات، ولم تزل تواصل هذه المسيرة،



مجلة «الفكر» التي اسسها السيد محمد مزالي منذ سبع وعشرين سنة

وقد آليت على نفسي وقلت هذا في الاحتفال بمرور ربع قرن على تأسيسها، ان تستمر هذه المجلة وتتواصل ما دمت على قيد الحياة إن شاء الله.

وثانيها أن مجلة «الفكر» قد آمنت منذ نشأتها ولم تزل مؤمنة بمناهضة العجز ورفض التواكل والتسليم بالقصور، فأكدت قدرة تونس على أن تساهم بدور ايجابي على المستوى العربي الإسلامي، وعلى المستوى الإنساني أيضاً وأثبتت ذلك بالفعل بما نشرته من وجوه الانتاج وبما بشرت به من امكانيات الابداع والخلق. وانه لم دواعي فخرها أن كانت وما تزال مجالاً للأقلام المبدعة والكفاءات المتطورة، وسبباً من أسباب بروز طاقات تونسية هامة أصبحت الآن تصنف في مستوى عال وتتنزل منزلة متميزة في حياتنا الأدبية والفكرية.

وثالثها أن هذه المجلة قد رفضت دائماً كل وجوه التعصب والانغلاق المذهبي وغير المذهبي، وآمنت بالتطور وحوار الاتجاهات وتمسكت بحرية الفكر مبدأ لا تحيد عنه. ففتحت صدرها لاتجاهات فكرية ومذاهب أدبية متنوعة ولم تنزلق إلى الاختيارات الظرفية الضيقة، ومارست حرية التعبير قولاً وفعلاً.

ورابعها انها استندت دائماً إلى جهود صفوة من الأخلاء في خدمتها من منطلق نضالي لا يعرف الكلل ولا يتسرب إليه اليأس. وأنها لتعتز بهذه الصفوة من أسرتها الضيقة كما تعتز بأسرتها الواسعة من رجالات الأدب والفكر بتونس وبسائر الأقطار العربية الشقيقة.

ومهما يكن من أمر فقد أصبحت هذه المجلة، وستظل بإذن الله، مرجعاً أساسياً لحركة الفكر وحياة الثقافة في تونس، وملتقى للأقلام المغربية والعربية، ومجالاً مناسباً لتطور المواهب وممارسة الابداع ويقظة الفكر.

السؤال الرابع:

لقد جمعتم صفتي رجل الثقافة ورجل السياسة في نفس الوقت... فكيف التوفيق بينهما؟ وهل شعرتم في وقت ما بغلبة أحداهما على الأخرى؟

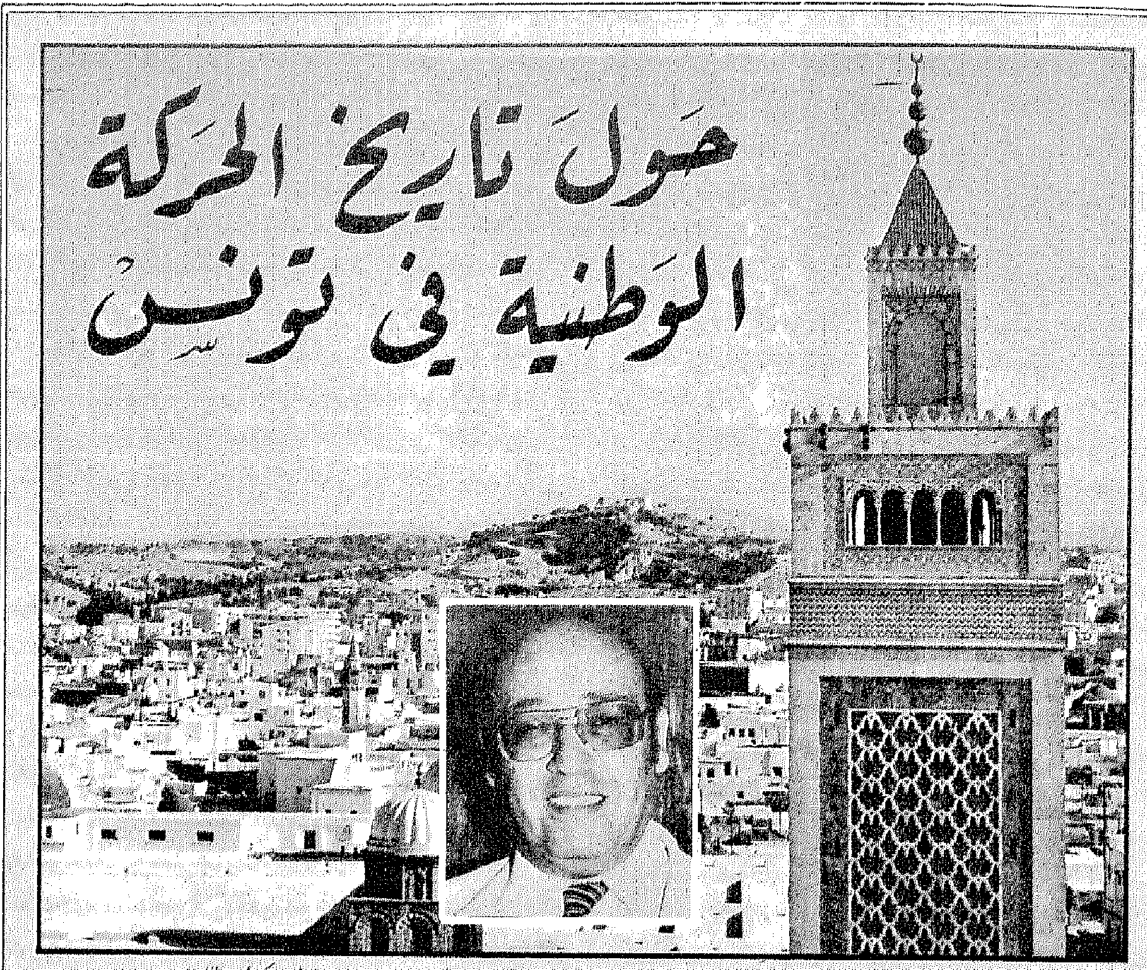
الجواب:

ألقي علي هذا السؤال في أكثر من مناسبة ولست أجد في الواقع أي تناقض أو تزاحم بين البعد الفكري والبعد السياسي لنفس الشخص.

ذلك أن الفكر إنما هو رؤى ومفاهيم وأحلام ومنهج في النظر والتحليل والفهم، وهل السياسة غير النضال من أجل تجسيم جملة من القيم والمفاهيم والمطامح على مستوى الجماعة وضمن معادلات وملابسات واقعية معقدة؟

ان أعظم منجزات الإنسان كانت في يوم من الأيام حلماً، وإني لواجد في القدرة على نقل هذه الأحلام إلى الآخرين عبر الكلمة المؤثرة والفكرة المثيرة خير سبيل للبناء السياسي ودفع المجتمع إلى الأفضل.

لذلك لا أجد بصراحة أي تناقض أو تزاحم بين الجانبين.



حول تاريخ الحركة الوطنية في تونس

بقلم: السيّد البشير بن سلامة وزير الشؤون الثقافيّة

ان المتصفح لوقائع وأحداث الحركة الوطنية التونسية يصطدم بغزارتها وتعقدها نظراً الى آن من صنعوا هذه الأحداث ومن شاركوا فيها مازالوا يمسكون بزمام الأمور ويصنعون تاريخ بلادهم. ولهذا فان مجرد سرد الأحداث وتحليلها فقط من الناحية التاريخية، باب لا يمكن غلقه، ولا بد من تقصي جميع الجزئيات. ولهذا فان ما أريد أن أبينه في هذا الفصل هو محاولة طريفة لتنزيل الحركة التحريرية التونسية في نسق نظري يعتمد النظرة التأليفية التي على أساسها نسجت كل الأحداث.

لقد سميت هذه المحاولة النظرية التاريخية في الكفاح التحريري التونسي(*)، واعتبرت أن كل مراحل الكفاح التحريري والحركات الوطنية التي ظهرت في البلاد التونسية تعتمد فهما مضبوطاً لتاريخ البلاد وتصوراً محدداً للاستقلال والارتباط بمجموعة أوسع. هذه الركائز الثلاث التي تعتمد عليها الحركة التحريرية التونسية هي التي حملت كلّ الزعماء على أن يسلكوا سلوكاً معيناً، وخاصة الذين أثروا في الجماهير وتمكنوا من حشدها ووضعها

(*) راجع لصاحب المقال كتاب «النظرية التاريخية في الكفاح التحريري التونسي» مؤسسات عبدالكريم بن عبدالله ــ تونس.

سداً في وجه المستعمر.

وأني لا أريد أن أنكر ما قامت به بعض التنظيمات في غمرة هذه الأحداث وانما غايتي في هذا الفصل هو التركيز على الحركات التي كان لها تأثير على الجمهور وسارت في نسق معين يرتبط بتاريخ البلاد القديم والحديث، وانفعالهم تجاه مفهوم الاستقلال ونظرتهم الى ارتباط تونس بمجموعة أوسع.

عندما ننظر الى تاريخ تونس الحديثة من خير الدين الى الحبيب بورقيبة مروراً بحركة الشباب التونسي، وحركة الحزب الدستوري القديم، فاننا نصطدم بهذه الظاهرة التي ما انفك يرددها أمثال البشير صفرو وعلي باش حامبة، ومحمد باش حامبة، وعبد العزيز الثعالبي، والحبيب بورقيبة، والتي تتصل بهذه الركائز الثلاث التي تحدّثت عنها. فكلهم احتموا بتاريخ تونس العريق، من الفترة الفينيقية الى الفترة الرومانية، الوندالية، والبيزنطية، والتركية، والفرنسية، وكلهم درسوا تاريخ البلاد وعرفوا الأطوار التي مرّ بها سكان هذه الرقعة الجغرافية، وما كان يتوق اليه هؤلاء من استقلال بالدعوة لأنفسهم، كما يقول ابن خلدون، ومن ثورة على الغاصب وتمرّد على الغزاة وتبينوا أن هذا التاريخ ليس هو مجرّد أحداث وثورات وانتفاضات بل ان أهل هذه البلاد كانوا يتوقون دائماً الى حكم أنفسهم بأنفسهم وطرد الدخيل نظراً الى أن الموقع الجغرافي للبلاد التونسية جعلها نهبة لقوى العالم الموجودة في فترات من التاريخ متوالية، وهو الموقع الجغرافي الذي لم يمكن أهل هذه البلاد من أن تكون لهم في عهود متعددة السيطرة على الأحداث وصنع الحضارة التي يريدونها، فكانوا في دأب متواصل يقلقلون كل نير يريد أن يكبلهم الى الأبد فيطرحونه عنهم باتخاذ عدّة مطايا، تارة الدين، وطوراً المذاهب وغيرها من المفاهيم التي يمكن لهم بواسطتها حشد الجماهير والتأثير عليها.

وكان رائدهم في كلّ ذلك هو الخروج من نير الغاصب وحكم أنفسهم بأنفسهم، ولهذا فان من يستقرىءكل الأحداث التي مرت بها هذه البلاد يجد أنها لم تنفك منذ أن وطأت أقدام الفينيقيين قرطاج في ثورات متوالية ومتتالية، مرة يقاومون قرطاج البونيقية ومرّة أخرى الرومان أو البيزنطيين أو غيرهم حتى جاء الفتح الاسلامي ووجد فيه أهل هذه البلاد المبادىء التي تمكنهم من أن يشعروا بانسانيتهم ويمتلكوا كمال وعيهم بمساواتهم لكل البشر، وبكلمة أوضح وجدوا في الأخوة الاسلامية الفكرة الأساسية التي بها يتحكمون في مصيرهم ويصلون الى ما تاقوا اليه منذ سحيق الأزمان من الاستقلال ومن تحكم في المصير.

لهذا فان الناظر الى تاريخ البلاد بهذه الصورة يتبين له في الواقع أن هذا هو الجامع المشترك لكل من أرادوا صنع تاريخ هذه البلاد. فكان خير الدين التونسي رغم أن توليه الوزارة الكبرى سبق الاستعمار الفرنسي الذي كانت ضغوطه وعلائمه موجودة منذ أن احتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠، فانه فهم أن البلاد التونسية يجب عليها أن تتمسك بشخصيتها وأن ترتبط بالخلافة العثمانية ارتباطاً متيناً.

ولكن تصور خير الدين التونسي لهذه المعطيات الثلاث ثم بعده جماعة حركة الشباب التونسي وعبد العزيز الثعالبي يختلف تمام الاختلاف عن تصور الحزب الجديد، أي حركة الحبيب بورقيبة، فاذا كانت الجماعة الأولى تعتبر أن تاريخ البلاد انما هو مرتبط بفترة معينة تخدم نظرتهم المحدودة للاستقلال، فان حركة الحزب الجديد كان لها تصور خاص لتاريخ البلاد يقرأ حساباً لجماهير الشعب التي كانت دائماً في وجه الغاصبين والغزاة وهو ينبني على حشد قوى كل المواطنين واعتبار أن هناك مدّاً متّصلاً يربط كل هذه المجموعة بتاريخها القديم أي أن هناك مقومات واضحة المعالم لم تزل تدفع الجماهير لخوض المعارك ولتخليص البلاد.

واذا كانت الجماعة الأولى تعتبر استقلال البلاد ليس الاّ مجرد شكليات ولا يمكن للبلاد على هذا الأساس أن يستقيم لها أمر، ولا تقوى الاّ بارتباطها بالخلافة العثمانية وبجامعة أخرى تختلف أسماؤها حسب الظروف، فان الحزب الجديد يعتبر أن استقلال البلاد انما هو ليس شكلاً فقط، بل هو أيضاً مضمون يرتكز على

الشعور الحاد بوطنية مكينة، ولكنها أيضاً تعتبر أن هذا الكيان المستقل انما هو جزء من أمة عريقة في المجد، ألا وهي الأمة العربية الاسلامية. فبقدر ما كان يناضل زعماء الحزب الجديد من أجل استقلال البلاد وتخليص السيادة التونسية من براثن المستعمر، ومن كل ما يشوب الوطنية الحق من الشوائب، فانهم يعتبرون أن تونس هي عربية مسلمة، وأن الكفاح من أجل تحرير تونس ليس هو مجرد تخليصها من حكم دولة أخرى لأن ذلك لا يكون له المعنى الصحيح بل ان الغاية كانت ارجاع كل ما وفرته الشخصية التونسية من أرضية حقيقية تتمثل في الانتماء الى الأمة العربية الاسلامية.

فكان الزعماء، وكذلك الجماهير تناضل من أجل أن تكون اللغة العربية في المحل الأرفع، وأن يكون الاسلام لا مجرد طقوس وتقاليد وعادات انبثقت عن عصور الجمود والانحطاط بل الاسلام الذي يحرّك الجماهير ويثري الشخصية ويجعل نفوس التونسيين تواقة الى الالفة والى الأخوة والى خلق الجديد. وبقدر ما كانت الجماعة الأولى مرتبطة بالخلافة العثمانية وبجماعات ليست لها القوة المعنوية الحقيقية خارج البلاد، بقدر ما كان يعتقد زعماء الحزب الجديد أنه من الواجب الاعتماد على كل القوى التحريرية في العالم والاستناد الى التيارات الحقيقية الفعالة في الدنيا فكانت النظرة بعيدة عن الأحلام والتصورات الخيالية والأماني الضائعة والانبهار ببريق السراب. ولهذا فان اختلاف تصور الحركات التحريرية لهذه المعطيات الثلاث هو الذي كان العامل الأساسي في تفجير الأحداث والسيطرة عليها أو انفلاتها من دون أي قدرة على التقيد بالواقع.

واذا اعتبرنا أن الحركة الوطنية الأولى ظهرت على أيدي خير الدين قبل انتصاب الحماية لأنها في واقع الأمر تكتسي كل سمات الحركات التي جاءت فيما بعد، فان حركة الشباب التونسي المتكونة جماعتها من نخبة سهر على ابرازها خير الدين نفسه هي التي تولت أخذ المشعل من يده والسير في الدرب الذي سلكه في التمسك بأصالة هذه البلاد ودرء ما تردى اليه المجتمع التونسي من رواسب التخلف والانحطاط والجور التي كانت السبب الأصلي في انتصاب المستعمر، ولكن خير الدين لم يكن في مجال الوطنية واضح التفكير لأنه كان ممزقاً بين الارتباط المتين بالخلافة العثمانية والاخلاص لوطنه تونس فكانت تتمزقه ثنائية غريبة.

غير أن جماعة الشباب التونسي بدأوا يشعرون شعوراً حاداً بكيانهم كتونسيين ونفضوا عن أنفسهم هذه الثنائية لتصبح ايماناً بحقيقة واحدة هي الجزء من كل والجزء في الكل. وظهر هذا التصور واضحاً مع الحبيب بورقيبة وزعماء الحزب الجديد، عندما تمسكوا بالشخصية التونسية العربية الاسلامية واعتبروا أن قوة الحركة هي في قوة الشعب التونسي وفي التفاف صفوفه، وفي ايمانه بأنه يكون ذاتية لها مقوماتها ولا يمكن بحال من الأحوال أن تنفصم، وأنها هي الوحيدة الكفيلة بتخليص البلاد من الاستعمار، وبناء تونس الجديدة. وليس معنى هذا أن تونس ليست جزءاً من الأمة العربية الاسلامية وأنها منفصلة عن الواقع التاريخي لكل هذه الأقطار، بل أن ذلك هو ايمان بأن نهر الأمة العربية الاسلامية لا يمكن أن يثرى ويغزر ماؤه ويكثر خيره الّا اذا تنوعت الروافد وأخصبت وأزدهر خيرها. وهي نظرة لا تتضارب أساساً مع ما تنشده كل الأقطار العربية الاسلامية من وحدة. وقد دلت الأحداث اليوم على أن هذه النظرة هي النظرة الواقعية والصحيحة.

في ختام هذا الفصل الذي أردته تلميحاً واشارة فقط يمكن أن نسجل ظاهرة ممتدة الخيوط منذ سحيق الأزمان، وهي تميز الشعب التونسي بخصال تلتقي في آخر الأمر بخصال شعوب أخرى وتتكامل معها لتلتحم في البشرية جمعاء، لأنه لا يمكن مهما كانت الظروف الحافة بشعب من الشعوب أن يذوب في شعوب أخرى بل انه بقدر ما يدافع عن نفسه ويصون كيانه ويخصب ما فيه من مقومات بقدر ما يتجانس ويتلاءم مع الشعوب الأخرى ومع الانسانية جمعاء. ●

المستنصر الحفصي في المصادر المشرقية

د. إحسان عبّاس

يعد الأمير الحفصيّ محمد بن أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد الملقب بالمستنصر (٦٤٧ ـ ٦٧٥هـ/ ١٢٤٩ ـ ١٢٧٧م) من أعظم أمراء الحفصيين ان لم يكن أعظمهم، من حيث المنشآت العمرانية والمؤسسات التي قام بها، ومحاولته بسط سيادة العدالة والأمن في أرجاء دولته، وتشجيعه للعلوم والآداب، وخاصة بعد أن تجمع حوله عدد من العلماء والأدباء الأندلسيين على أثر سقوط اشبيلية وبلنسية وقرطبة. وتتفق المصادر المغربية والمشرقية على ابراز هذه النواحي وغيرها، ولكن الأمر اللافت للنظر أن المصادر المشرقية تهتم بايراد بعض التفصيلات التي لا تجدها فيما بقي لدينا من مصادر مغربية خاصة بالحفصيين، وفي كثير من الأحوال تغلب على المصادر المشرقية ظاهرة تقترب من مزج التاريخ بالأساطير.

وأهم المصادر المشرقية التي عنيت بالحديث عن المستنصر تاريخ الاسلام للذهبي (الورقة ٤٣ من نسخة آيا صوفيا رقم ٣٠١٤) وعن الذهبي نقل الصفدي في الوافي بالوفيات (٥: ٢٠٢ ـ ٢٠٤)، وترد في سيرة الظاهر بيبرس لابن شداد (المتوفى سنة ٦٨٤) تفصيلات في بعض النواحي لا يقف عندها المصدران الأولان، ويبدو أن قطب الدين اليونيني (٧٢٦/١٣٢٦) قد اطلع على ما أورده ابن شداد فادرجه بتصرف قليل في كتابه ذيل مرآة الزمان (٢: ٢٠٩ ـ ٢١٨).

ويبدو أن عنصر الطرافة والاستغراب كان هو الحافز وراء ذلك النوع من الأخبار الذي اهتمت به المصادر المشرقية، وخاصة حين توضع تلك الأخبار على محمل من المألوف في البيئة المشرقية فتبدو وكأنها غير مألوفة أو عجيبة: فحين تتحدث تلك المصادر مثلاً عن طبيعة المرتبات التي تصرف للجند في دولة المستنصر فان الذي يثيرها الى إيراد ذلك هو المفارقة التي ترتسم بالمقايسة الى ما كان يجري في المشرق، حيث كان للجند المشارقة اقطاعات معينة (أو ما يسمى: الخبز)، أما في دولة المستنصر فالملكية كانت قاصرة على أصحاب الأملاك الموروثة ولا يحق للجند تملك الأرض، وكل سنة تجمع حاصلات الأراضي العامة وتقسم في قسمين: ثلاثة أثمان الغلة المجتمعة تقوم الدولة بتوزيعها مرة كل ثلاثة أشهر على المستحقين، سواء أكان هؤلاء من طبقات الشعب المحتاجين أو من فئات الجند، فأما الخمسة الأثمان الباقية فهي لبيت المال ومنها ينفق على بناء السفن والمنشآت والمرافق العامة وترميم ما يحتاج منها الى ذلك، ومن هذا القسم نفسه

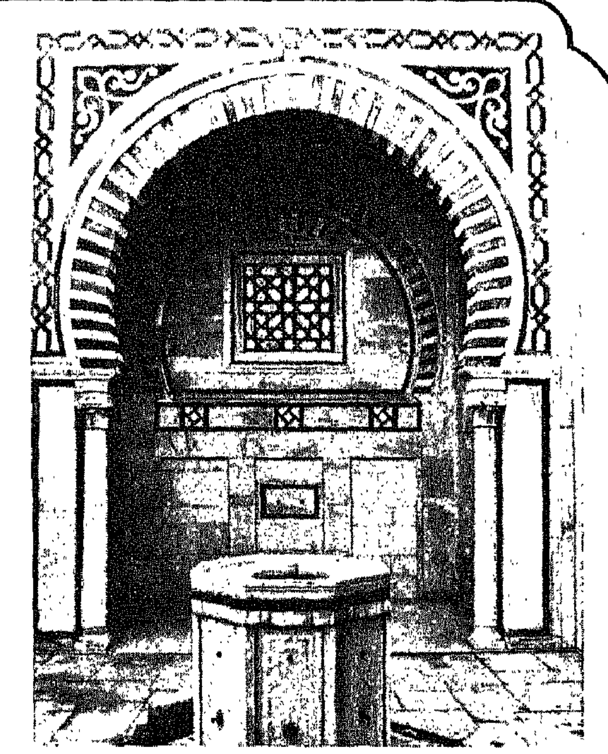
يأخذ المستنصر ما يسدّ نفقاته العامة والخاصة.

واذا كان الجند في المشرق يحملون سلاحهم في الظعن والاقامة وفي الحرب والسلم على السواء، فان مما يثير الاهتمام حقاً أن يكون المستنصر قد حكم بنزع سلاح جنده ومنعهم من حمله الا في وقت الحرب، فأما في وقت السلم فإنّ أسلحتهم كانت تؤخذ منهم وتوضع في خزائن معلومة وعلى كل سلاح اسم صاحبه، فاذا لاح في الجو استعداد لحرب حملت العدد والأسلحة على الجمال وأخرجت فوزعت على أصحابها، واستعيدت منهم عند انتهاء الحرب، وهي دائماً محط فحص وتفتيش فاذا قدم شيء منها جدّد، واذا اختل شيء منها أصلح، واذا مات الجندي رتب ابنه في مكانه، فاذا لم يكن له ولد أو وارث صرفت الى جندي جديد.

ولا ريب أن في مثل هذه الأخبار ثغرات تستحق المناقشة: فهي لا تستطيع أن تجيب عن كثير من التساؤلات التي تخامر نفس قارئها: هل كان هذا الاجراء عاماً في ما يتصل بالجيش في كل بلاد الدولة الحفصية أو كان قاصراً على مدينة تونس حاضرة الخلافة؟ وما العمل اذا دهمت حرب ولم يسعف الزمن على دقة التنظيم الذي تتطلبه هذه الخطة؟ وهل من المعقول أن يظل عدد الجيش ثابتاً على مرّ الزمن كما تفترضه هذه الأخبار؟

ولكن المصادر تنسب ايجاد هذه الخطة في شؤون السلاح الى الحذر الذي أصاب المستنصر بعد حادثة اثنين من أعمامه، ارادا الخروج عليه فتخلص منهما، فلجأ الى تلك الخطة تحسباً لخارج جديد، وتطنب المصادر المشرقية في الحديث عن هذين العمين: وخلاصة ما أوردته أن المستنصر لما بويع بالخلافة أحسن معاملة عميّه، ولكن خوفه من قيامهما ضدّه كان دائماً مصدر قلق له، وكان العمان اللحياني وأبو ابراهيم وثلاثة آخرون محط رقابته، وحين ازدادت هذه الرقابة أحسّ بها الخمسة، وعلى وجه الخصوص أبو ابراهيم، فطلبوا ذات يوم الخروج للنزهة فأذن المستنصر لهم بذلك، وخرج في أثرهم متخفياً، حتى إذا دخلوا بستاناً صعد هو إلى شجرة خروب هناك بحيث يسمع ما يقولون. وتقول القصة أنهم تحدثوا بانتزاع الخلافة منه وبايعوا اللحياني، وعندئذ عاد المستنصر فجهز جماعة بقيادة مملوك اسمه ظافر وجماعة اخرى بقيادة مملوك اسمه مظفر ففاجأوا المتآمرين حيث هم وقطعوا رؤوسهم.

تلك هي القصة بايجاز شديد واذا نحن عرضناها على ما أورده ابن خلدون وجدنا اختلافات أساسية بين الروايتين: فابن خلدون ينسب التحريض بالخروج الى الوزير محمد بن أبي يهدى الهنتاتي ـ وكان عظيماً في قومه ـ وذلك أنه أراد أن ينتزع تصريف الأمور من يد المستنصر، فلم يفلح، فحقد ذلك عليه وسعى الى التآمر. ويضيف ابن خلدون أن عمي المستنصر أبيا الاذعان لوشوشات ابن أبي يهدى، فلما أخفق في محاولته عمد الى ولد اللحياني، فوجد لديه موافقة تامة فبايعه سراً ووعده بتألف الجند من حوله، وقد استنكر اللحياني الأب هذا الفعل من ابنه (حسب رواية ابن خلدون) وذهب الى السلطان وحذره مما يكاد له في الخفاء، وفي اليوم التالي استمال ابن أبي يهدى مشيخة الموحدين فبايعوا لابن اللحياني، عندئذ جهز المستنصر جيشاً بقيادة ظافر فغلب المتآمرين وقتل ابن أبي يهدى، وذهب ظافر الى دار اللحياني الابن فقتله، ومن غريب تصرفه أنه قتل اللحياني الأب أيضاً كما قتل أبا ابراهيم



ميضاة السلطان بناها السلطان الحفصي أبو عمر عثمان (القرن الخامس عشر).

وابنه، وهم ليسوا ممن شارك في الفتنة.

ان سياق الروايتين يجعلنا نرجح رواية ابن خلدون، ولكن هذا لاينفي ماجاء في الرواية الأولى التي تصور مدى خوف المستنصر من عميه، ولعل هذا الخوف نفسه هو الذي حمل ظافراً على قتلهما، ولا يبعد أن يكون ذلك قد تم بايعاز المستنصر حتى يرتاح باله مما يساوره من قلق.

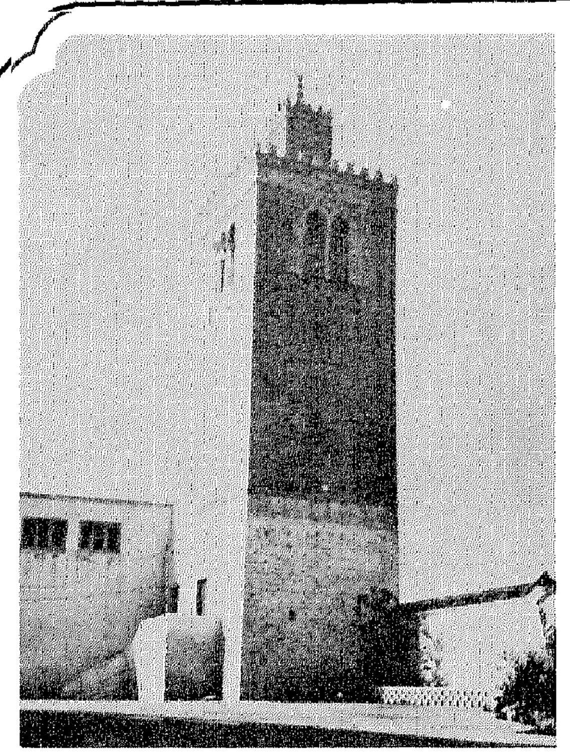
وتضيف الروايات المشرقية الى أن رجل الدولة عبد الله بن أبي الحسين الأندلسي (من بني سعيد) كان مبعداً من عطف الخليفة لأول بيعته (بسبب انتصار ابن أبي يهدى في مناقسته له) وبعد أن هدأت الفتنة كتب ابن أبي الحسين هذا الى المستنصر رقعة يسأله الاجتماع به فلما حضر دلّه على دار كان والده الخليفة يحيى قد أودع فيها من أنواع المال والسلاح مايكون ذخيرة لكل طارىء، وأن تلك الدار لم يكن يعلم بها الّا ابن أبي الحسين، وأن الخليفة الراحل كان قد أمره بألّا يكشف أمرها إلّا بعد استقرار الأمر لأحد من أولاده، كأنما كان يتنبأ بوقوع الفتنة، فسرّ المستنصر بذلك، واستخرج الأموال المودعة ونادى في الرعية بتعويض كل من تلف له شيء أو نهبت له دار في أيام تلك الفتنة، وأعاد ابن أبي الحسين الى سابق منزلته حسبما كان في أيام أبيه.

وتجمع المصادر المشرقية ــ حين توجز ــ على أن المستنصر كان «متحيلاً على بلوغ قصده» ولدى تفسير هذه المقولة تورد نموذجاً غريباً من تحيله في التخلص من بعض العرب (العربان) المشاغبين، وهي لاتقص شيئاً مما توردە المصادر المغربية عن المعارك التي كان يخوضها ضدّ رياح ودباب وسليم وغيرها من القبائل، وبينا يقص علينا ابن خلدون مثلاً كيف استمال المستنصر زعماء الزواودة ثم ضرب أعناقهم تجد الرواية المشرقية تمعن في وصف المراحل المتعددة التي قطعها المستنصر حتى بلغ أربه في بعض تلك القبائل، مفضلاً الحيلة على إنفاق الأموال والتضحيةبالجند في سبيل تلك الغاية. ولما كان هذا البحث لايتحمل ايراد الحكاية بكلّ تفصيلاتها، فاني سأحاول ايجازها متدرجة:

لمس المستنصر أن قبائل من الخلط والدبابيين وغيرهم يميلون الى العصيان وخاصة بعد أن سمعوا عن تنكيله باعراب آخرين،فأقطعهم رغبة في استمالتهم مناطق واسعة منها طرابلس وجربة وزواودة وزواغة وقرقنة ثم دسّ اليهم رجلا يطمئنون اليه اسمه أبويحيى بن صالح وبعث معه بهدايا نفيسة، فرحبوا به واستطاع أن يسيطر عليهم ويأسر قلوبهم لمعرفته ــ فيما قيل ــ بالسيمياء. وبعد بضعة أشهر كتب اليه المستنصر بأن يخطب له ثلاث بنات من الفروع الثلاثة الكبيرة، فزاد اطمئنانهم، وطلبوا الى المستنصر أن يجعل أبا يحيى أميراً عليهم ففعل، ثم بعد مدة استقدم أبا يحيى الى حضرته وقال له: من أراد من العربان أن يحضر معك فليحضر، فصحبه تسعة (من كل فخذ ثلاثة) فأغدق المستنصر عليهم العطايا، وغالى في مهور الفتيات، وتفنن في استغلال سحر الذهب، وردّ الوفد سالمين، مما

زاد في ابتهاج العربان، وبعد فترة دعا من شاء منهم للمثول بحضرته، فخفّ اليه التسعة ومعهم نحو سبعين رجلاً من قومهم، فأنزل كل عشرة منهم في دار وتوسع في النفقة عليهم، وللمرة الثانية عادوا الى مواطنهم سالمين، ثم ان الخليفة أقام احتفالاً لبعض المناسبات دعاهم لشهوده فسارع اليه أمراء القبائل، فزاد في الحفاوة بهم حين جعلهم ينادمونه ويشربون معه، وأخرج اليهم جواري يرقصن بين أيديهم على نغمات الموسيقى، وكان بعضهم قد تردد في الحضور الى مجلسه وآثر تغليب الشك على اليقين، فأجزل للمترددين المنح ووعدهم بأن يبني لهم في القصر قبة خاصة تسمى «قبة العرب» يجتمعون فيها على اختيارهم، ويشربون فيها، ووقع اختياره على معمار قرطبي لبناء قبة ذات ثلاثة أبواب باب للعربان تكتب عليه اسماؤهم، وباب للحاشية، وباب سري للمستنصر نفسه، ثم أسّر الى المعمار أنه قرأ في كتب التاريخ أن أحد الحكام بنى دارا أساسها ملح ثم سلّط عليها الماء فلما ذاب الملح تقوضت الدار على من فيها، فاستجاب المعمار لرغبته، ولما أصبحت القبة جاهزة دخلها واستدعى زعماء العربان للشرب فيها، وبعد مضي الوقت اللازم لبدء الملح في الذوبان اعتذر بما مكنه من الانصراف، وكان ان ذاب الملح وسقطت القبة فوق رؤوس أولئك الزعماء، وكان قد كتب الى ابنائهم بالقدوم واحضار الفتيات الثلاث المخطوبات، فحضروا بعد انهيار القبة، فوجدوه قد لبس ثياب الحداد، وأظهر الحزن وعزى الوفد في أقربائهم، ولم ينس قبل ذلك أن يتخلّص من المعمار لئلا يفضح سرّه.

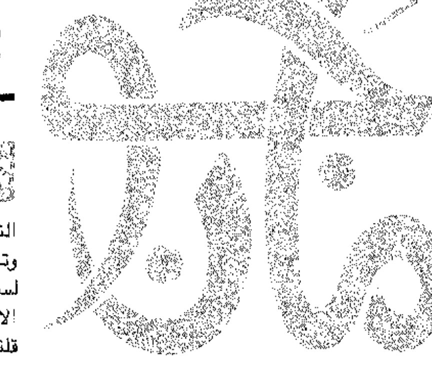
ان هذا اللون الأسطوري من السرد لا تنفرد به الرواية المشرقية بل نجد شبيهاً له في المصادر المغربية، فهذا الزركشي حين يتحدث في تاريخ الدولتين عن وفاة المستنصر يجعل سبب وفاته أمراً يتجاوز التعب والانهاك في رحلة صيد (كما تقول الرواية التي احتفظ بها المشارقة) اذ يقرن ذلك الانهاك بأنه طرد أحد الحيوانات فدخل مغارة، فلحق به الرجال الى داخل المغارة

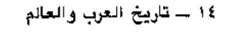


منارة جامع الهواء (القرن ١٣م) والمشابهة لمنارة جامع القصبة.

فوجدوا رجلاً يصلي، فلما شاهدهم طلب اليهم أن يتركوا الحيوان وشأنه لأنه «دخيل الفقراء»، فعاد الرجال الى السلطان وأخبروه بما قال الرجل الزاهد المرابط فأصر على صيد ذلك الحيوان، واذا مانع المرابط في ذلك فليوجهوا نحوه الرماح، فلما أبلغوه بما قال السلطان قال لهم: «وأنا قد أمرت للسلطان بالرماح» ثم طلبوه فلم يجدوا له أثراً وعادوا فوجدوا السلطان قد أفاق من غشية ألمت به بدعوة ذلك المرابط، وما زالت صحته في تدهور واعتلال حتى توفي.

مثل هذه الروايات غير مستغربة في مصادرنا التاريخية، وخاصة حين ترسم المصير لسلطان بعيد الجبروت، ولكن السؤال الذي لم أجد له جواباً — فيما بين يدي من مصادر — هو: من أين استمد المشارقة هذه الروايات التي حفلت بها كتبهم فيما يتصل بالمستنصر؟ هل هي سماعية نقلها السفراء والرحالة والتجار أو هي شيء وجدوه مسطراً في بعض الكتب المغربية؟ ان كان الأمر الثاني فما هي تلك الكتب وأين هي اليوم؟ ●





الصور من كتاب Mosaiques de Tunisie, éditions ceres productions — Tunis

من علماء الزراعة في قرطاج

د. محمّد حسين فنطر مؤرخ وباحث بالمعهد القومي للآثار والفنون

إن الحضارة القرطاجية ما زالت تشكو زهد المؤرخين فيها واكتفاء الدارسين والمدرسين بمجموعة من المعطيات النظرية والآراء الجاهزة تجاوزتها الأحداث وتجاوزها البحث العلمي الصحيح وهذا يعود لسببين كبيرين أولهما يتمثل في قلة عدد الاختصاصيين في الدراسات البونيقية ومع قلتهم تراهم ينشرون نتائج دراساتهم وأبحاثهم بلغات أجنبية قل أن يستفيد منها القارىء العربي، والسبب الثاني هو أن الدراسات التأليفية حول قرطاج وحضارتها تكاد لا تتجاوز مستوى التبسيط والعموميات حتى أنك تجد موطآت لا تستند إلى دراسات قطاعية دقيقة. ومعلوم أن التبسط أو التوطئة لا تكون ذات جدوى إلا إذا كانت منبعثة من دراسات قطاعية دقيقة فالتبسط يعني ضمنياً وجود الدراسات العميقة الدسمة التي لا يدخلها إلا المختصون من أهل الذكر، والملاحظ أن الوضع في خصوص الدراسات البونيقية القرطاجية وضع غريب لا يتفق مع المنطق ذلك أن الدراسات المبسطة لا تستند إلى دراسات عميقة دسمة ودقيقة. فهناك نظريات ساذجة ومخطئة ظهرت منذ قرون وانتشرت خلال القرن التاسع عشر وفي بداية القرن العشرين وما زالت حية ترزق في بعض

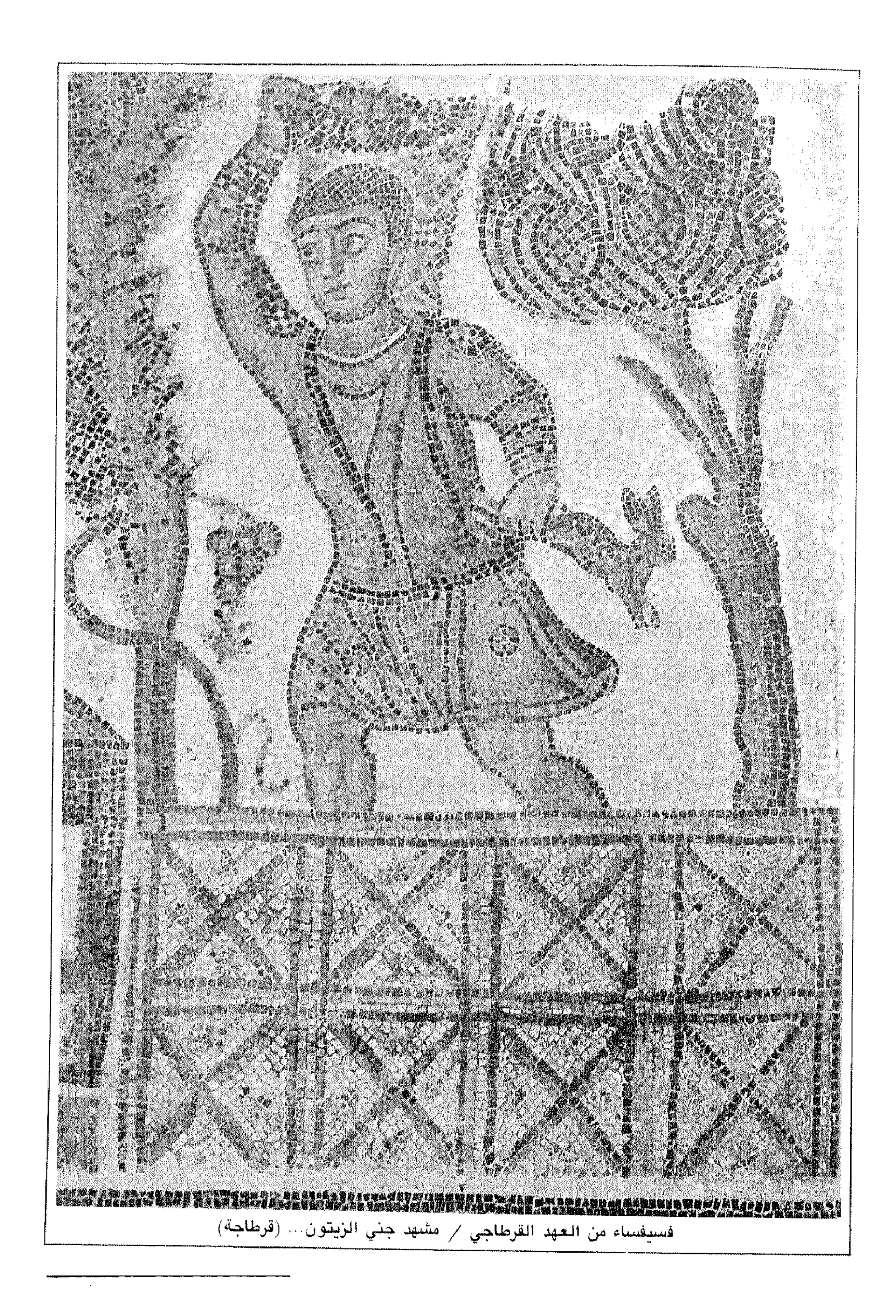
الكتب التي يتناولها التلميذ والمعلّم والأستاذ والقارىء العادي ممن يريدون اقتناء ثقافة تغذّيهم. ومن بين هذه النظريات نظرية مضمونها أن القرطاجيين كانوا منصرفين إلى التجارة دون اهتمام كبير بالقطاعات الاقتصادية الأخرى وكانوا ممن يحجمون أمام القيم والمبادىء إذا كانت القضية تتعلق بالمال والثروة والكسب. تلك نظرية ساهم المرحوم حسن حسني عبدالوهاب في نشرها في البلاد التونسية عبر كتابه المعروف تحت عنوان (خلاصة تاريخ تونس) الذي نشر لأول مرة في ربيع الأنور ١٣٣٣ هـ وما انفكت دور النشر تعيد طبعه رغم شيخوخته ورغم ما في طياته من ضعف، على أنه من واجبنا التنويه بالمجهود الذي قام به إذ ذاك المرحوم حسن حسني عبدالوهاب لشحذ الحسّ التاريخي لدى الشعب التونسي الذي كان مهدّداً في كيانه وذاتيته من قبل النظامي الاستعماري. فنحن نرسل إليه وهو في مثواه الأخير عبارات التنويه والامتنان ونعتبر كتابه دعوة لمواصلة العمل والبحث في تاريخ بلادنا قديمه وحديثه مسخرين المناهج والوسائل العصرية وسوف لن تتباهى بنا روح هذا الرجل إلا إذا تجاوزنا الحدّ الذي أدركه هو بمناهج عصره ووسائله وظروفه الخاصة ففي خلاصة تاريخ تونس كتب المرحوم عبدالوهاب ما يلي: «في خصوص الاقتصاد القرطاجي وحضارة القرطاجيين الفينيقيين على الاطلاق هم امّة بحرية لهذا لم يشتهروا بحضارة شامخة ولا مدنية فنية كبيرة بل كانت عنايتهم كلها منصرفة إلى ما ينمي الثروة التجارية والصناعية إلا ما يقال عن اهتمامهم بالفلاحة وغراسة الأشجار وحفر الآبار ولا يبعد أن كانوا هم الذين جلبوا الزيتون من الشام وعنهم انتشرت غراسته بالشمال الأفريقي وفي اسبانيا وقد ترك أحد علمائهم (ماجون) تأليفاً كبير الفائدة في علم الزراعة». فلا شك أن قساوة الحكم الذي أصدره هذا المؤرخ التونسي في خصوص الحضارة القرطاجية موروثة عن أعداء قرطاج وأعداء الحضارات السامية عامة اولئك الذين لا يؤمنون إلا باليونان والرومان وحضاراتهم. فهو حكم اعتباطي مجحف ينطوي على العداء والعنصرية. تلك كانت نظرة الغرب تجاه الحضارة القرطاجية وعمل الغربيون على نشرها في أوساطهم الجامعية والثقافية حتى كان لكل مواطن أوروبي مجموعة من الأحكام الجاهزة في رأسه وتسربت هذه الأحكام إلى إبناء الأقطار المستولى عليها فتقبلوها مبهورين لما لأساتذتهم من علم ووزن واشعاع. هكذا تراهم يتبنون الأحكام والنظريات التي تقدّم لهم جاهزة ويدافعون عنها وكأنّهم ساهموا في صنعها فما دام الأستاذ الأجنبي قدم هذه النظرية أو أصدر ذاك الحكم فلابدّ أنه على صواب. هكذا كانت الآراء والنظريات تأتينا جاهزة وما زال الوضع على حاله في بعض الأحيان ومـا زِلْتَ ترى بعضهم في تونس أو في غيرها من البلاد العربية يلوكون أقوال أساتذتهم ويذكرون أسماءهم كحجة للأفحام.

ومهما يكن من أمر فلم يغفل المرحوم حسن حسني عبدالوهاب عن التنويه بالزراعة مشيراً إلى اهتمام القرطاجيين بهذا القطاع وذكر اسم أحد علماء الفلاحة عندهم «ماجون».

قضية الاسم:

أنه لمن المفيد أن نتعرّض إلى اسم الرجل وضبطه انطلاقاً من معطيات موضوعية لا تترك المجال للاجتهاد الاعتباطي أو الاجتهاد المجاني فترى بعضهم يكتب ماغون وصِنْفٌ آخر يقول ماجون أو ماجن كما سماه المرحوم عبدالوهاب فما هو الصحيح: ماغون أو ماجن؟ أن الذين يقولون «ماغون» وهي الصيغة الأكثر استعمالاً لكنها الأبعد عن الصواب ينطلقون في تعريفهم الصوتي من المجموعة الصوتية التي يتركب منها هذا العلم في اللغة الفرنسية حيث يقولون (Magon) ويقولون ذلك استناداً إلى المصادر اللاتينية التي أدخلت الاسم في قوالبها الخاصة انطلاقاً مما كانت تلتقطه الأذن اللاتينية حيث كان الفينيقيون ينطقون بقن، مع العلم أن الجيم في أفواه الفينيقيين والبونيقيين كانت تخرج «قـ» وهو نطق نجده اليوم في بعض الأقطار العربية كمصر ونجده في اللغة العبرية فاسم الجمل يكتب بالجيم وينطق «قُمل».

احتفظ الرومان بالصوت «قـ» واستخدموا لأدائه الحرف الذي عندهم يفي بالحاجة فقالوا



فسيفساء من العهد القرطاجي / مشهد جني الزيتون... (قرطاجة)

«ماقو» في حالة الرفع وماقونيس في حالة الجّر «وماقونام» في حالة النصب باعتبار أن المادة تتركب من أحرف ثلاثة وهي الميم والفاء والنون.

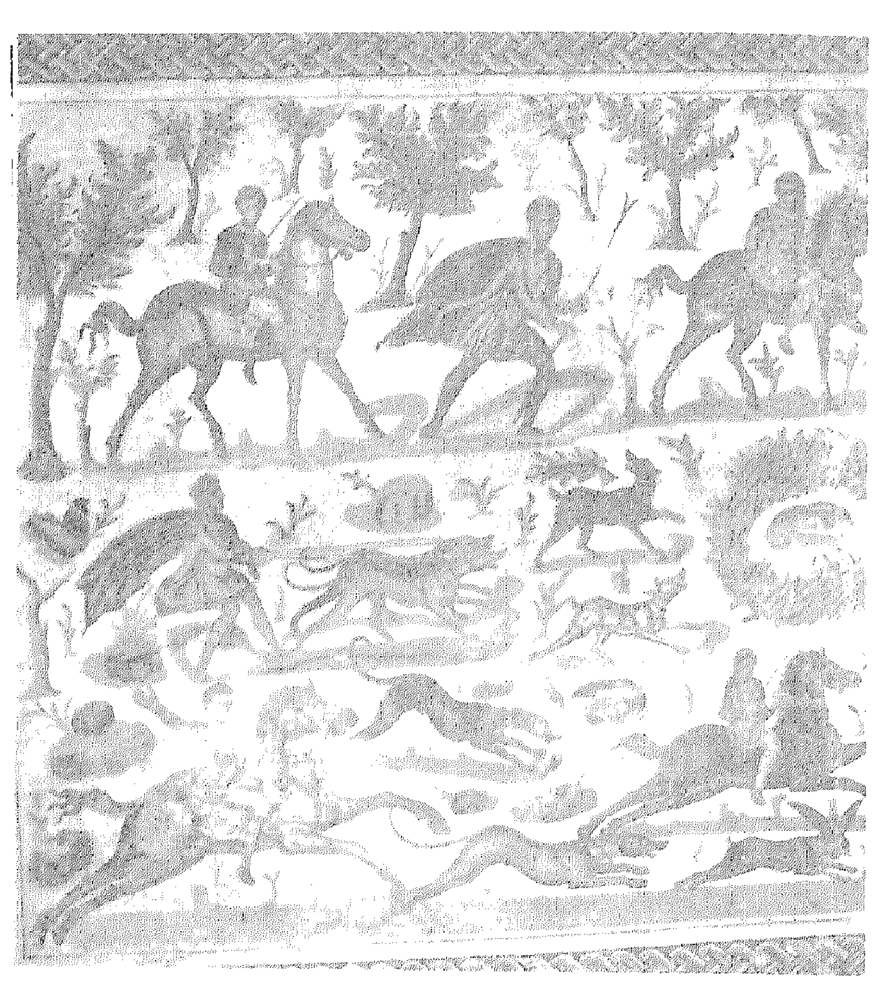
وفي نقل هذا الإسم من اللغة اللاتينية إلى اللغة الفرنسية لم تكن هناك أي صعوبة لما بين اللغتين من أواصر القرابة ومن تناظر أو تطابق فقالوا (Magon) باحترام قاعدة أساسية تقضي بالانطلاق من المادة الأولية أي من العنصر.

فالذين ينطقون «ماغون» يعتبرون أن صوت «ڨـ» في اللغة الفرنسية مثلاً يمكن تأديته «غ» في لغة العرب فمافون أو مافن يتحول إلى العربية على صيغة «ماغون» هكذا فعلوا ليوڨرطة فقالوا وقلت يوغرطة بتعويض صوت «ڨـ» بصوت «غـ» وليس هناك ما قد يعلّل تلك المعادلة الصوتية بل هي طريقة اعتباطية أو إجراء يستند إلى اجتهاد يكاد يكون مجانياً على أن قضية يوغرطة لها خصوصيتها حيث بلغنا الاسم عن طريق النصوص اللاتينية ولا ندري كيف كان يكتب بالأحرف اللوبية ولا بالأحرف الفينيقية حتى نتمكن من وضع المعادلة الحرفية عند التعريب أما في قضية اسم العالم الفلاحي الذي نريد التعريف به اليوم فالأمر أيسر وأوضح فعوض أن ننطلق من الصيغة اللاتينية ينبغي أن نعود إلى الأصل البونيقي لا سيما وقد كان ذلك الاسم منتشراً عند الفينيقيين والبونيقيين وورد مسطوراً بالأحرف الفينيقية على عديد من الوثائق فرسم المعادلة الحرفية أمر بسيط يتركب اسم صاحبنا عن ثلاثة أحرف فينيقية وهي الميم والجيم والنون فلماذا لا نستند إلى المعادلة الحرفية في تعريفنا ونقول ماجون أو ماجن أو مجن ونكون أكثر وفاء للواقع اللغوي ولعبقرية اللغات السامية مع العلم أن اسم «مجن» يعني في اللغة الفينيقية الترس وكانوا ينطقونه «مڨن» لأن الجيم كان ينطق دائماً «ڨـ» وفي اللغة العربية نجد نفس المادة المتركبة من نفس الأحرف ولها كذلك نفس المدلول فنقول «مِجَنّ» فلكل هذه الاعتبارات الصوتية واللغوية تراني أميل إلى الصيغة التي تفطن لها المرحوم حسن حسني عبدالوهاب عندما قال ماجن أو ماجون هكذا نكون قد أرسينا الاختيار على قاعدة سليمة وعلى معطيات موضوعية ثابتة ثم باختيار صيغة ماجون أو ماجن أو مجن يمكن الوصول إلى معرفة المعنى المقصود في المادة الحرفية وثابت أن لكل اسم علم معنى ومدلولاً ولا يتيسر إدراكه إلا إذا تم تشخيص المادة الأولية أي «الكتلة الصوتية التي استخدمت لسبك الاسم». فماذا عن هذا العالم في شؤون الفلاحة والمسمى ماجون أو ماجن أو مجن. لقد أثبتت الأبحاث التاريخية والآثارية أن القرطاجيين كانوا يوجهون عناية كبرى نحو الأرض والزراعة ولعل حذقهم للتجارة لا يفوق حذقهم للفلاحة وخاصة للفلاحة التي تستوجب خبرة ومعرفة تقنيات مضبوطة فلنا في كتب القدماء وفي العديد من الشهادات الأثرية ما لا يترك للشك مجالاً في خصوص المستوى الرفيع الذي أدركته الفلاحة في بلادنا خلال العصور البونيقية.

ومما ساعد على بلوغ ذلك المستوى الرفيع دراسات وأبحاث كان يقوم بها ثلّة من الخبراء أشارت إليهم النصوص القديمة لكنها لم تحتفظ إلا باسمين وهما عبدملقرت وماجون. أما عن عبدملقرت فلا نعرف عنه إلا اسمه وقد اندثرت مؤلفاته وانقرضت فلا نستطيع أن نقول عنه شيئاً وأما عن ماجون فالحظ شاء أن يكون أقل قساوة حيث بلغتنا بعض أخباره كما بلغتنا بعض الفقرات من مؤلفاته التي كان القدماء حريصين على نقلها وعلى الاستفادة منها.

المصادر:

كانت الموسوعة التي ألفها ماجون في شؤون الفلاحة توجد في دار الكتب بقرطاج ولعلّ نسخاً منها كانت ملكاً لبعض الخواص لا سيما اذا كانوا من الذين يتعاطون الفلاحة ذلك أن موسوعة ماجون لم تكن من صنف الكتب التي يحتفظ بها على رفوف المكتبات بل كانت وسيلة عمل يعود إليها صاحبها عند الحاجة ولعل بعض فصولها كانت تلصق في غرف المشرفين على الضيعات مهما اختلفت اختصاصاتهم. ولما كانت الحرب البونيقية الثالثة وسقطت قرطاج وأمر شبيون الإمِلْيَانِي بنهبها وحرقها أهديت الكتب القرطاجية إلى ملوك النوميديين وأمرائهم



فسيفساء من العهد القرطاجي

باستثناء الموسوعة التي ألفها ماجون في الفلاحة فقد استأثر بها الرومان وكُلّف مجلس الشيوخ عندهم بترجمتها إلى اللغة اللاتينية. أورد هذا الخبر أبلينوس الأكبر في كتابه علوم الطبيعة الجزء الثامن عشر الفقرة الثامنة والعشرين في حين أنهم بعد غزو قرطاج وزعوا دور كتبها على الملوك النوميديين وعلى الأمراء الأفارقة مع ان قاتوكان إذ ذاك قد كتب رسالته في الفلاحة وعينت لجنة من المترجمين يحسنون اللغة البونيقية للقيام بذلك العمل برز من بينهم أحد أفراد عائلة شهيرة اسمه ديقيموس سيلانوس (Decimus Silanus) ترجمت موسوعة ماجون إلى اللاتينية ومنها إلى اللغة اليونانية. فالى جانب الترجمة اللاتينية الرسمية تذكر المصادر القديمة أن النص اللاتيني تناوله أحد الذين كانوا يكتبون باللغة اليونانية وكان يعيش في مدينة أوتيكا في بداية القرن الأول قبل الميلاد وكانت المدينة إذ ذاك عاصمة الولاية الرومانية بأفريقية فكان المترجم يدعى قسيوس ديونيزيوس (Cassius Dionysius) الذي أهدى عمله إلى والي أفريقية سكستليوس (Sextilius) سنة ٨٨ قبل الميلاد إلا أن قسيوس ديونيزيوس لم يترجم كل الموسوعة بل لخصها وأضاف لها بعض الفقرات أخذها من كتب يونانية أخرى فعمله تمثل في الترجمة والتلخيص والتوسيع ويحتوي على ٢٠ جزء.

ثم أن هناك ترجمة ثالثة لموسوعة ماجون انطلاقاً من ترجمة قسيوس ديونيزيوس قام بها ديوفان النيقي (Diophane de Nicée) ولعل كلمة ترجمة لا تصحّ ولا تعبّر عن الواقع لأن ديوفان النيقي لم ينقل النص من لغة إلى أخرى بل اكتفى بتلخيص النص المترجم من قبل قسيوس ديونيزيوس فالعشرين جزء تحولت إلى ٦ أجزاء تحت قلم ديوفان النيقي ويعود هذا التلخيص إلى القرن الأول قبل الميلاد ولعله ظهر بعد ترجمة قيسوس ديونيزيوس بما ينيف عن

ربع قرن وقدم ديوفان عمله هدية للملك ديوتارو (Deotaro) ولم ينقطع الاهتمام بموسوعة ماجون بل يبدو أن التلخيص الذي وضعه ديوفان تم تلخيصه بدوره في جزأين وقام بهذا العمل فيلسوف فليون (Pollion) الذي كان يدرس بمدينة روما حوالي ٤٨ قبل الميلاد في حكم بمبيوس.

وبالرغم من هذه العناية ومن هذا الاهتمام المتواصل الحلقات فلم يبق من موسوعة ماجون إلا ٦٦ فقرة وردت في كتب بعض علماء الفلاحة منهم ورون (Varron) وقولومال (Collumelle) وجرجليوس (Gargilius) مرسياليس الأفريقي عاش في القرن الثالث بعد الميلاد وغيرهم وبالاضافة إلى التراجم وبالاضافة إلى الذين أوردوا بعض الفقرات من الموسوعة البونيقية عن طريق التراجم فلا بدّ من الاشارة إلى بعض الذين نوّهوا بماجون وبمؤلفاته منهم نذكر الكاتب الشهير والمحامي البارع قيقير (Ciceron).

فلقد أثبت أن الفلاّح الروماني كان لا يستغني عن قراءة موسوعة ماجون كلما أراد توجيه تعليمات إلى الذين يشرفون على ضيعته ففيها يجد الحلول المناسبة والنصيحة الناجعة فلا ننكر أن الموسوعة كانت شائعة في الأوساط الرومانية فكان لا بد للذين يريدون التآليف في الفلاحة أن يرجعوا إليها لما فيها من فوائد وكان لا بدّ للفلاح مهما كان اختصاصه أن يستوعبها بل أن تكون دائماً مصاحبة له حتى يستنجد بها عند الحاجة. وقد جاء في بعض الفصول من كتاب ورون أن المشرف عن تربية البقر كان يحمل معه مقتطفات من الموسوعة فتتناول كيفية علاج الثيران. وأورد بعض القدماء أن الشاعر الروماني فرجيلوس لما أراد كتابة أشعاره حول الحياة الريفية (Géorgiques) استعان بالموسوعة الماجونية فكانت الموسوعة الماجونية كتاباً يجده القارىء في دور الكتب وكان من أمهات الكتب العلمية لا تخلو منها الضيعة فليس من المجازفة إذا اعتبرنا ماجون من أشهر الذين كان الرومان يردّدون اسماءهم في المدينة والريف ويعتقد الكثير من المؤرخين المعاصرين أن الموسوعة ساهمت مساهمة فعالة في انعاش الاقتصاد الايطالي.

المراجع:

إن اهتمام المؤرخين المعاصرين بالموسوعة الماجونية ليس دون اهتمام القدماء بها وفي اهتمام المعاصرين بها تعبير عن قيمة هذا الجزء من الحضارة البونيقية وتنويه لقرطاج فليس هنا المجال لوضع قائمة الدراسات المعاصرة التي تناولت موسوعة ماجون بحثاً عن مؤلفها أو عن تأثيرها على الاقتصاد الروماني وعن نتائجها في الأرياف الرومانية فليس من متحدّث عن الأرض والزراعة أيام الرومان لا يذكر ماجون وموسوعته لا سيما ان جرّه الحديث إلى الذين ألفوا في شؤون الزراعة.

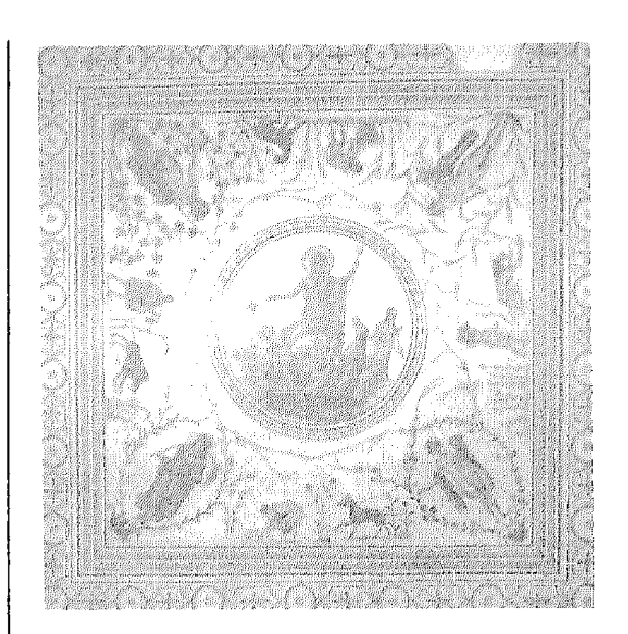


لوحة شهيرة تمثل لحظات من الحياة الرغيدة لسيد قصر في ضيعته (قرطاجة)

ماجون وموسوعته:

لقد حاول العديد من المؤرخين المعاصرين البحث عن هوية ماجون صاحب الموسوعة دون الحصول على نتائج كافية مرضية فلا نعرف شيئاً عن عائلته ولا عن مسقط رأسه لأن مدينة قرطاج لم تكن مسقط رأس كل البونيقيين وما نعرفه عنه عن طريق النصوص القديمة وعن طريق الفقرات التي وصلتنا من الموسوعة فيتمثل في بعض العناصر والتي تتعلق بالاطار الزمني الذي عاش فيه وبالمحيط الثقافي الذي إليه ينتمي والفئة الاجتماعية التي إليها ينتسب وكذلك بأحدى الوظائف التي أسندت إليه حيث أثبت إيلينوس الأكبر أن ماجون من قادة الجيش إلا أن ذلك لا يعني أنه كان من العسكريين المحترفين فلعله كان من الاطارات المثقفة المقتدرة مما يجعل السلطات القرطاجية تُقْبِلُ على تكليفه بخطة القائد.

وفيما يتعلق باطاره الزمني فقد تعدّدت الروايات والاقتراحات فلقد اختَلَفَت النظرية التي كانت ترى في ماجون صاحب الموسوعة مؤسّس الامبراطورية القرطاجية خلال القرن السادس وليس هناك الآن ما قد يجرّ إلى الدفاع عنها ذلك أن الفقرات التي وصلتنا من الموسوعة لا تتناسب مع القرن ٦ ففيها أثر لمؤلفات يونانية تعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد ومعلوم أن الحضارة البونيقية تفتحت على عناصر الحضارة اليونانية وبلغ هذا التفتح أوجه خلال القرن الرابع قبل الميلاد فكان القرطاجيون يحسنون اللغة اليونانية ومنهم من



لوحة جدارية من الفسيفساء تمثل عدة حالات من الاعتناء بالأرض

كان محيطاً بالفلسفة اليونانية على أن ذلك لا يفيد قطعاً أن ماجون صاحب الموسوعة عاش خلال القرن الرابع قبل الميلاد بل ما يحق اثباته على ضوء ما سبق أن القرن الرابع هو الحدّ الأقصى بالنسبة للحقبة الزمنية التي عاش فيها ماجون أما الحدّ الأدنى فهو في رأي أغلب المؤرخين يتمثل في الحروب البونيقية فالحقبة الزمنة التي يمكن تنزيل حياة ماجون فيها تبدأ في القرن الرابع وتنتهي خلال القرن الثاني قبل الميلاد فيكون قد عاش ما بين القرن الرابع والقرن الثاني قبل الميلاد بدون ضبط على أن جلبار بيكار ينسبه إلى عصر الحروب البونيقية ولم يتردّد أحد الدارسين الايطاليين في نسب الموسوعة إلى أخي حنبعل الذي كان يدعى ماجون وشارك في الحرب البونيقية الثانية ورافق أخاه إلى ايطاليا ففي رأي الباحث الايطالي اسبيرنسا (Speranza) تتوفر في أخي حنبعل كل الشروط فهو قائد عسكري وعاش خلال الحرب البونيقية الثانية ومعلوم أن الأبارقة معجبون بالحضارة اليونانية وكانوا مغرمين بالفلاحة فلهم ضيعات في الساحل التونسي فهل من الغريب أن تنجب هذه العائلة عالماً في شؤون الفلاحة؟ ثم لا ننسى أن من آثار حنبعل أنه كلف جنوده بغراسة الزيتون بالساحل حتى لا تسيء لهم البطالة. فلا شك أن نظرية الايطالي أسبيرنسا طريقة مغرية لكنها ليست قادرة على فرض كيانها فقد تكون صحيحة لكن ليس لنا من الوثائق ما يثبت صحتها بصفة قطعية بالأرض والزراعة ذلك أن العمل الذي قام به ماجون لم يكن نتيجة مطالعات في دور الكتب بل هو حصيلة عمل نظري وعمل تطبيقي أساسه الملاحظة والتجربة ولقد لاحظ القدماء ذلك عندما أقروا أن العديد من التوجيهات الماجونية لا تصلح إلا لمن يعمل في أرض تشبه في تربتها وفي مناخها الأرض الأفريقية.

مهما يكن من أمر فلابدّ أن يكون ماجون صاحب الموسوعة من عائلة ثرية لها اتصال متين بأولي الأمر.

محصول الموسوعة:

لم يصلنا من الموسوعة إلا بعض الفقرات المبعثرة في كتب العلماء الفلاحيين طيلة العهد الروماني ولعل بعض أصدائها تجاوز حدود العصر القديم وادرك عن طريق المصنفات البيزنطية العالم الإسلامي فيبدو أن ابن العوام قد تأثر عن غير وعي بمؤلفات ماجون وذلك عن طريق موسوعة فلاحية بيزنطية صنفها قسيانوس باسوس.

أما الفقرات التي بلغتنا من موسوعة ماجون وعددها كما قلنا ٦٦ تتعلق بزراعة القمح وغراسة الأشجار المثمرة كالكروم والزيتون واللوز والرمان والتين وكذلك بعض النباتات البرية التي قد تكون لها فائدة صيدلية ثم أن هناك قسماً يتناول تربية الماشية وتربية النحل لانتاج العسل وأخيراً نجد قسماً يخص التصرف في الضيعة ويحتوي على مجموعة من النصائح يتعلق بادارة الضيعة منها نصيحة مضمونها ما معناه «إذا اشتريت ضيعة فعليك أن تبيع البيت» وذلك يشير إلى ضرورة الاقامة في الضيعة إذا أراد صاحبها حُسن الانتاج.

هكذا نتبين أن القرطاجيين كانوا يوجهون عناية فائقة إلى الفلاحة وكانوا حريصين على ضمان إزدهار فلاحتهم فسخّروا لها العقول ووضعوها على أسس علمية.

تونس

وَالحَضَارَة الأندلسِيَّة

الاستاذ سُليمان مُصطفى زبيس

عضو مراسل للمجمع الملكي للتاريخ بمدريد
وباحث بالمعهد القومي للاثار والفنون



حيثما نرجع الى الوراء في ميدان التاريخ نرى تونس مرتبطة ارتباطا وثيقا بالاندلس، فاذا رجعنا الى ايام قرطاجنة رأينا جالية تونسية من اعظم رجال قرطاجنة مقيمة في شرقي الاندلس هذه الجالية من السراة كان على رأسها القائد اميلكار والد القائد الخالد هنيبعل وقد اقاموا مدة في شرقي الاندلس في تحضير انفسهم لغزو روما بعد النكبة الاولى التي منيت بها بلادهم اثر الحرب البونيقية الاولى.

وعلى الضفاف الشرقية للاندلس ما زالت الى اليوم مناطق اثرية بونيقية كشفت عنها الحفريات مثل «امبورياس» ومدن اخرى قائمة كقرطاجنة في جنوب لقنت وقد خلفت في السكان اثارا اخرى عميقة لا تحصى كاختيار سكان برشلونة اميلكار «كسلطان» لبلدهم.

وفي عهد لاحق للبونيقيين رضخت تونس واسبانيا لسلطان واحد هو الامبراطورية الرومانية التي سيطرت قرونا على الشعوب وسخرت قلوبهم وعقولهم للاندماج ضمن ثقافة موحدة هي الثقافة الرومانية التي امتدت بعيدا شرقا وغربا وجنوبا وشمالا فصاروا جميعا يلهثون بعظمة روما وسلطانها ويهابونها ويخشونها ويعملون على تقليدها في جميع الميادين. فتونس واسبانيا أُترعت كل واحدة منهما من فيض هذه الحضارة ولكنهما انجبتا كل على حدة رجالا من ابناء وطنهما زينوا وجه روما الى الابد ولنذكر سانت اقوستان من رجال الكنيسة الخالدين في قرطاج (تونس) وسينيكا الفيلسوف وليد قرطبة (الاندلس).

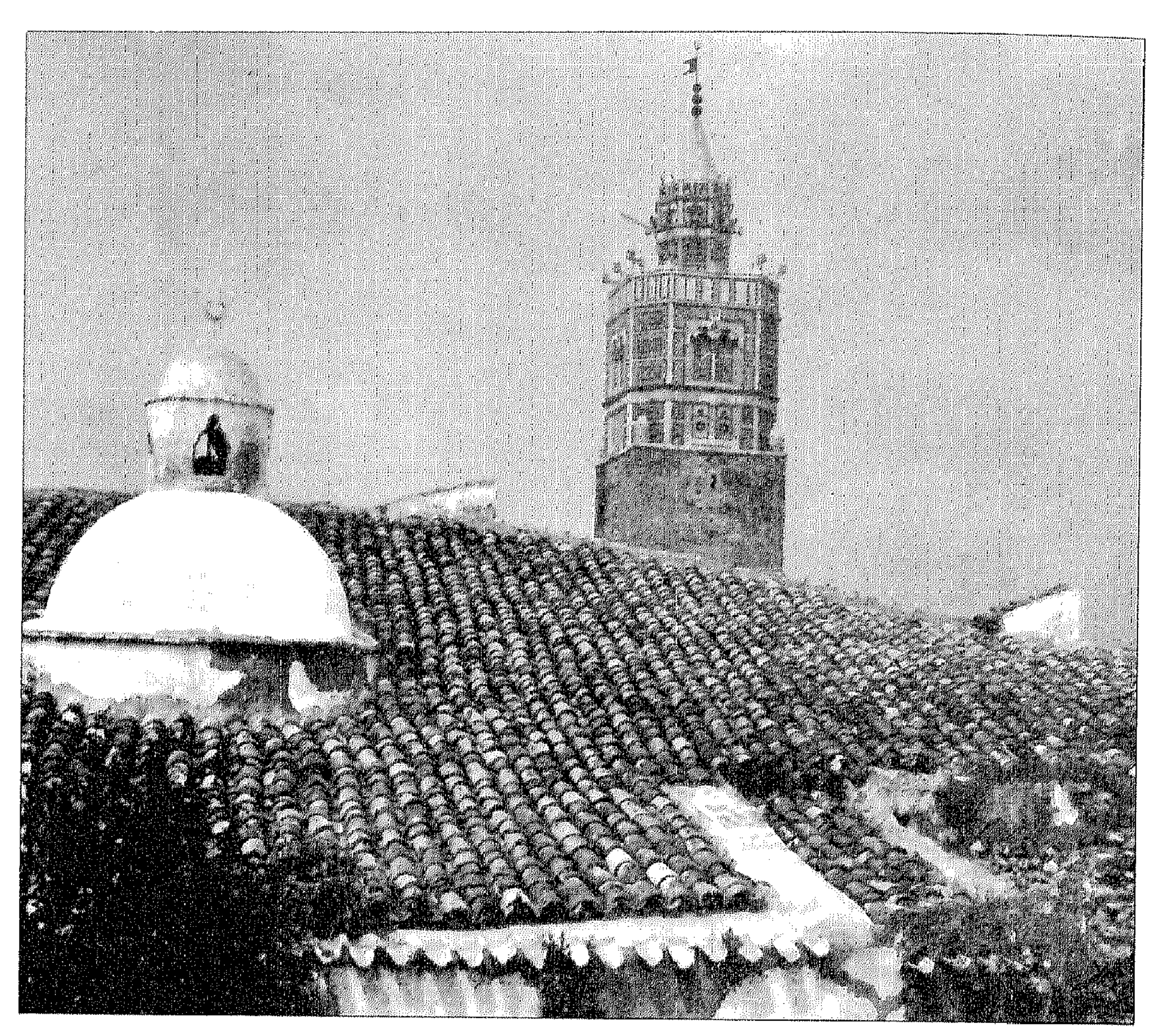
ثم جاء الفندال فأنشأوا الفندلس (الاندلس) وألصقوا اسمهم ابدياً بها ونزحوا عبر المغرب والجزائر وقرطاج فأزاحوا عنها الحكم الروماني وأقاموا بدله حكماً جديداً دام قرناً تقريباً.

دامت سيطرتهم على البلاد إلى ان زحفت اليهم الجيوش البيزنطية فتلاشى امرهم. ومن غير المعقول أن يضمحل قوم هكذا بين عشية وضحاها حسبما يبيّنه المؤرخون الافرنج فلا شك أنهم اندمجوا وسط السكان الأصليين الذين خبأوهم في ديارهم وشدوهم عن العدو المهاجم فاندمجوا في السكان هؤلاء دخلوا فيهم بلا رجفة. وهكذا نرى شعبا اندلسيا كاملا يدمج في سكان تونس بصفة تكاد ان توصف بالمطلق.

بعد هذه الفترة استقر البيزنطيون في قرطاجنة وما والاها من البلاد وصار امر اسبانيا الى الزحفات الجرمانية فتوطد الملك للقوط وعاشت كل من قرطاجنة واسبانيا في انكماش وعزلة عن بعضهما مدة قرن الى ان جاء الاسلام وبدأ التطاحن بينه وبين بيزنطة وامتد هذا التطاحن الى افريقيا الشمالية عبر البر والبحر وغلب العرب البيزنطيين في افريقيا وانتشرت جيوشهم ممتدة الى الغرب وانشئت القيروان لتكون مبعث نشاط هذا الانتشار الى المغرب فخرج منها جيش بربري تحت قيادة طارق بن زياد الذي سرعان ما اخترق جبل طارق الى الاندلس وشرع في الفتوحات متوغلا في هذه البلاد فاتحا فتحا مستمرا. ثم واصل العرب الزحف الى بلاد الغال تحت قيادة عبد الرحمن الغافقي المبعوث من القيروان ثم زالت الخلافة الاموية في المشرق فهرب واحد من امرائها عبد الرحمن (صقر قريش) الى القيروان فمكث فيها مدة ثم واصل سيره نحو الاندلس فدخلها.

فكان المجتمع الجديد في الاندلس مجتمعا يتألف من السكان القدامى ومن العرب ومن البربر. فالعرب منهم دخلوا الاندلس بتقسيمهم القبلي وتعصبهم لها وكان يربطهم بالعرب الباقين في القيروان وكذلك البربر وشائج القربى. فكان كل ما كان يحدث في القيروان او في الاندلس يدوي صداه في الناحية الاخرى. فكانت الاندلس حينئذ قطعة ترابية مرتبطة بالقيروان ارتباطاً كليا سياسيا وثقافيا واجتماعيا الى حلول عبد الرحمن الداخل بالاندلس فاستقل بها عن القيروان الا انه لم يقطع الروابط الاخرى التي بقيت وطيدة داخل مملكة عربية اسلامية واحدة يعيش فيها السكان عيشتهم في وطن واحد من مكة الى قرطبة يتمتعون بجميع حقوقهم الدينية والانسانية.

والى جانب الروابط التي ذكرناها نذكر الروابط الدينية واللغوية. فالدين الاسلامي جعل من هؤلاء امة واحدة تصلي وتعبد ربها باللغة



معالم تونسية ذات طابع اندلسي

العربية وحلت ثقافة جديدة قوامها اللغة العربية، فبعد ان خرج الى النواحي القاصية من الفتح ثلة من كبار التابعين ليفقهوا الناس في الدين كأبي حنش الصنعاني الذي قام بعمله في نشر الكتاب في القيروان ثم في الاندلس ثم توفي في القيروان — فبعد هؤلاء جاءت الى الاندلس جماعة كونوا المقرين السبع فنشروا التعاليم الدينية نشرا مطردا قبل ان تظهر طائفة الفقهاء في القيروان والأندلس. ومن جملة هؤلاء السبعة يحي الليثي الذي ادخل المذهب المالكي الى الاندلس وكان بربري الاصل جاء من الشرق عبر القيروان. والى جانب هذه الروابط تكونت بين الاندلس والقيروان روابط انسانية اخرى نتيجة لرحلات الى الحج والتجارة وطلب العلم. فكانت الرحلة الى الحج تمر في الذهاب والاياب حتما بالقيروان الا اذا كانت عن طريق البحر او الصحراء. فكان في القيروان رجال من اصحاب الاوزاعي ومالك كالبهلول بن راشد واسد بن الفرات وعلي بن زياد. ثم في فترة لاحقة سحنون بن سعيد واستقر المذهب المالكي في الاندلس وفي القيروان بدل تعاليم الاوزاعي وتمسك الفقهاء بهذا المذهب تمسكا قويا وبقي المذهب الوحيد في هذين القطرين. وكان من شهرة سحنون ومن علماء القيروان امثاله ما جعل الاندلسيين يترددون الى حلقات دروسهم. ففي القيروان نرى فقيها اندلسيا كبيرا هو يحي بن عمر يقيم فيها وفي الرباطات التابعة لافريقية مع طوائف من الاندلسيين يعيشون فيها الى ان يعودوا الى بلادهم او يموتوا في المهجر. منهم يحي بن عمر هذا صاحب «احكام السوق» الذي توفي في مدينة سوسة وقبره بها مزار

مكرم. ونذكر منهم ايضا ابن خيرون المعافري الاندلسي الذي خلد ذكره مسجد من القرن الثالث الهجري بالقيروان مـازال على صفتـه الاولى.

وهكذا نرى مثل هذه الروابط تتكرر وتستمر عبر العصور في الاتجاه من قرطبة الى القيروان.

واما الاتجاه ما بين القيروان وقرطبة فكان يسيرا ودام ذلك الى ايام الزحفة الهلالية في اواسـط القرن الخـامس هجـري لما ضغـط الهلاليون على المدن الافريقية فلجأ الفقهاء وبعض ميسوري السكان الى الاندلس مثل ابن شرف وابن رشيق وغيرهم.

وكانت قبل ذلك تاتي التأثيرات من القيروان نحو قرطبة نذكرها اليوم في الاثار. فجامع قرطبة قد اخذ عن القيروان القباب ذوات الاضلاع التي مـا زلنا نشـاهدهـا في جوامـع القيروان وسوسة والزيتونة بتونس كذلك الزخـارف على الواجهـات بالآجـرّ النـاتـىء (انـظر الواجهـة الشرقية من جامع القيـروان وواجهة مسجـد كريستو دي لالوس في طليطلة). وكذلك الخط الكوفي في النصوص المقبرية التي يعود اكثرها وانماط زخارفها الى الخط والزخارف القيروانية (انظر بوانسو نقائش القيروان وليفي بروفانسال نقائش الاندلس).

ثم جـاء عهد المـوحدين فـاكتسحـوا معـا الاندلس والشمال الافريقي بدخول تونس. فهكذا صـار قسط كبـير من الحـوض الغـربي من الانـدلس تحت هذه السيطرة فكانت البـلاد التونسية موطنا نائيا عن مراكش (مركز الخلافة الموحدية) فرأى جماعة من الثوار الاندلسيين بنو غانية الميورقيون وكانوا من كبار الحكـام المرابـطين مـواصلة الكفـاح خـارج بـلادهم لاستعادة السلطان المرابطي فنزلوا من البحر في بلاد الجزائر ثم انتقلوا الى البلاد التـونسية فدخلوها ودام احتلالهم للجنوب التونسي مدة خمسين سنة بلا طائل حتى اذا فشل امرهم بعث زعيمهم ببناته الى ابي زكـرياء الحفصي كوديعة لديه بعد موته فانزلهن ابو زكريـاء في الحي المعروف بباب البنات ــ انزلهن في قصر واكرمهن اكراما كبيرا حتى متن فدفن في تربة خارج باب البنات، وقد زالت اليوم ولكن بقيت



القناطر والزخرفة... طابع اندلسي في تونس اليوم

تسمية الحي كله بحي باب البنات.

امـا في الجنوب فبقيت اثـار بني غـانيـة الاندلسيين ظاهـرة الى اليوم في جـامع تـوزر المسمى بجامع البلد (انظر محرابـه الاندلسي وكذلك في ناحية قريبة منه تسمى باولاد ماجد حيث بقي محراب الجامع على صفته الاندلسية) والمظنـون ان اشكال واجهـات الدور تبـوزر الحاملة لزخارف بالاجر النـاتىء هي من ذلك العهد وهي على النمـط العربي المـوجـود في سرقسطة بالشمال الشرقي من الاندلس.

هذا ما وجـدنـاه باقيا من مظاهر الثقافة الاندلسية في البلاد التونسيـة في ذلك العهد. والمظاهر الاخرى التي اضمحلت بطول الزمن لا شك انها كثيرة خصوصـا في لغة السكـان وتسمياتهم (تسمية الرجال وتسمية الامـاكن) والعادات والتقاليد ولعل بقايا من هاته المظاهر مـا زالت موجـودة تستدعي قسـطا وفيرا من البحث.

فرجال الدولة الموحدية كان لبعضهم حكم في الاندلس ورجال في دائرتهم تخلقوا بـالاخلاق الاندلسية وعاداتهم. والبعض منهم صارت لهم قيادة في البلاد التونسية فجاؤوا بالحاشية التي كانت معهم بالاندلس وحاولوا ان يجعلوا من محـل قيادتهم هنـا ارضية تجمـع مـاكـانـوا يتمتعون به في الاندلس الا انهم انشغلوا عن ذلك بحملة الميورقي حتى بدأ سلطان الموحدين في الافول بعد ان حكم تونس وتولى القيـادة العليا فيها شيخ الموحدين ابو محمد عبد الواحد في بـداية القـرن السـابـع هجري فـوطأ لوراثـة الحفصيين بدل الخلافة المغربية وكان ابو محمد عبد الواحد هذا قائدا للموحدين في الأندلس له

ضلع كبير في الجهاد وأبلى البلاء الحسن في موقعة قبرة في جنوب قرطبة.

فلما توفي في تونس خلفه ولده ابو زكرياء الحفصي وكان من قبل واليا على اشبيلية.

كان ابو زكرياء زعيما حازما صارم الشكيمة بدأ حكمه بالانسلاخ عن الدولة الموحدية ورحل غربا فدوخ المغرب الاوسط حتى وقف عند تلمسان فبعد بذلك صيته وجاءته البيعة بالزعامة العظمى من المشرق والمغرب وكانت دولة المسلمين في الاندلس في حرج من جراء حملات النصارى المظفرة على المسلمين وبعثت مملكة بلنسية تستنجد بابي زكرياء فجاء ابن الابار على رأس وفد اندلسي طالبا النجدة فبعث ابو زكرياء باعانة مادية الى شرقي الاندلس ولكن الملك يعقوب الغازي ملك اراغون استحوذ عليها.

وهكذا سقطت مدن بلنسية ومرسية والمرّية في ايدي النصارى ففر منها من امكنه الفرار الى المغرب والجزائر وتونس فكانت طائفة من كبار التجار والعلماء والفقهاء والادباء يفدون على تونس نتيجة لذلك.

ثم بعد مدة قصيرة سقطت في ايدي النصارى قرطبة واشبيلية فخرج منها نفر هائل من سراة القوم وعلمائهم الى تونس فأسس ابو زكرياء جامع الموحدين بالقصبة فعمل فيه الاندلسيون ونمقوه على نحو الجيرالدا في اشبيلية وجاء مع من جاء من مرسية طائفة كبيرة من سكان الناحية الشرقية من الاندلس تحت قيادة حاكمهم محمد الرميمي المدفون بالمرسى فاسسوا في حي باب الخضراء حيا كاملا بقصوره ومساجده واسواقه وكتاتيبه وحمامه فسمي هذا الحي الكبير بين باب السويقة وباب الخضراء بحي حمام الرميمي وهي تسمية باقية الى هذا اليوم.

أما في داخل المدينة فيظهر ان طائفة من السكان الاندلسيين نزلوا بناحية نهج تربة الباي والدليل على ذلك — وهو ليس بالدليل القاطع — ان عائلة ابن خلدون استوطنت هذا الحي وقبلت فيه في القرن الثامن الهجري العلماء القادمين من المغرب والاندلس صحبة السلطان ابي الحسن المريني والدليل الاخر ان الطبقة المترفه من الاندلسيين القادمين بعد ترحالهم الاخير من الاندلس نزلوا الى جانب ذلك الحي وهو المسمى بحومة الاندلس.

وفي ايام المستنصر بالله كان البلاط الحفصي زاخرا بالعلماء امثال النحوي الكبير بن عصفور والشاعر حازم القرطاجني والمؤرخ ابن سعيد المغربي والوزير والقائد الباسل ابن ابي الحسين الذي كان قائدا للحملة الاندلسية القاطنة برادس والتي تصدت للزحفة الصليبية التي قادها الملك الفرنسي سان لويس.

هذا ما كان يدور من اندلسيات في البلاط الحفصي. اما على الصعيد الشعبي فلا نقدر على تقديره ولكنه كثير بلا شك وان لم يتبق منه شيء يذكر. ونذكر مع هذا مسجد الاشبيلي بحي سوق البلاط وهذه النسبة تكفي للدلالة على ان مواطنا اندلسيا عظيما اسند اليه الجامع وكذلك باب سوق القماش في الركن الجوفي الشرقي من جامع الزيتونة وهو سوق القماش الذي حلي بابه على النمط الاندلسي كذلك وأيضاً الميضاة، ميضاة الزيتونة الموجودة في سوق العطارين في الناحية الجوفية من الجامع وهي اندلسية المظهر ايضا ولا شك ان مثيلاتها قد كانت كثيرة تشوهت بالمظاهر الاندلسية الحديثة التي ظهرت في القرن الحادي عشر هجري. ولعل من ذلك الوقت ترجع بعض التسميات كعائلة لاقنتي والخشاب والطرطوشي والقرطاس الشاطبي الذي كان يأتي من شاطبة بالاندلس وصنع هنا في مدة لاحقة.

ومن ذلك العهد ترجع بعض انماط الزليج وقد وجدنا منها قطعتين مقبريتين على غاية من الجودة.

واستمرت هذه الحال في البلاد التونسية عبر عصور الدولة الحفصية كلها.

ثم سقطت غرناطة في ايدي النصارى فخرج منها من خرج وبقي الكثير فاضطهد ونُصّر بالقوة وحرمت عليه اللغة العربية وتعدّدت الاضطهادات الى ان نشبت الثورة الكبيرة في جبال «البوخاراس» تحت قيادة ابن امية فدامت ما دامت حتى فشلت فزيد في التنكيل بالمسلمين القدامى. واخيرا في بداية القرن الموالي (الحادي عشر هجري والسابع عشر ميلادي) امر الملك

الاسباني فيليب الثالث في سنة ٦٠٩ بترحيل هؤلاء النصارى الجدد حيث تبين ان لا خير فيهم على سلامة البلاد الاسبانية. فلما طردوا توجهت طائفة منهم الى البلاد التونسية حيث آواهم عاهل البلاد عثمان داي ثم خلفه يوسف داي. وكانوا طوائف عديدة انتصبوا في البلاد فعمروها وكانوا لا يعرفون اللغة العربية ولا مبادىء الاسلام الا ما تعلموه خفية بلغة «الخميادو» ولكنهم كانوا يشعرون شعورا مرهفا بانتسابهم للاسلام واللغة العربية فاخذوا يتعلمونها بلهفة خارقة ويتحمسون لها تحمسا كبيرا، فالسواد منهم راموا مواصلة الكفاح ضد الاسبان في وطنهم الجديد فاعطوا طاقاتهم ومعرفتهم بالفنون الحربية الى الملك ليستعين بهم على دحر الاعداء فاسست بهم قواعد حربية في بنزرت وغار الملح وحلق الوادي. فانصرفوا لبناء الحصون والمراكب وتدريب الناس على ركوب البحر والنضال فيه بمختلف اوجهه وتعبئة البلاد والمراكب والحصون بالسلاح الجديد الا وهو المدفعية.

واستعمل ملوك تونس عدداً من هؤلاء في الفلاحة فاسسوا جملة من القرى والمدن في النواحي الخصبة من تونس مثل تبرسق وتستور والسلوقية وقريش الوادي وطبربة والباطان والجديدة وقلعة الاندلس وسليمان وبلي وتركي ونيانو وقرمباليا وزغوان. وتعاطوا الفلاحة بصورة عملية اثروا بها البلاد.

اما في غيرها من المدن فقد نزل بها الاندلسيون وتعاطوا التجارة والصناعة في مختلف النواحي فقد وسعوا في نطاق صناعة الشاشية وادخلوا هذه الصناعة وسموا مختلف اطوار الصنعة والامكنة بتسمياتها الاندلسية فمثلا مصنع الباسطي (من بياسة) يسمى البانكو على رأسه صانع كبير يسمى (كبيسا بانكو) وهو يتعاطى مختلف اطوار الصناعة منها (كردار) و(افنار) الى اخر ذلك من الالفاظ الاسبانية التي لم تعرب الى يومنا هذا.

وتعاطوا صناعة الحرير وصناعة القوافي ومختلف صناعات الطرز والتنميق.

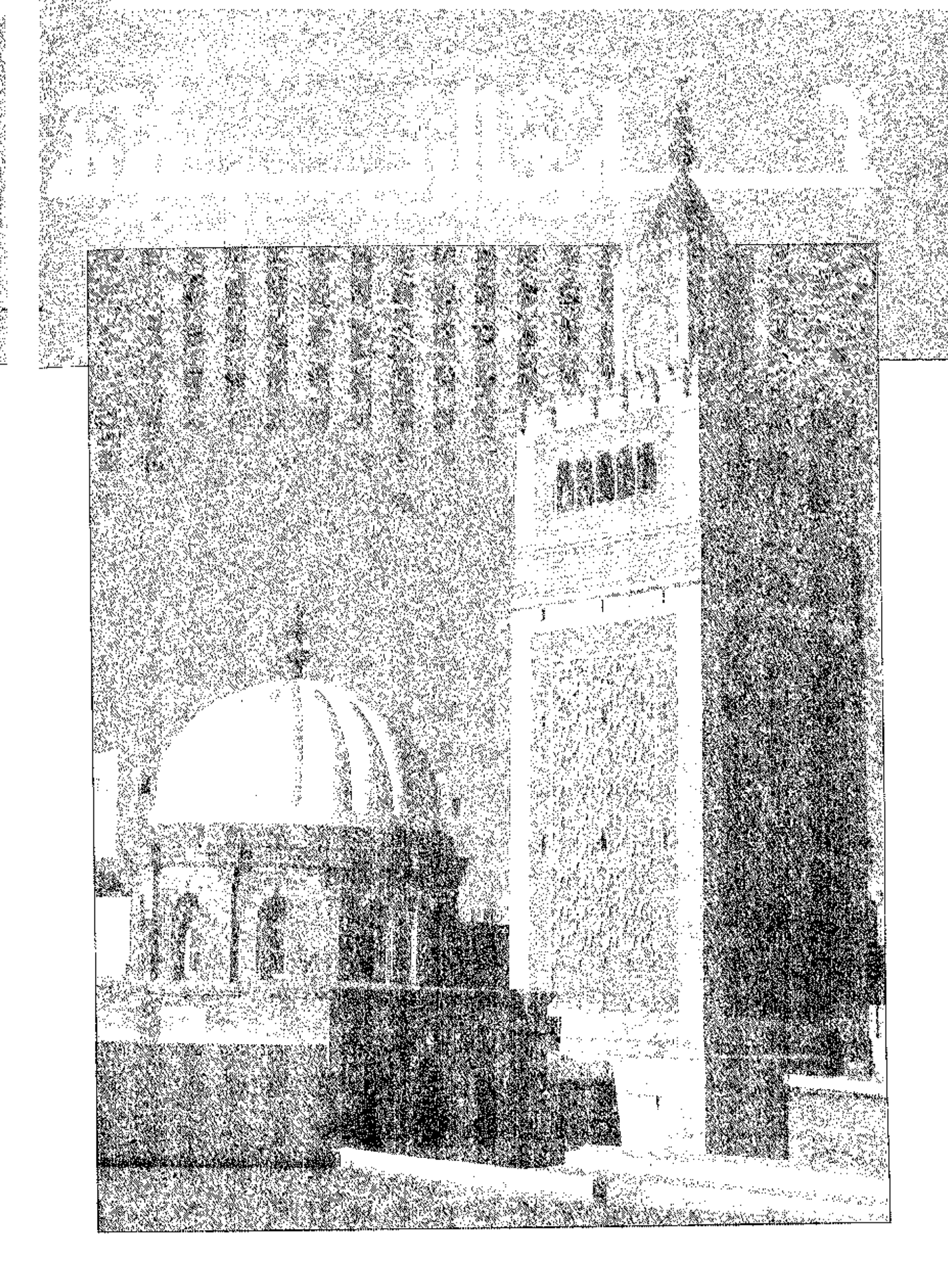
وكان الاندلسيون يتأنقون في اللباس تأنقاً عظيما ويستعملون الاطعمة الاندلسية الشهية مثل الكيسالس (في تستور) والكوبيارس (في سليمان) والعجة (وهي غير العجة عندنا اليوم) والبناضج.

اما عن اسماء العائلات فان الذين جاؤوا الى تونس قبل سنة ١٦٠٠ كانوا يملكون دينهم (الاسلام) ولغتهم (العربية) فكانت اسماؤهم عربية ونسبتهم الى المدن نسبة عربية كالقرطبي والاشبيلي والمالقي. واما الذين جاؤوا من بعدهم فجاؤوا يتخاطبون بالاسبانية فتعلموا العربية هنا وأبقوا على جانب عظيم من اللغة الاسبانية فهذه جدة تخاطب ابن ولدها الى اربعين سنة فقط ـ بمثل العبارة «سيارى لا بويرتا» و«جيب الكوشيا» وهذه الجدة الاخرى من عائلة الكالان الموجودة الى اليوم كانت الى خمسين سنة تغني لابن ولدها لتنويمه الاغنية التالية «يا مدندني صابادو شوف مهجتي بينادو».

اما الاطار الذي يعيش فيه ثمانون في المائة من التونسيين فهي المنازل والقصور ذات المسحة الاندلسية البحتة المكسوة جدرانها بالزليج والجص المنقوش المزخرف وسقوفها الخشبية المزوقة بالدهان او بمختلف الزخارف وهي اندلسية تخلى عنها سكان هذا العصر الى المباني الحديثة الخالية من كل فن.

اما الزوايا والمدارس والمساجد فكلها على النمط الاندلسي يخيل للناس فيها انهم ما زالوا متمسكين بالمظاهر التي جلبها اجدادهم من الحمراء ومن قرطبة واشبيلية ذلك انهم منذ حلوا بهذه البلاد وهم عازمون على العودة الى بلادهم يوما ما وعليه فان معظمهم استبقى مفتاح دار اجداده فتلاشت منذ عهد قريب وقد يئسوا من الرجوع الى بلادهم وصاروا مواطنين مخلصين لهذا الوطن ولكن استحفظوا تمام الاستحفاظ على نسبتهم فكلهم فلان بن فلان الاندلسي كما استحفظوا على الاسماء الاعجمية التي جاؤوا بها الى هذا الوطن وفيهم من ينتسب الى قرية كشوريا ومن كان اسمه كريستو وماركو وهيريرا ومناشو وكروز ومرتيل وبانطور والروي والكوندي وفرصادو وبلانكو ونيقرو وفنيره وبان وتينسة.

●



القسم القديم من تونس الحاضرة، وهو المعروف هناك باسم «المدينة» يمكن اجتيازه من الشرق الى الغرب في نصف ساعة، ويحتاج المرء في الانتقال نحو جنوبه الى ساعة واحدة. على أنني لا أعرف في دنيا العرب، باستثناء القدس، مدينة تضم في مثل الرقعة الصغيرة من تاريخ العرب والاسلام عمارة وحضارة وثقافة وصناعة ما تضمه تونس. ان التاريخ العربي الاسلامي يتمثل فيها بشكل عامودي من القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) الى القرن الماضي. فجوامعها ومساجدها ومدارسها وقبابها ودورها وسبلها وحوانيتها تضع أمام ناظريك صورة واضحة الخطوط بينة المعالم للنتاج الحضاري العربي الاسلامي.

ورغبة منا في أن يكون حديثنا عن الآثار الاسلامية في مدينة تونس مبنياً على أساس واضح، فاننا نستميح القارىء الكريم العذر ان نحن سمحنا لأنفسنا أن نضع أمامه لمحة مختصرة للعصور التاريخية الاسلامية المختلفة التي عرفتها تونس. وهذه يمكن أجمالها فيما يلي:

ــ عصر الولاة ٢٧ ــ ١٨٤هـ. (٦٤٧ ــ ٨٠٠م). وهو العصر الممتد من بدء الفتح على يد عقبة بن نافع الى أوائل عهد الدولة العباسية. في هذا العصر تم بناء القيروان وتأسيس دار الصناعة في تونس وبناء جامع الزيتونة وتدوين الدواوين وجعل العربية اللغة الرسمية للدولة.

ــ عصر الأغالبة ١٨٤ ــ ٢٩٨هـ. (٨٠٠ ــ ٩٠٩م). كانت دولة الأغالبة، التي أنشأها ابراهيم بن الأغلب تتمتع باستقلال داخلي تحت راية الخلافة العباسية. وفي أيام زيادة الله تم فتح صقلية سنة ٢١٢هـ. (٨٢٧م)، ومالطة سنة ٢٥٥هـ. (٨٦٨م). وكانت أيام الأغالبة أيام أزدهار وثراء بالنسبة الى تونس.

ــ الدولة الفاطمية في تونس ٢٩٨ ــ ٣٦٢هـ. (٩٠٩ ــ ٩٧٣م). في هذه الفترة من عهد الفاطميين احتلت «كورسيكة» و«سردينية». وقد خلف الفاطميين هناك، بعد انتقالهم الى مصر، الصنهاجيون.

ــ الدولة الصنهاجية ٣٦٢ ــ ٥٤٣هـ. (٩٧٣ ــ ١١٤٨م). ولما انتقل المعز الفاطمي الى مصر استخلف «ابن زيري» على تونس، فاستبد هذا بالأمر وأسس هذه الدولة التي كان من كبار رجالها باديس بن المنصور وابنه المعز. وقد كان زمن الصنهاجيين عصراً بلغت فيه تونس شأواً عظيماً في التمدن الاسلامي، ولم يكدر صفو الحياة في تونس في تلك الفترة سوى الزحفة الهلالية ٤٤٠ ــ ٤٤٣هـ. (١٠٤٨ ــ ١٠٥١م)، التي دمرت معالم كثيرة في تونس، وخاصة القيروان.

ــ دولة الموحدين ٥٥٥ ــ ٦٢٦هـ. (١١٥٩ ــ ١٢٢٨م). أدخلها عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين في المغرب في نطاق ملكه الواسع. ومنذ ذلك الوقت أصبحت تونس حاضرة القطر. وفي سنة ٦٠٣هـ. تولى عبد الواحد أبوحفص أمر تونس نيابة عن الموحدين، فكان هذا بدء العهد الجديد.

ــ الدولة الحفصية ٦٢٦ ــ ٩٨١هـ.

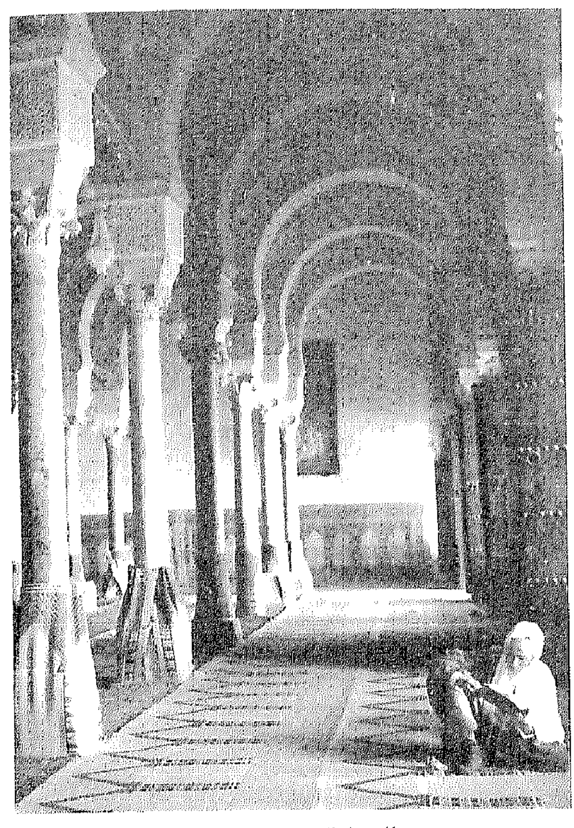
(١٢٢٨ ـ ١٥٧٤م). في تلك السنة قطع أبوزكريا الخطبة للموحدين وأعلنها لنفسه. وظلت تونس على ذلك الى أن دخلها الأتراك العثمانيون. وعصر بني حفص هو العصر الذهبي لتونس في الاقتصاد والأدب والعلم والبناء.

ـ العصر التركي المباشر ٩٨١ ـ ١١١٧هـ. (١٥٧٤ ـ ١٧٠٥م). والفترة الأولى منه تعرف بعصر الدايات ثم، اعتباراً من سنة ١٠٤١هـ. (١٦٣٢م.) عرف العصر بزمن البايات. وهذا استمر الى سنة ١١١٧هـ. (١٧٠٥م). لما قامت الأسرة الحسينية التي استمرت الى سنة ١٩٥٧م.

ولننتقل الآن الى زيارة للمدينة التونسية، ولندخل من باب البحر، الواقع في شرق المدينة. وحرى بالذكر أن أسوار تونس قد هدمت بعد الاستقلال، ولم يبق قائماً منها سوى الأبواب. وباب البحر هذا يعود في أصله الى أيام الأغالبة في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)،وقد أدخلت عليه تحسينات كثيرة واصلاحات متعددة جعلته على شكله الحالي. وبعد الباب هذا نجوز ساحة صغيرة ثم ندخل نهج (شارع) جامع الزيتونة. وبهذه المناسبة فشوارع المدينة جمعاء ضيقة، ولا تدخل فيها السيارات قط. وهذا شارع يكتظ بالحوانيت التي تعرض فيها منتوجات الصناعة اليدوية التونسية، شأن جميع شوارع تونس القديمة. وهذه الأسواق أكثرها تتوسط المدينة وتدور بجامع الزيتونة أو تكون قريبة منه. وينتهي بنا السير الى شارع جامع الزيتونة الذي يوازي الجدار الشرقي للجامع الزيتوني الكبير، ثم الى سوق العطارين الواقع شمال الجامع، وهو «حفصي» الانشاء ويعود تاريخه الى القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي).

ويكون دخولنا الى جامع الزيتونة من الباب الشرقي، متسلقين لذلك بضع درجات، فاذا اجتزنا الباب والرواق الذي يليه اتجهنا نحو الصحن.

وقفنا في الصحن مواجهين بيت الصلاة أو المسجد، والجدار القبلي يقع في اتجاه جنوبي شرقي. وهذا القسم يتكون من خمسة عشر



بيت الصلاة في جامع الزيتونة

رواقاً بينها أربعة عشر عقداً. وطول بيت الصلاة أربعة وخمسون متراً وعرضه ستة وعشرون متراً. والعقود فيه متعامدة على جدار القبلة، الّا أنها لاتتصل به، اذ تظل فسحة عرضها أربعة أمتار قائمة بينها وبين الجدار.

واذا توسطت الصحن، وكان موقفك مقابلاً للمحراب والرواق الأوسط في بيت الصلاة، لاحظت ثلاثة أشياء: أولاً أن هذا الرواق أعلى وأوسع من الأروقة الباقية عن يمينه وعن شماله. وثانياً ان المحراب تقوم قبله قبة لطيفة. وثالثاً ان قبة أخرى تكون مقابلة لك، وهي قبة البهو.

والعقود القائم عليها المسجد ترتكز على أعمدة، وهي في غالبيتها أعمدة من رخام أبيض. أما صفا الأعمدة الموجودان في الرواق الأوسط فهما من الرخام الأحمر. وثمة مجموعتان من الأعمدة ترتكز على أحداهما القبة القائمة أمام المحراب، وترتكز العقود الأمامية من الرواق الأوسط على الأخرى، وهذه الأعمدة رخامية لكنها مختلفة الألوان.



الرواق الغربي في جامع الزيتونة وقد ازدانت واجهته بالعقود القنطرية ذات الأعمدة الرخامية

ولعله من الخير أن ننقل هنا بعض ما قاله «أحمد فكري» عن هذه الأعمدة وزخارفها: «لقد أتيحت لي أخيراً فرصة دراسة تيجان السواري وتطورها، اذ ان جميع السواري التي تعلو قبتي مسجد الزيتونة اسلامية نحتاً وشكلاً، ويظهر فيها مدى الابتكار الذي تولدت عنه جميع هذه التيجان المعبرة عن زهرة «الاكانتا». ولكن النحات التونسي وضع وريقات هذه الزهرة على تيجانه بحيث يقف عند النقط الأساسية من جسد التاج في وسطه وأطرافه، ومع هذا فقد تنوعت أشكال هذه الزهرة الواحدة، فتارة يكون التاج من صف واحد من الورقات وتارة من صفين. وبالرغم من تقارب أشكال الورقات واقتصارها على ثلاث، فان التنوع ظاهر في امتدادها أو التفافها وفي انتعاشها وشموخها.. هذا الشكل من التيجان الذي نشأ في القيروان ونما في الزيتونة تطور تطوراً شمل بلاد المغرب والأندلس.»

والقبتان فيهما من الزخرف الكثير. والمحراب قوسه على شكل حذاء الفرس، وهو شكل الأقواس جمعاء في جامع الزيتونة. والزخرف الجبسي ظاهر في كل من القبتين، كما أن الكتابة الكوفية واضحة. والمنبر خشبي يحتفظ به في غرفة خاصة، وينقل على عجلات للاستعمال. والمنبر «أغلبي» الصنع كما يتضح من النظر الى نقش أخشابه بدقة.

وللجامع ثلاثة عشر باباً، اثنان منها في الجدار القبلي، فالواقع منهما الى يمين المحراب يقود الى غرفة المنبر، والآخر هو باب الخطيب. وبقية الأبواب موزعة على الجدران كما يلي: ثلاثة في الغرب، وثلاثة في الشمال، وخمسة في الشرق، أحدها مسدود. وهذه الأبواب تؤدي الى الأسواق المختلفة.

وفي الزاوية الجنوبية من جامع الزيتونة ترتفع مئذنته (صومعته) المربعة الجميلة. وحريّ بالذكر أن هذه المئذنة لم تضف الاّ في سنة ١٣١٢هـ. (١٨٩٤م) على طراز مئذنة القصبة. ولتتذكر أن الجوامع الأولى التي بنيت في المغرب كانت دون مآذن ــ باستثناء جامع القيروان ــ وذلك اتباعاً للسنة النبوية، اذ أن المسجد النبوي في المدينة لم يكن له مئذنة.

و «جامع الزيتونة» بصحنه ومصلاه وأروقته وعقوده وأقواسه ومحرابه ومنبره وقبته وأبوابه وأعمدته، يمثل عمل ستة قرون على الأقل. فقد بناه أول من بناه، حسان بن النعمان اثر فتحه تونس سنة ٨٠هـ. (٦٩٩م) وكان البناء بسيطاً، القصد منه أن ييسر للناس اقامة الصلاة فيه. ولكن عبد الله بن الحبحاب، القائد الأموي، أعاد بناءه سنة ١١٦هـ. (٧٣٤م) ولما جاء الأغالبة الى الحكم في ولاية افريقية (تونس) وانصرفوا الى البناء والعمران والفن، كان للزيتونة من جهدهم نصيب. وقد بدىء بهذا البناء زمن أبي ابراهيم أحمد، وتم العمل في عهد أخيه زيادة الله، وكان ذلك سنة ٢٥٠هـ. (٨٦٤م) والخليفة العباسي المستعين. والنقش الكوفي الذي يشير الى ذلك، هذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم مما أمر بعمله الامام المستعين بالله أمير المؤمنين العباسي طلب ثواب الله ومرضاته على يدي نصير مولاه سنة خمسين ومئتين ﴿أيها الذين آمنواكونوا قوامين بالقسط شهداء لله﴾صنعه فتح البنا».

وكان ان عُمّر الجامع وزخرف على يد أبي زكريا الحفصي. وقد انتهى العمل من ذلك في شعبان سنة ٦٧٦هـ. (يناير ١٢٧٨م).

ولعل من أحسن ما في جامع الزيتونة بالنسبة الى دارسي تاريخه هو كثرة النقوش على الحجارة التي تشير الى بناء أو تجديد أو توسيع أو زخرفة. وقد ذكر منها أحمد فكري خمسة عشر نقشاً كان آخرها ذلك الذي أشرنا اليه بالنسبة الى بناء المئذنة.

وثمة أمر آخر حريّ بالتذكر وهو أن جامع الزيتونة يعاصر القيروان ــ في القرون الأولى ــ خطوة خطوة، وخاصة في العهد الأغلبي، الّا أن جامع القيروان أوسع.

وثالث ما يستحق الذكر هو أن جامع الزيتونة بني أصلاً بيت صلاة وصحناً دون أروقة جانبية (أو مجنبات كما تسمى في تونس). والواقع أن الجوامع الثلاثة الكبيرة الأولى في المغرب الاسلامي بنيت على هذا النحو: جامع قرطبة ١٧٠هـ. (٧٨٦ ــ ٧٨٧م). والقيروان ٢٢١هـ. (٨٣٦م) والزيتونة ٢٥٠هـ. (٨٦٤م).

مدينة تونس غنية بالآثار الاسلامية على ما ذكرنا. ولسنا نطمع في هذه المقالة، ان نتناول جميع هذه الآثار. لذلك فاننا سنكتفي بالاشارة الى بعض منها. وفي مقدمتها جامع «القصبة». القصبة هي القلعة الرئيسية، ودار الحكم، ومسكن الأمير. وجامعها كان موضع عناية الذين بنوه. والقصبة التونسية «حفصية» المنشأ بشكل خاص. وجامعها بناه أبوزكريا سنة ٦٣٣هـ (١٢٣٦م) وكان من قبل يسمى جامع «الموحدين». والأعمدة التي استعملت حملت اليه من أبنية قديمة. ومئذنة جامع القصبة هي أول المآذن ذات الهندسة الموحدية في تونس، وقد أصبحت فيما بعد مثالاً يتّبع. ومئذنة جامع الزيتونة القائمة الآن بنيت على نمط مئذنة جامع القصبة.

والأعمدة التي ترتكز عليها عقود المسجد هي الأعمدة الرخامية الجميلة التي جيء بها من الأبنية القديمة.

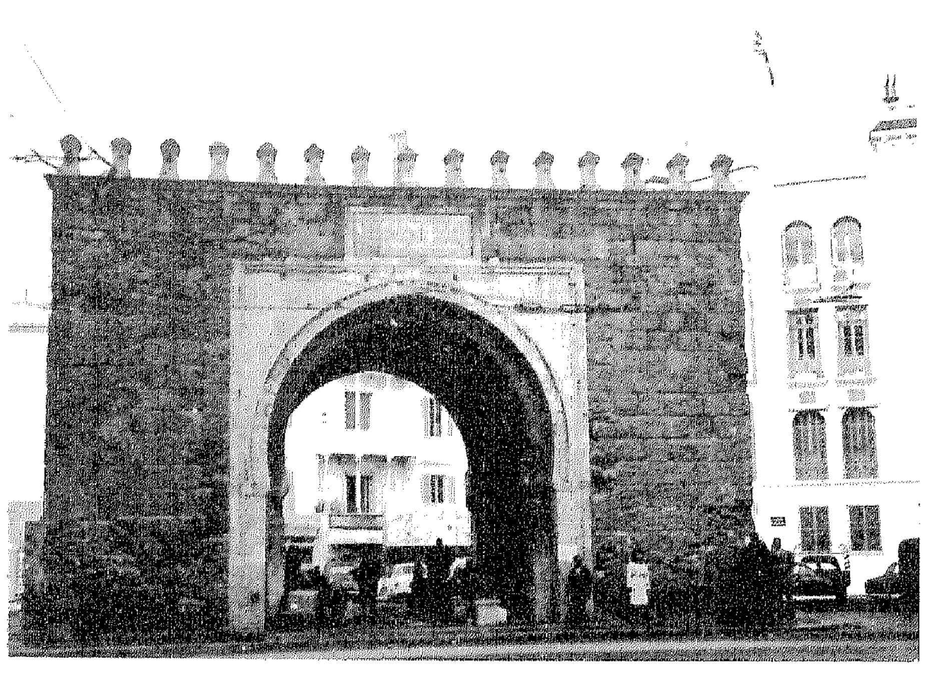
ومن المساجد الجميلة جامع «يوسف داي» الذي بني في مطلع القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) ومن أجمل ما فيه مئذنته المزركشة.

ومنها جامع «حموده باشا المرادي» من القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) أيضاً. ومحرابه والأعمدة المحيطة به والزخرف القائم فوق المحراب من أجمل ما يمكن أن يرى.

وفي المدينة عدد من الدور الكبيرة الأنيقة، وفي مقدمتها دار «الباي» وهي من بناء المراديين في الربع الأول من القرن الحادي عشر

قبة جامع الزيتونة





باب البحر شرقي مدينة تونس وهو يؤدي الى الشارع المفضي الى جامع الزيتونة

الهجري (السابع عشر الميلادي) وقد بنيت على غرار القصور الأندلسية، وهي الآن قصر الحكومة.

لئن كان جامع الزيتونة يضم بين جدرانه تاريخ ستة قرون من فن المعمار والزخرف، فان هذا الصرح يمثل تاريخاً أطول من ذلك بكثير للحياة العلمية في مدينة تونس. فقد أخرج حسن حسني عبد الوهاب أن تداول التعليم بالزيتونة يرجع الى أوائل القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، وان أول من سمع منه هناك كان زيد بن بشر الأزري. على أننا لا نستطيع أن نتصور تونس، وجامع الزيتونة فيها، دون قراء ومحدثين وعلماء حتى قبل ذلك. صحيح أن القيروان نالها من شرف خدمة العلم الشيء الكثير في القرون الاسلامية الأربعة الأولى، لكن لابد أنه كان في الزيتونة من يقرىء الناس ويفسر لهم ويحدثهم ويروي لهم الأدب والتاريخ ويشرح لهم شؤون اللغة وأساليب البلاغة.

ويجب أن نذكر أن الأغالبة أنشأوا معهداً للترجمة والبحث سموه «بيت الحكمة» على نحو ما كان للعباسيين في بغداد. ولعل معنى هذا أن الجوامع كانت تقتصر على العلوم الدينية، بينما كانت الحكمة، الطب، والفلك، والجغرافية والرياضيات، من الأمور التي يعنى بها «بيت الحكمة» وما اليه. الّا أن الأمر اختلف مع توالي الزمن، وخاصة في عهد الحفصيين، أي بدءاً من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، ففي هذا الوقت رحل عدد كبير من أهل العلم في الأندلس الى تونس، واستقر التعليم العالي في جامع الزيتونة بتونس. ولعل أهم من ذلك كله أن مواد التعليم ضمت الى بعضها البعض، وأصبح جامع الزيتونة مقرها ومستقرها. فكان يدرس فيه الدين، والطب، والهندسة، والحساب، وما الى ذلك. ولعله ليس من قبيل المصادفة أن ينتج العصر الحفصي عدداً كبيراً من الموسوعات، فالى هذه الفترة يعود تاريخ ابن خلدون ومقدمته، ولسان العرب لابن منظور، وسرور النفس للتيفاشي، وهو موسوعة كاملة في ممالك الطبيعة الثلاث: الجماد، والنبات، والحيوان، ولم يكن حظ الأدب بأقل من ذلك فقد ألف حازم القرطاجني كتاباً سماه المناهج الأدبية يمكن اعتباره جماع ما يمكن أن يتحدث عنه في أساليب الأدب ونقده. يضاف الى ذلك كله نشوء المدرسة الطبية التونسية باشراف أطباء من «آل الصقلي».

وحري بالذكر أن الاهتمام بالموسوعات في هذه الفترة لم يقتصر على تونس، فقد عرف المشرق، أيضاً موسوعات كبيرة مثل: صبح الأعشى للقلقشندي، ونهاية الأرب للنويري، ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري، فضلاً

عن كتب التاريخ الكبرى: كالنجوم الزاهرة، والسلوك، ومؤلفات السيوطي الكثيرة. ونحن لو اتجهنا الى ايران واواسط آسية لوجدنا أيضاً موسوعات كثيرة.. ومثل ذلك يقال عن المغرب. ذلك بأن الفترة الممتدة من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) الى القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) تمثل، بالنسبة الى الحضارة العربية الاسلامية، زمن الجمع والتصنيف والتدوين والتحليل لنتاج الفكر العربي الاسلامي.

وفي أواخر العهد الحفصي كان القطر التونسي يعاني مشاكل سياسية واقتصادية كثيرة ويتعرض لهجمات أوروبية. وقد جاء احتلال الأتراك لتونس سنة ٩٨١هـ. (١٥٧٤م). فوضع حداً للمطامع الأوروبية. وفي سنة ١١١٧هـ. (١٧٠٥م) قامت الأسرة الحسينية في تونس ونحن اذا أخذنا زمن الولاة العثمانيين والحكام المراديين وجدنا أن ثلاثة أمور هامة أثرت في الحياة العلمية في تونس بشكل خاص، ولعل جامع الزيتونة كان له في ذلك نصيب كبير. وأول هذه الأمور هو ازدياد الهجرة الأندلسية الى تونس، والثاني رحلة عدد كبير من الطلاب التونسيين الى المشرق، والأمر الثالث انتاج طبي وفقهي كثير. ولعله من المناسب أن نذكر هنا أنه على أثر الاحتلال التركي حاول الأتراك ادخال التركية كلغة تعليم بالزيتونة، وترجيح كفة المذهب الحنفي على المذهب المالكي، ولكن المحاولة لم تنجح وانتهى الأمر بجامع الزيتونة أن يعود سيرته الأولى فيظل المركز الأول للتعليم. ويلفت نظرنا «عثمان الكعاك» الى الفروق في الدور العلمي الذي قام به جامع الزيتونة بين أيام الحفصيين وبين العصر الحسيني الأول الذي يمتد من سنة ١١١٧ ــ ١٢٣٠هـ. (١٧٠٥ ــ ١٨١٥م). ويجمل هذه الفروق فيما يلي:

أولاً ــ كان التعليم الزيتوني الحفصي يشمل التعليم الاسلامي الأدبي والديني والفلسفة والعلوم العقلية عامة، والطب والفلك والحساب خصوصاً أما في العصر الحسيني فقد نقصت هذه العلوم العقلية، ولم يبق منها الاّ الميقات وشيء من الطب.

ثانياً ــ يبدو أن التعليم الحفصي كان يقوم على الكتب التونسية أصلاً. فكما كان الفقه في عهد الاغالبة يعتمد على مدونة «سحنون»، وفي عهد الفاطميين كان يرتكز على كتاب دعائم الاسلام، فقد اعتمد العهد الحفصي على الرسالة لابن ابي زيد والشروح التي وضعها لها علماء من تونس. أما في العصر الحسيني فقد كان الكثيرون من الأساتذة بالزيتونة قد درسوا في مصر، فكان من الطبيعي أن يزودوا أنفسهم بكتب الفقه المصرية. ومثل هذا يقال في المواد الأدبية.

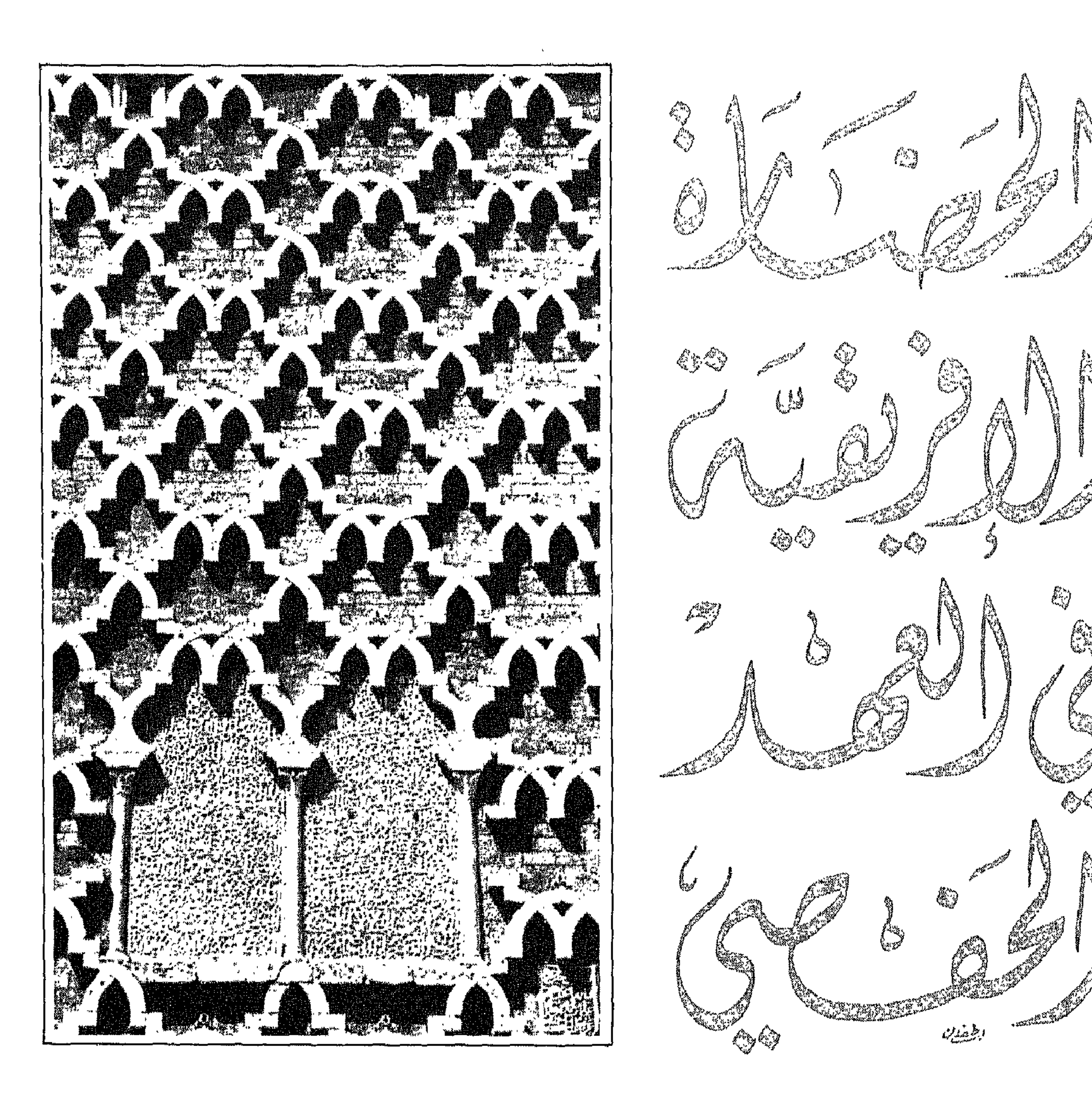
ثالثاً ــ ان التعليم الزيتوني على العهد الحسيني الذي أنقص منه التعليم الرياضي قويت فيه النواحي الأخرى من دينية وأدبية وفرضية وميقاتية وزاد التعمق فيها.

اذا كان جامع الزيتونة هو الذي أخرج للقطر التونسي عدداً من المتعلمين فلا شك أن دور الزيتوني في المجتمع التونسي كان كبيراً. وقد حدد عثمان الكعاك هذا الدور بقوله:

«الزيتوني هو قبل كل شيء «عدل» القرية، والعدل هو مبرم العقود أي العارف بأنواع الالتزامات من بيع وكراء، وقروض وانكحة. فهو أعرف الناس بالمجتمع وألصق الناس به. واطلاعه على الأسرار واضطلاعه بحل المشاكل يجعلان له مقاماً مرموقاً فيه هيبة ورغبة ورهبة.

ثم هو أمام القرية والمدرس بالجامع وكاتب الرسائل الخاصة والمرشد والواعظ والمفتي في القضايا، ثم هو أديب القرية وشاعرها وعالمها. فالطبقة المثقفة السميكة التي تغمر البلاد هي طبقة العدول والحضارة حضارة عدول. وهذه الطبقة السميكة وسط بين طبقة علماء الزيتونة من أعلى، وطبقة الطلبة من أسفل. هذا هو جهاز البلاد الثقافي المتولد من الكتاب والزاوية والمدرسة والجامع، قاعدة هرمه الكتاب وقمة الهرم هي جامع الزيتونة المعمور».

وأخيراً، لنذكر أن جامع الزيتونة نقلت اليه مكتبة «ابن زكريا الحفصي»، وكان بها أربعون ألف مخطوط، ثم زيد في ذلك من مكتبات أخرى خاصة، وعامة في أيام بني حفص، ثم في القرن الماضي على أيدي أحمد باي، والصادق باي، والوزير المصلح خير الدين. ●



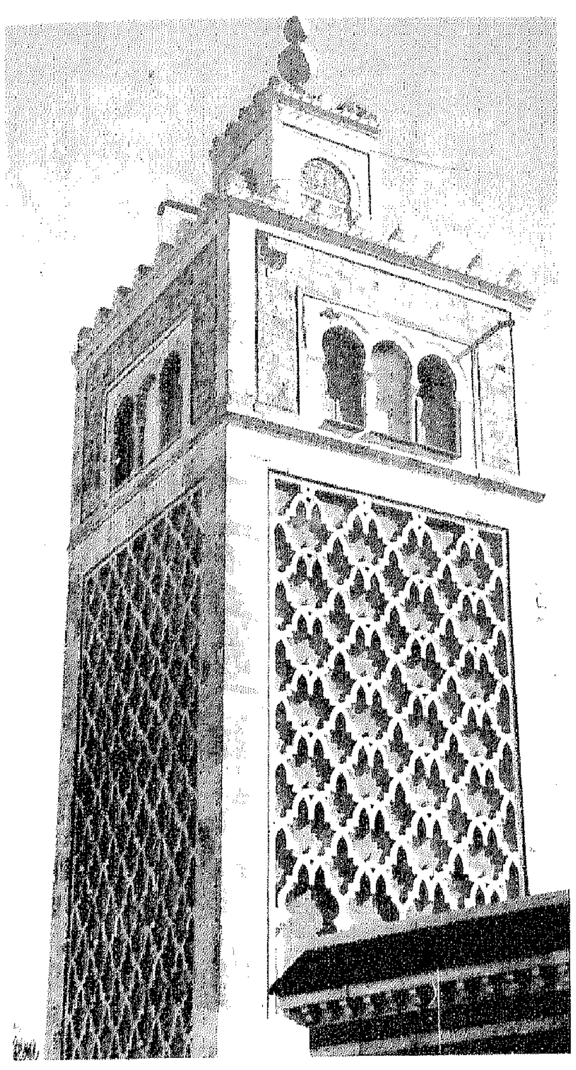
د. عبد العزيز الدّولاتلي
باحث في المعهد القومي للآثار والفنون

كانت أفريقيـة تعاني في أواسـط القرن السـادس الهجري من التشتت السياسي والنزاعات القبلية التي كان السبب الرئيسي فيها ضعف الدولة وانتقال مركز السلطة من المهدية العاصمة الفاطمية إلى مراكز دويلات ملوك الطوائف المستقرة في كبار المدن الأفريقية كتونس وصفاقس وقابس وبنزرت وتوزر وغيرها. مما أدى بالطبع إلى تدهور كبير في الأوضاع الاقتصادية وتراجع خطير في الأحوال العمرانية وبالتالي في انخفاض فاحش في مستوى عيش السكان. كما أن الحضارة الأفريقية نزلت إلى الحضيض فتقلص النشاط الفكري وضعف الانتاج الفني وطغت أو كادت التقاليد الريفية والعادات القبلية البدائية بطغيان البدو على الحضر وتقلص المدن لفائدة الأرياف.

وعلاوة عن الفتنة الداخلية التي هزت البلاد منذ قدوم قبائل بني رياح من الصعيد المصري (أواسط القرن الخامس) التي تلتها قبائل بني سليم، كانت البلاد مهددة بأخطار جسيمة تتمثل خاصة في هجومات النرمان المسترسلة الذين استقروا بصقلية معتمدينها كقاعدة لعملياتهم الهجومية على السواحل الأفريقية إلى أن احتلوا المهدية وطردوا منها أميرها الصنهاجي وكذلك جزر قرقنة وجربة...

وفي حين كانت أفريقية على هذه الحال من الانحطاط والتشتت قامت بالمغرب الأقصى دولتان قويتان كان هدفهما توحيد المغرب العربي بما فيه الأندلس ولم شتاته تحت لواء دولة مغربية موحدة. وكانت الدولة المرابطية ثم تلتها دولة الموحدين التي أسسها ابن طمرت ودعم كيانها الخليفة عبدالمؤمن بن علي. فاختار هذا الأخير مدينة تونس كعاصمة أفريقية (سنة ٥٥٤هـ) عوضاً عن المهدية والقيروان، لازدهار اقتصادها النسبي ولموقعها الجغرافي الملائم. ذلك أن مدينة تونس ما فتئت تعزز مكانتها بأفريقية منذ أن اختارها القائد العربي حسان بن النعمان (سنة ٨٤هـ) بديلة عن قرطاج التي تركها للتلاشي والاندثار. وما تفضيل عبدالمؤمن لها إلا تتويج لحدث كان في تهيؤ منذ زمن بعيد فبعد أن وضع بنوخراسان (النصف الثاني من القرن الخامس) الأسس الاقتصادية لنمو المدينة أتى الموحدون ليضيفوا إليها ما تستحقه من التجهيزات السياسية والعسكرية كي تضطلع بدور القيادة والاشراف على شؤون مجموع البلاد. ومن ذلك تأسيس القصبة تلك القلعة المنيعة لتقوم بوظيفة الدفاع عن المدينة العتيقة المحمية بأسوارها والحافلة بأسواقها وجوامعها، لتضطلع أيضاً بدور المركز السياسي للدولة وبجل النشاطات الإدارية.

أسس الموحدون القصبة في الجناح الغربي بعد أن استولى عبدالمؤمن بن علي على مدينة تونس ليدعموا بها سلطتهم ويبسطوا بفضلها تفوقهم على كل أفريقية. إلا أن احتلال الموحدين الذي مهد الطريق لقيام الدولة الحفصية لم يتعد مرحلة الاستيلاء على بعض القواعد الاستراتيجية. وهو نوع من الاحتلال السطحي



نقوش من العهد الحفصي تزين مئذنة جامع القصبة

الشديد التأثر بكل ما عساه أن يطرأ من التغييرات على ميزان القوى بين الغالب والمغلوب والمالك والمملوك. وفعلاً فقد واجه الموحدون معارضة شديدة رغم قبولهم في أول الأمر كمنقذين ومجاهدين، خاصة من قبل سكان المهدية، فمعارضة الأعراب مثلاً كانت على أشدها إذ بعد أن كانوا سادة المدن والبوادي أصبحوا بين ناب الليث وظفره، ولم تكن تلك المعارضة لتنال من كيان الحكم الموحدي لولا الأخطار الخارجية التي نجمت في نفس الوقت إلى جانب الضغوط الداخلية. فقد نزل إلى ميدان السياسة الأفريقية بنو غانية من جهة وقراقوش الغزي من جهة أخرى معززين جانب معارضي الوحدة.

كما أن المسافة الفاصلة بين تونس كرسي أفريقية ومراكش عاصمة الخلافة كانت تحول دوماً دون تدخل الخليفة بنجاعة وفي الابان كلما جدت أحداث تستوجب ذلك. فانحازت أفريقية شيئاً فشيئاً إلى نوع من الحكم الذاتي إلى أن أعلن أبوزكرياء الحفصي عصيانه لخليفة مراكش المتنكر لمذهب ابن طمرت. فتلقّب بالأمير الأجل وضرب الدرهم والدينار وأضاف اسمه في الخطبة (٦٣٤هـ). ثم تلقب ابنه أبوعبدالله المستنصر بالخليفة (٦٤٧هـ ــ ٦٧٥هـ) مستغلاً الظروف السياسية العالمية الملائمة وبوجه خاص تهيؤ المغول للانقضاض على بغداد مهددين الخلافة العباسية ثم تقلص نفوذ الموحدين بالمغرب الأقصى تقلصاً شديداً.

ومنذ ذلك التاريخ رسخت أقدام الحفصيين بأفريقيا رسوخاً عميقاً فأصبحت الدولة الحفصية تتمتع برصيد وافر من الاحترام والهيبة من قبل ملوك الأندلس المواجهين للغزو المسيحي الهائل وكذلك من قبل بلاد المغرب ومصر. بل ان شريف مكة نفسه بادر سنة ٦٥٧هـ بمباركة هذه الخلافة الصاعدة اثر سقوط بغداد في أيدي المغول سنة ٦٥٦هـ. ولا شك أن هذا الحدث يمثل قمة المجد الحفصي حيث أصبحت مدينة تونس على رأس خلافة عظمى معترف بها من قبل أعلى سلطة دينية في الإسلام.

وتمادى ازدهار الدولة الحفصية طيلة العقد الثاني من القرن السابع إلى أن ظهرت بوادر الانحلال السياسي إذ برزت على الساحة الأفريقية عدة خلافات مدعمة من الخارج. فرفعت قبائل الأعراب رأسها من جديد وخرجت عدة مناطق عربية عن طاعة أمير تونس كباجاية وقسنطينة. كما كثرت مطامح الدول المسيحية واشتدت شوكتها ثم سطعت شمس ملوك مصر المماليك الذين أصبحت لهم قوة ضاربة في البحر الأبيض المتوسط تنافس وتهدد قوة الحفصيين. أما في أقصى المغرب فقد طلع نجم دولة بني مرين حتى أن الخليفة المريني احتل تونس مرتين على التوالي في أواسط القرن الثامن.

اشتد اذن الخناق على الحفصيين من كل الجهات. ومما زاد الطين بلة الحوائج والمجاعات والأوبئة التي ازدادت شراسة طيلة القرن الثامن حتى بلغت ذروتها في أواسط ذلك القرن مع ظهور الطاعون الجارف الذي تفشى في البلاد سنة ٧٤٩هـ فاتكاً بالناس فتكاً ذريعاً. «فانتقص عمران الأرض بانتقاض البشر» حسب قول ابن خلدون الذي فقد في تلك الظروف القاسية الكثير من ذويه وأقاربه إذ شاهد هلاك أبيه وأمه وجل أصدقائه وشيوخه. مما حمله على هجر أفريقية والاستقرار بالبلاط المريني بفاس. وكان المصاب جليلاً خاصة وأنه صادف احتلال العاصمة من طرف أبي الحسن المريني.

وقد شبه ابن خلدون أعمار الدول بأعمار الكائنات الحية مصيرها المحتوم الضعف والفناء إذ يبلغ بها التقهقر حداً لا تستطيع معه مقاومة ما يحف بها من الأخطار. لكن أفريقية خلال القرن الثامن صمدت أمام الغزوات الأجنبية والفتن الداخلية والتوترات الاقتصادية والانحلال الثقافي. بل شهدت خلال القرن الموالي (التاسع الهجري) انتعاشة نسبية أحيت بها تراثها وجددت ثروتها وطورت عمرانها فسجلت نهضة ثانية بعد تلك الاستفاقة الرائعة التي عرفتها خلال القرن السابع على أيام أبي زكرياء الحفصي وابنه الخليفة المستنصر بالله. فقد حكمها سلاطين صالحون مثل أبي فارس عبدالعزيز وأبي عمر وعثمان ذوو عزم وصدق أعادوا استتباب النظام في الداخل وفرض الاحترام في الخارج وشيدوا أثناء حكمهم أعمالاً جليلة مراعين مصلحة الرعية ومرضاة الله أكثر من مراعاة راحتهم الشخصية أو متعة حاشيتهم. فمتنوا علاقاتهم مع ملوك مصر والمغرب وشجعوا هجرة الاندلسيين إلى أفريقية مثلما فعل من قبلهم أبوزكرياء والمستنصر خاصة بعد تدهور أوضاع المسلمين في الأندلس تدهوراً لا رجعة فيه وقصور ملوك المغرب والمشرق على مدّ يد المساعدة لأخوانهم الأندلسيين. فساعدت تلك الهجرة على تطعيم الحضارة الأفريقية بأروع وأرفع ما أفرزته الحضارة الأندلسية من المثقفين والعلماء والشيوخ وأصحاب المهن الرفيعة والعاملين في فنون الفلاحة والري.

ومن ألمع ما أفرزت الحضارة الأفريقية في العهد الحفصي ابن خلدون وابن عرفة اللذين كانا كل في ميدانه عنوان مجد لأفريقية والمغرب: الأول في العلوم التاريخية والثاني في العلوم الدينية. وهنا ألا يجدر بنا أن نخفف الحكم القاسي الذي أصدره المؤرخان المعاصران (ر. برانشفيك وشارل أندري جوليان) حيث أنكرا وجود ثقافة أو فن حفصيين معتبران أن الحفصيين ورثوا حضارة لم يطعموها بأي ابتكار مهم.

فالحفصيون أنفسهم كانوا مولعين بالأدب والشعر وأصناف العلوم. وقد كانت لهم بالقصبة قاعة فسيحة خصصت لإيواء المكتبة الملكية تعرف «بالمدرسة» كانت تلقى فيها المحاضرات الأدبية والعلمية ويلتقي فيها الخليفة بالوزراء وقواد الجيش. وقد تهيأ لبعضهم أحياناً نظم بعد القصائد كأبي زكرياء الأول الذي خلف لنا ديواناً يضم قصائده وابنه المستنصر الذي كان بارعاً في اجازة الشعر. وفضلاً عن تعاطيهم الشعر كان الأمراء الحفصيون يشرفون على منابر تلقى فيها دروس علمية تتعلق إما بالمذهب أو بالتاريخ أو العلوم. وقد دفع حبّ المعرفة أبا زكرياء يحيى بن أبي اسحاق الأول إلى إحداث كُوّة في منزله كي يتسنى له بواسطتها الاستماع إلى الدروس التي تلقى في المدرسة التي أسسها بجوار قصره.

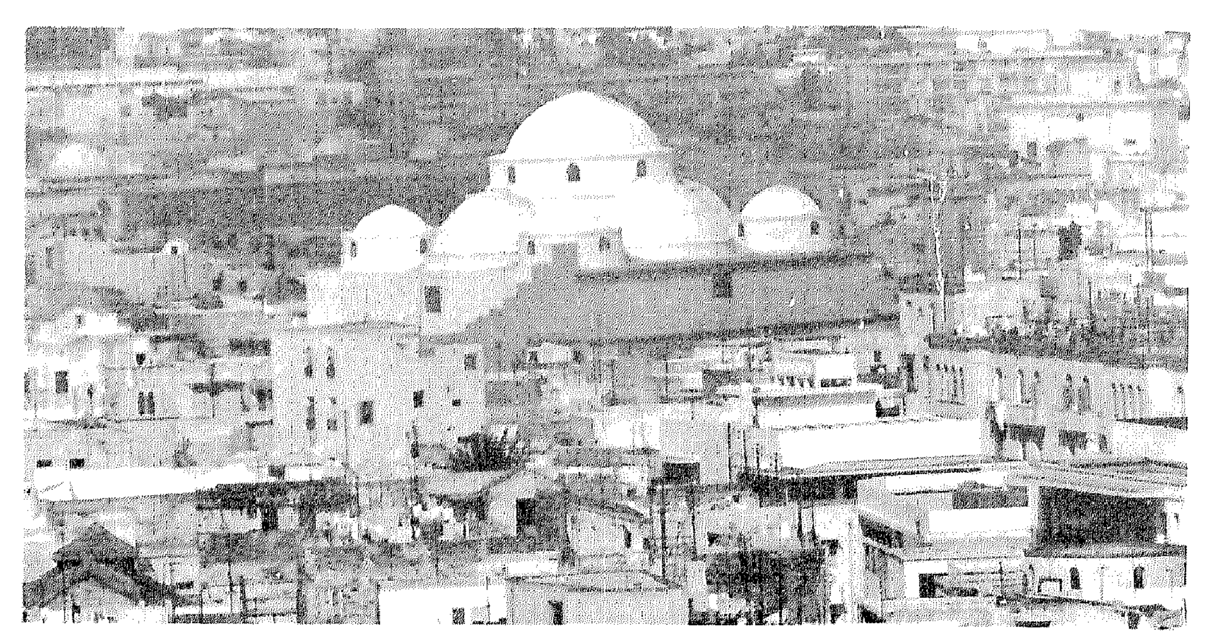
ولم تتخلف المرأة الحفصية عن المساهمة في العمل العلمي والثقافي حيث عمدت بعض الأميرات إلى تأسيس أعمال خيرة كزوجة أبي زكرياء الأول التي أسست مدرسة وجامعاً في حي التوفيق وأخت السلطان أبي يحيى منشئة المدرسة العنقية التي حرصت أن يكون القاضي ابن عبدالسلام أول مدرس فيها.

ووجد أيضاً من بين الأمراء ورجال الحاشية من كان له اهتمام خاص بالأدب والفكر فشجع عليهما مثل الوزير ابن تافراجين المتوفي سنة ٧٦٦ الذي شيد المدرسة المسماة باسمه والتي تضم جثمانه.

كان تشجيع النخبة للمعارف يتم عادة اما بتشييد أماكن الدراسة والطلب أو باسناد المنح والهبات لرجال العلم والفن. ولنا شواهد كثيرة في كتب التاريخ المعاصرة عن الشعراء والمؤرخين والفقهاء وغيرهم ممن كانوا يحظون بقبول السلاطين وبتشريفهم ومكافأتهم على أعمالهم. وكان بلاط أبي زكرياء وابنه المستنصر يعج بجموع المهاجرين من الأندلس كفحُول الشعراء وبلغاء الكتاب ومشاهير الفقهاء لا سيما بعد سقوط أشبيلية في أيدي المسيحيين سنة ٦٤٦. وقد قدم قبل هذا التاريخ الشاعر ابن الأبار من بلنسية. واستقر بالعاصمة الحفصية أيضاً بعده أبو حازم القرطاجني أصيل مدينة قرطاجنة بالأندلس وكتب مقصورته الشهيرة ذات الألف بيت في مدح المستنصر.

ولا ريب أن أعظم رجال الأدب والفكر الذين لم تنجب أفريقية والمغرب مثيلاً له هو ابن خلدون الذي قدمت عائلته من اشبيلية إلى تونس منذ الهجرة الأندلسية الأولى. وقد شغل أفراد عائلته مناصب عالية على غرار جل مواطنيهم في حكومات أبي زكرياء وخلفائه. وفي هذا الوسط الأندلسي الذي تعمقت جذوره في الأرض الأفريقية اكتسب عبد الرحمن بن خلدون علومه العالية ثم ارتحل إلى المغرب الأقصى حيث تمكن من تعميقها والتبحر فيها. ولكن السلطان المريني وجد بتونس سنة ٧٤٦هـ ابان احتلاله لها جمعاً من رجال الأدب والفكر الأفارقة والأندلسيين القادريين على منافسة رجاله الذين اصطحبهم معه من المغرب. وكان شديد الاعجاب بهم، ذلك أنه رغم الاضطرابات السياسية التي سادت القرن الثامن فإن عقولاً نيّرة بزغت في سماء ذلك العهد المظلم من أبرزها المؤرخ ابن خلدون والامام ابن عرفة اللذان يعتبران ثمرة النهضة الحفصية في القرن السابع التي ظهرت بفضل رعاية الحفصيين للعلم والأدب والفن وبالاحتكاك بأفواج الأندلسيين الذين ما انفكوا يفدون عليها. فنبغ الأول في العلوم الفكرية وتبرز الثاني في العلوم الدينية.

وفي منتصف القرن التاسع زار تونس عبدالباسط بن خليل وهو تاجر عالم مصري فتعرف على الكثير من الأندلسيين المستقرين بها فأعجب بحدة ذكائهم وفطنتهم وخاصة منهم



مشهد لمدينة تونس الحديثة

الشاعر عبدالله محمد بن محمد المعروف بابن الرازن الخزرجي الأنصاري الذي تعلق الرحالة به لرقته ولطفه وتقدمه في شعره على الشعراء الثلاثة الأفريقيين الحاضرين وهم: محمد الجديدي وأحمد الودني وشعيب البجائي.

ولا تعود النهضة الأفريقية في العهد الحفصي إلى تمازج الأفكار مع الأندلس فقط بل إلى الاتصالات المستمرة بين أفريقية وأقطار المشرق وخاصة مصر التي تمادت العلاقات معها والاتصالات بها على كل الطرق البرية والبحرية رغم مخاطر الأعراب والقراصنة. وقد ألبست تلك العلاقات عدة مظاهر: اقتصادية باتخاذها شكل المبادلات التجارية وسياسية بفضل تبادل السفارات وأخيراً ثقافية بسبب الاشتراك الحضاري الذي سهل الاتصال البشري وتبادل المعارف.

واستمرت أفريقية في الاستفادة من التجديدات المشرقية الهامة بفضل موقعها الجغرافي كطريق للمرور. وما زال سكانها المتشبعون بالثقافة الأندلسية متعطشين كما في الماضي إلى القيم المشرقية: فقد حافظ المشرق على مكانته المرموقة في نظر المفكرين المغاربة. لذلك نراهم يرغبون في الاقامة الطويلة بربوعه سواء بمناسبة الحج أو بسبب طلب العلم في الجامع الأزهر أو للاتصال بمشاهير علمائه.

إن موقع تونس على طريق الشرق هيأها لأن تكون محطة غالباً ما ينزل فيها المسافرون سواء كانوا قادمين من الأندلس والمغرب أو عائدين من المشرق إلى المغرب. لكن من النادر أن يقوم المشارقة برحلة مضادة أي من المشرق إلى المغرب كما فعل الرحالة المصري الشهير عبدالباسط بن خليل.

وبواسطة هؤلاء الأفارقة والمغاربة العائدين من الشرق انتشرت التأثيرات المصرية الشامية في ربوع أفريقية وظهرت في الفن والثقافة الحفصيين.

وهكذا اجتمع في تونس ممثلو المدارس الثلاث الكبرى، المدرسة الأندلسية ـ المغربية والمدرسة المشرقية والمدرسة الأفريقية المختلطة. ولكن مهما كانت المدرسة التي ينتمي إليها الإنسان فقد بقيت الرحلة إلى المشرق للتبحر في العلوم ضرورة تساوي تقريباً قيمة الحج نفسه. ألم تتغذَّ نهضة المالكية الأفريقية فعلاً باقامة عدد من علمائها في مصر والشام والحجاز؟ فقد أطال الرواد الأوائل كابن البرصاء وابن الخباز المهداوي وابن عرفة نفسه وابن عبدالسلام إقامتهم بالمشرق كما أن الشيخ أبي الحسن الشاذلي ناشر الصوفية في أفريقية رحل إلى الشرق ثم رجع ثم عاد إليه ثانية واستقر به نهائياً إلى أن وافته المنية سنة ٦٥٦هـ.



احد أروقة جامع القصبة الأثري في مدينة تونس، وقد ازدان بالأعمدة الرخامية ذات الطابع الاسلامي الجميل.

وأخيراً ها هو ابن خلدون الذي يجوب أقطار المغرب والأندلس عديد المرات يفضل قضاء بقية حياته في المشرق بعد خصامه مع ابن عرفة ومنافسيه الآخرين في البلاط الحفصي.

والجدير بالذكر في خصوص خصومة ابن خلدون وابن عرفة أنه في حين نجح ابن عرفة في تكوين مدرسة وتلاميذ مقتدرين، بقي مؤلف المقدمة وحيداً بدون اتباع ولم يحرك كتابه العظيم في عصره أي اهتمام أو منافسة. فلماذا إذن كان مصير كل من الممثلين الكبيرين للثقافة الحفصية مخالفاً لمصير الآخر؟ ولماذا انتهت المعركة التي تصادم فيها القطبان بانتصار ذلك الذي يجسد المحافظة الدينية والعلوم التقليدية ولو مؤقتاً؟

يفترض ر. برانفشيك، جواباً على ذلك «أن السبل لم تمهد بعد في الإسلام لتقبل مناهج الفكر الحر ولتطبيق البحث العلمي في دراسة تطور المجتمع الإنساني» ويضيف: «فبإنتصار ابن عرفة (الذي اضطر ابن خلدون إلى الالتجاء إلى المشرق) يتأكد رفض نهضة فكرية حقيقية وفرض عقلية محافظة صارمة آلت بسرعة إلى الجمود».

ويستمر برانشفيك في تحليله للأعمال الفكرية، ولا ريب أن في كلامه بعض المبالغة إذ يقول أنه حتى الشعر الممثل بكثير من الرجال «لم يستطع أن يمهد لنفسه سبلاً مبتكرة» كما «لم ينجح النثر في التجدد بطريقة فاضلة ودائمة». فالأدب لم تَسِرْ في أوصاله دماء حية بل غاص في طريق الابتذال «لعدم اكتراث البعض» و «الاحترام الذليل لأشكال الماضي الجامدة من طرف البعض الآخر». هذا وأن تدهور العلوم الصحيحة يعتبره نفس المؤلف «حدثا مؤكداً لا في أفريقية فحسب بل ومنذ القرن السابع في عموم العالم الاسلامي»، باستثناء الطب الذي «استمرت عقول نيّرة في الاعتناء به وتغذيته» لصلاحيته الاجتماعية وطبيعته التطبيقية.

وتجاه هذا الموقف المتصلب يؤكد عالمان تونسيان حديثان هما حسن حسني عبدالوهاب والفاضل بن عاشور أهمية النهضة الثقافية والحضرية الحفصية مبرزان أننا «ما زلنا نعيش إلى اليوم على مؤسسات وجذور تقليدية موحدية ــ حفصية»، فصدور هذا الحكم من طرف رجلين معروفين بالحذر والحنكة يدعونا إلى التبصر والاعتدال لا سيما إذا اعتبرنا النهضة العمرانية والمعمارية الهائلة التي شهدتها أفريقية تحت لواء الحفصيين فجددت مدنها وطورت فنونها المعمارية والزخرفية. ولا نستطيع أن ننكر مثلاً عظمة المجهود الذي بذله الحفصيون لتطوير عمران مدينة تونس حتى أصبحت من أعظم مدن العالم الإسلامي فامتدت حولها الأرباض الشاسعة المحمية بالأسوار ومن ورائها انتشرت الأجنة والقصور والمنتزهات كجنان أبي فهر قرب ضاحية المنزه وقصور رأس الطابية خارج باب سعدون وقصر بارد. وفي الضاحية الغربية وقصر العبدلية في الضاحية الشمالية. كما تعددت جوامع الخطبة استجابة لحاجة السكان وانتشرت المدارس حول جامع الزيتونة حيث نظم الحفصيون التدريس وأجروا الجرايات على الطلبة والأساتذة فبلغ عدد المدارس في أعقاب الدولة الحفصية سبعة مدارس أقدمها في شمال أفريقية المدرسة الشماعية التي أسسها الأمير أبوزكرياء الأول. أن هذا النمو الهام الذي سجلته المدارس ليعبر عن مدى التقدم الحاصل في ميدان نشر العلم والمعرفة وذلك بتوفير العدد اللازم من المؤسسات التعليمية المستجيبة لعدد الطلاب المتزايد. وهو يعكس أيضاً أهمية مدينة تونس كعاصمة جامعية وكمركز ثقافي. كما كانت رباطاً نيّراً لطبقة الصوفيين الذين كثر عددهم فعجت المدينة بزواياهم وخلواتهم وأشهرهم في ذلك العهد أبوالحسن الشاذلي مؤسس الشاذلية الذي لا تزال زاويته المشرفة على مقبرة الزلاج محل زيارة وتبرك.

وقد واكب هذه النهضة العمرانية تجديد عميق في أساليب البناء والتنميق فتأثر الفن المعماري بالابداعات الفنية الأندلسية وبالفن المملوكي المصري أيضاً. فالتيار المغربي كان بدون شك شديداً في القرن السابع أي في عصر الازدهار الأول حيث اتحد عملياً مع الفن الرسمي كما تشهد بذلك المعالم الموحدية الخالصة كالقصبة وجامعها الكبير وباب الجديد، وكذلك رأس الطابية وأبي فهر. أما بالنسبة للتيار المملوكي المشرقي فتبدو أهميته من خلال آثار القرنين التاسع والعاشر كميضاة السلطان. ولكن العنصر الفني الأفريقي لم يفقد مكانته وسط هذا المزيج مما يمنح الكثير من المعالم الحفصية خاصة جامع الهواء ومدرستي الشماعية والمنتصرية مظهراً مميّزاً ومبتكراً بالنسبة إلى كل ما عمل في المشرق أو المغرب.

إذن يحتل العنصر الحفصي منعطفاً في التطور العام للفن الأفريقي إذ له الفضل الذي لا ينسى حيث أعطى إلى العمارة الأفريقية المظهر الذي حافظت عليه طويلاً بعد سقوط الأسرة.

انتهت الدولة الحفصية أثناء الحروب الاسبانية العثمانية التي بلغ عدد ضحاياها أرقاماً خيالية فمن بين سكان مدينة تونس الذين قدر عددهم بحوالي مائة ألف ساكن، لم يبق قيد الحياة إلا الربع أو أقل ــ فقد أبيحت المدينة مرات منذ سقوطها في أيدي الامبراطور شارل الخامس سنة ٩٤٢ (١٥٣٥م) إلى أن احتلها العثمانيون سنة ٩٨٢ (١٥٧٤م). فنسفت أعمال التخريب والاحتلال جل الأعمال العمرانية والمعمارية التي قام بها الحفصيون. ولا شك أن المدن الأفريقية الأخرى عرفت نفس المصير الذي عرفته العاصمة. وبخراب المدن والأمصار تقهقر العمران وتردت الحضارة وانتهت الدولة الحفصية، بعد أن مرّ على تأسيسها أكثر من ثلاثة قرون ونصف القرن. وتلك سنة الله في خلقه.

●

أهم المراجع المعتمدة:

(١) عبدالعزيز الدولاتي، **مدينة تونس في العهد الحفصي**، دار سراس للنشر، تونس، ١٩٨١.

(٢) R. Bruschvig *L'Ifriquiya sous la* dynastie *des Hafsides*.

خير الدين التونسي

أبو النهضة التونسية في القرن التاسع عشر

د. معن زيادة

مجدد مبكر[1]:

لعل أول خطوة جدية لتحديث تونس كانت تلك التي خطاها خير الدين باشا الذي عرف فيما بعد باسم «أبو النهضة». كان خير الدين مملوكا شركسيا وأحد افراد الطبقة الحاكمة العثمانية في تونس، وقد استطاع ان يصبح رئيسا لوزراء تونس في الفترة الممتدة من سنة ١٨٧٣ حتى سنة ١٨٧٧ وذلك بفضل وعيه وحكمته وتجاربه. ويشترك خير الدين في اصلاحاته العملية التي ضمنها كتابه — او بتعبير ادق مقدمة كتابه «**اقوم المسالك**» — مع رواد التحديث في المرحلة السابقة على دخول الاستعمار الى البلاد العربية والاسلامية، من امثال محمد علي باشا في مصر، والسلطان محمود ومدحت باشا في تركيا العثمانية. فلقد كان يجمع هؤلاء جميعا موقف موحد، قوامه ان المسلمين ضعفاء، وان الطريق الى عودة القوة اليهم انما تكمن في اخذهم بالتكنيك والعلم، اللذين اعطيا الغرب قوته وتفوقه. وكان رواد الاصلاح هؤلاء، يشتركون في قناعة واحدة، وهي القائلة بأن الأخذ بمعالم الحياة الاوروبية لا يتعارض مع دعائم الدين الاسلامي ولا يبتعد بالمسلمين عن تعاليم دينهم. كان يسود موقفهم وقناعتهم طابع التبسيط الذي اراد ان يسد الهوة بين الثقافتين الاسلامية والاوروبية عن طريق القفز فوق المشكلات الاساسية والاكتفاء بموقف تبريري دفاعي.

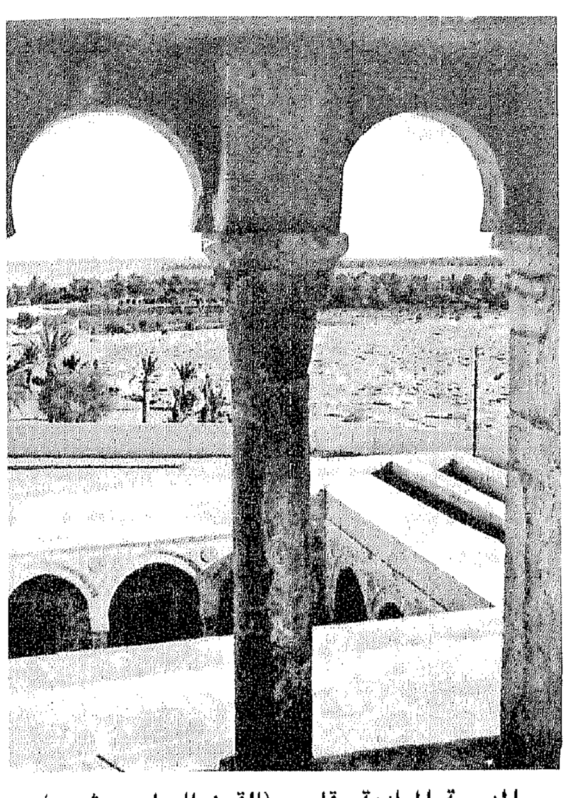
كان خير الدين الحاكم التونسي مثل نظيره الحاكم المصري محمد علي، وكان خير الدين المفكر التونسي مثل نظيره المفكر المصري رفاعة الطهطاوي، مبهورين بانجازات الغرب وقوته، وكانوا يسعون الى ضم تكنيك الغرب الى الثقافة الاسلامية التقليدية دون ان يتعمقوا في دراسة الفرضيات الاساسية في الثقافة الاسلامية وما اذا كانت تصلح لمهمة من هذا النوع. وكان سبيلهم الاول الى ما كانوا يسعون اليه هو التعليم. ولعله مما تجدر الاشارة اليه ان اكثر جهود خير الدين فعالية وبقاء بالاضافة لكتابه، كان المدرسة الصادقية (نسبة الى باي تونس في ذلك الحين محمد الصادق) التي اسسها سنة ١٨٧٥، والتي كانت هيئة التعليم فيها مؤلفة من نخبة من الاساتذة الاوروبيين، تماما كما ان اكثر جهود الطهطاوي وعلي مبارك فعالية وبقاء بالاضافة الى كتبهما كان تلك المدارس التي انشآها وأشرفا عليها. ففي سنة ١٨٧٨ اي بعد ثلاث سنوات على تأسيس المدرسة، كانت الصادقية تضم مايقرب من المئتي تلميذ، شكلوا فيما بعد الجيل الاول من القادة والرواد الوطنيين الذين ساروا على خطى خير الدين في تحديث البلاد[3].

واذا كان خير الدين هو باعث النهضة في تونس، فانه ماكان ليستطيع ان يلعب اي دور في تحديث البلاد لولا وجود الاستعداد اللازم في المجتمع التونسي نفسه. ان نجاح المدرسة الصادقية، والقبول الواسع الذي لقيته، والدور الذي لعبته، وانتشار كتاب خير الدين اقوم المسالك، وتلقي آرائه الاصلاحية الواردة في المقدمة خاصة بالترحاب، وعدم معارضة خطواته التحديثية المختلفة على صعيد الجيش والادارة والمشاريع العمرانية، كل ذلك يؤكد وجود الاستعداد اللازم للتحديث في تونس في المرحلة السابقة على دخول القوات الاستعمارية الى البلاد سنة ١٨٨١. فعندما دخلت الجيوش الفرنسية الى تونس، لم يكن المجتمع التونسي مجرد مادة خام قابلة للتشكل وفق ارادة المستعمر بل كانت تونس قد سارت خطوات هامة وقطعت شوطا بعيدا على طريق التطور، ذلك ان خميرة التجديد كانت قد انتشرت بين طلائع المجتمع التونسي. فلم يكن دخول الفرنسيين هو بداية وضع البلاد على عتبة التغيير، بل يمكن الزعم ان تونس كانت على عتبة ذاك التغيير، وان اوروبا الاستعمارية لعبت دورا سلبيا آخر عملية التطور والتجديد في تونس. ويكفي ان نذكر هنا ان العامل الاول في عرقلة مشاريع خير الدين التحديثية ثم تجميدها كان استيلاء الشركات الاحتكارية الاستعمارية على ثروات تونس بحجة استيفاء الديون، فكان ذلك مقدمة لدخول القوات المستعمرة الى تونس بعد ذلك بأربع سنوات، تماما كما حدث في مصر في نفس الفترة التاريخية.

وكتاب خير الدين: **أقوم المسالك في معرفة**

احوال الممالك هو احدى الوثـائق النادرة التي خطتها اقلام رجال السياسة في القرن التاسع عشر في البلاد العربية والدولة العثمانية. وهو يذكرنا بالتغييرات الجذرية التي احدثها محمد علي باشا في مصر وما نتج عنها من حركة فكرية بدأها رفاعة الطهـطاوي وتابعهـا جمال الدين الافغـاني ومحمد عبـده وغيرهمـا، ويعيد الى الاذهـان التنـظيمـات الاصـلاحيـة في الدولة العثمانية ومشاريع الدستور في تونس بدءاً من سنة ١٨٦١. فكل هذا بالاضافة الى مـدرسة الالسن للتعـريب التي اسسهـا الطهـطاوي، والصـادقيـة التي اسسهـا خـير الدين وكتب الرحلات ومنها كتاب الطهطاوي تخليص الابريز في تلخيص باريز، تخدم كنماذج لدراسة تكون الحركة الثقافية العربية في القرن التاسع عشر، وتـأثيرات الفكـر الاوروبي في هذه الحـركـة، وطبيعـة الاصلاح والتجـديد التي اخـذ بها المفكرون ورجال السياسة في ذلك القرن الذي شهد نمو اتجاهات فكرية جديدة اكثـر قبولا لافكار الغرب والتكنيك ونمط الحياة الاوروبية.

فمن مصادر مماثلة لكتاب خير الدين استطاع ابناء الاجيال اللاحقة ان يقفوا عـلى معانـاة المفكرين ورجال السياسة، وطبيعة المشاكل التي كان يواجهها هؤلاء في فترة حاسمـة اختلطت فيهـا الآمال الكبـار بخيبات الأمـل والفشـل الذريع. فلقد ظهر الكتاب في عصر احتل فيه التحدي الاوروبي المتمثل في النهضة الاوروبية التي كان قد مضى على انطلاقها اكثر من قرنين من الزمان، مركز الصدارة بالنسبة للمسلمين والثقافة الاسلامية. وقد تجلّـى هذا التحدي في التغييرات السياسية والفكرية والعسكرية التي عمت اوروبـا وفـرضت نفسهـا عـلى العـرب والمسلمين. ولعل هذه التغييرات الفكرية كانت ابلغ خطرا من التغييرات العسكـرية والمـادية المختلفة. فلقد عرف العرب والمسلمون قبل ذلك هزائم عسكرية مختلفة، واستطاعوا ان ينهضـوا مجددا، كما كان الحال بعـد غزوات المغـول والتتار للعالم الاسلامي، وكما كان الحال بعد انتصـارات الصليبيـين واحتـلالهم لأراضينـا لسنـوات طويلة. ولعل خـطورة هذا التحـدي الفكري لا تقل عن ذلك التحدي الذي عرفـه



المدرسة المرادية بقابس (القرن السابع عشر م)

العرب في القرنين الثامن والتاسع عندما واجهوا الثقافة والحضارة الهلنستية وهم في ذروة قوتهم السياسية والعسكرية، مع فارق اساسي وهو ان المواجهة الجديدة لاوروبا قد اخـذت مكانهـا عنـدما كـان زمام امـر العرب في يـد الدولة العثمانية وعندما كانت هذه الدولة قد اصبحت رجل اوروبا المريض.

عندما تكون الامم امام منعطف خطير من هذا النوع، فإنها تنتج خير الرجال كما تنتج اسوأهم، لأن منعطفات التاريخ الهامة هي خير محك للرجال يميـز الغث من الثمين. والقـرن التاسع عشر الذي مثل منعطفا من هذا النوع، عـرف رجالا ذوي نصيب كبـير من البـطولة والعظمة في الدولة العثمانية والدول التي كانت تسير في فلكها: السلطان محمود وولداه، ومحمد علي باشا، والخديوي اسماعيل، ومدحت باشا، وخـير الدين التونسي، والبـاي احمد وغيـرهم. وبـاستثناء خـير الدين فان احـدا من هـؤلاء لم يترك لنا من الوثائق المكتوبة ما يوقفنا على نظرياتهم السياسية وآرائهم ونـظرتهم لدورهم وكيفية تفكيرهم وشعورهم نحو ما كانوا يرغبون

في انجازه وما انجزوه من مشاريـع. ولحسن الحظ فان خير الدين قد خرج على المألوف من رجال السياسة فجمع في شخصه بين السياسي والمفكر والكاتب معاً. وان كتابه اقوم المسالك، ولا سيما مقدمة الكتاب، يمكن ان ينظر اليها على انها محاولة واعية لمعالجة بعض مشكلات الفلسفة السياسية. وما يزيد من اهمية هذه المحاولة انها ليست بعيدة عن الاعتبارات السياسية العملية ولا تغوص في النظريات المجردة البعيدة عن مجرى الاحداث السياسية.

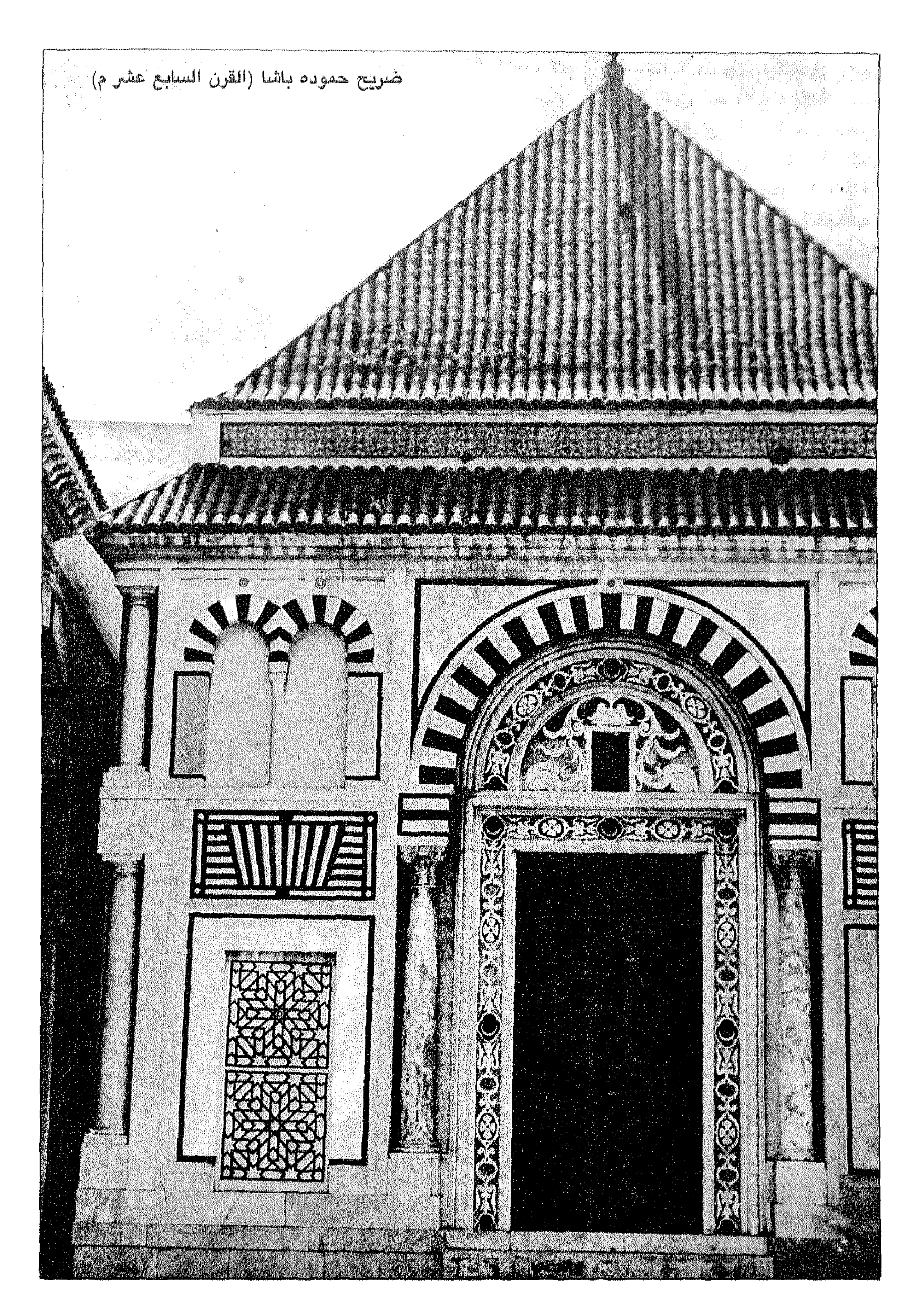
كتب خير الدين مقدمة كتابه محاولا الدفاع عن برنامجه السياسي. والحجج التي يقدمها ليست من ذلك النوع الذي يقدمه الفيلسوف او المنظر، بل هي تكاد ان تكون اجابات على ما واجه الكاتب من مشكلات سياسية عملية مرتبطة بتجربته السياسية. ويزيد من اهمية الكتاب انه ظهر بين فترتين اساسيتين من حياة خير الدين السياسية. عندما وضع خير الدين كتابه كان قد خرج من الوزارة، الا انه كان ينتظر ان يعود اليها في وقت لاحق، وكان ما يزال امامه مستقبل سياسي واسع، الا انه في نفس الوقت كان قد اكتسب خبرة سياسية واسعة، وكان يستطيع ان يكتب بوصفه منخرطا في الحياة العامة ويملك من معطيات الحياة السياسية العملية ما يجعل لكتابه اهمية خاصة. فالكتاب لم يكن مجرد بيان سياسي وضع خصيصا لتبرير برنامج حكومي، لأن خير الدين لم يكن في الحكم، كما انه لم يكن دفاعا عن ماض سياسي لشخصية سياسية، لأن خير الدين لم يكن قد اعتزل السياسة كلياً، وكان ما يزال يعد نفسه للعودة الى الحكم، وينتظر الفرصة المناسبة لذلك. من هنا كان الكتاب مزيجا من الخبرة والتأمل والالتزام، وهو يشكل نموذجا فريدا لدارسي التاريخ السياسي والفلسفة السياسية.

تونس ومصر نموذجان متشابهان:

ويزيد الوقت الذي ظهر فيه الكتاب من اهميته، ذلك ان الكتاب ظهر في سنة ١٨٦٧ وهو الوقت الذي كانت فيه نتائج برنامج محمد علي الاصلاحي قد بدأت تتبين، وظهرت بعض ايجابيات وسلبيات هذا البرنامج، الامر الذي وفرّ لسياسي مثل خير الدين ان يغوص متعمقا في دراسة الليبرالية الغربية والاصلاحات التي كانت تستلهم الانظمة الاوروبية. فاذا اضفنا الى هذا سعة اطلاع خير الدين وتجربته الشخصية اثناء حكم الباي أحمد الذي كان يمثل تجربة شبيهة بتجربة محمد علي في مصر وفي زمن قريب من زمن محمد علي، من سنة ١٨٣٧ حتى سنة ١٨٥٥، ادركنا اهمية كتاب من نوع كتاب خير الدين في تلك الحقبة من الزمان. فالكتاب ليس تقويما لتجربة تونس الاصلاحية فقط، بل هو تقويم لتجربة مصر الاصلاحية ايضا ولعهد التنظيمات الذي كانت الدولة العثمانية منخرطة فيه.

عندما وضع خير الدين كتابه كانت تونس قد عرفت أيام الباي احمد محاولة لوضع دستور جديد للبلاد يستلهم الانظمة الاوروبية ودساتيرها، الا ان محاولات الباي أحمد كانت قد اضطرت الى التراجع امام سرعة تطور الاحداث المحلية، وامام مطالبات الدائنين الاوروبيين التي انتهت فيما بعد بتعليق الدستور بدخول القوات الاستعمارية الى البلاد سنة ١٨٨١. ظهر الكتاب قبل المرحلة الاستعمارية المباشرة، لذلك فهو يقوّم التجربة الاصلاحية السابقة على دخول الاستعمار، بيد أنه يأخذ بعين الاعتبار كل الخطوات التمهيدية السابقة على دخول الاستعمار المباشر للبلاد.

فأقوم المسالك وتجربة خير الدين الشخصية لهما اهميتهما الخاصة، أولاً لأن الرجل والكتاب يلقيان ضوءاً هاما على حقبة بالغة الخطورة من تاريخ تونس، وثانيا لأن تجربة تونس في تلك الفترة كانت تمثل الى حد بعيد ما كان يدور في مصر وفي غيرها من البلاد المرتبطة بالدولة العثمانية. ويمكن اتخاذ خير الدين وكتابه نموذجا لدراسة التمخضات التي كانت تعانيها الدول المرتبطة كليا او جزئياً بالدولة العثمانية في الفترة السابقة مباشرة لخضوع هذه البلاد للاستعمار المباشر. واذا كنا نستطيع، تبعا لمقدمة خير الدين، ان نميز بين ما يعبر عن حالة تونسية محلية وما يعبر عن حالة اسلامية عامة،


ضريح حموده باشا (القرن السابع عشر م)

فمما لا شك فيه ان خير الدين كان يعرف تماما ان الحيز غالبا ما كان يضيق وان امكانية التمييز تصبح اكثر صعوبة. فقد كانت تونس جزءا من عالم اسلامي واسع يعاني من ازمات متشابهة ويواجه تحديات متماثلة. ولما كانت محاولة خير الدين لا تختلف في جوهرها عن محاولات اخرى مشابهة في اقطار اخرى، فهي تنضم الى تلك المحاولات الاخرى لتساهم في تجارب العالم الاسلامي قبل عصر الاستعمار وقبل نشوء الافكار القومية في ذلك العالم الاسلامي وعندما دخل الاستعمار تقوضت كل البرامج الاصلاحية، وبدأت مرحلة جديدة من التحديث وفق مصالح الاستعمار، وبدأت معها مرحلة المواجهة المباشرة ومرحلة ظهور الفكر القومي.

غالبا ما تتجه أنظار الباحثين المهتمين بالتحديث والاصلاح في الدولة العثمانية والدول التي كانت تدور في فلكها في الفترة السابقة على الاستعمار المباشر الى الآستانة والقاهرة مهملين التجربة التونسية. لقد اصبحت اوجه الشبه بين التجربتين التركية ــ العثمانية والمصرية امرا متفقا عليه بين الباحثين الذين كثيرا ما يدرسون احدى التجربتين على ضوء الاخرى. الا ان اكثر هؤلاء ينسى احتمال وجود تجربة ثالثة مماثلة تلقي الكثير من الضوء على التجربتين الاخريين، الا وهي التجربة التونسية. ذلك ان تلك التجربة كانت في تلك الفترة صورة مصغرة عن مصر، وكانت كل من تونس ومصر المرتبطتين بالدولة العثمانية والمستقلتين عنها في نفس الوقت، تسيران على طريق التحديث بخطى لا تقل عن الدولة العثمانية نفسها. وكلا الفرعين بالاضافة للجذر يشتركان في الاهتمام بالافكار والمؤسسات والدساتير والتجارب الاوروبية ويستلهمانها في برامجهما الاصلاحية المتقاربة.

فتونس هي المثل او النموذج الثاني بعد مصر من الاقطار العربية التي كانت تدور في فلك الدولة العثمانية والتي كانت مع ذلك تحافظ على استقلاليتها في نفس الوقت. اما سائر البلاد العربية فكانت اما قد دخلت تحت نفوذ الاستعمار الغربي المباشر فانتقلت الى مرحلة الخضوع للاستعمار الجديد، كما هو الحال بالنسبة للجزائر، او ما زالت تحت نير العثمانيين فلم تتمكن من ان تكون لها تجربتها الاصلاحية والتحديثية المستقلة كما هو الحال بالنسبة لمنطقة الهلال الخصيب والحجاز، او انها لم تدخل مطلقا في فلك الدولة العثمانية كالمغرب وبعض اجزاء الجزيرة العربية، الا انها لم تخض غمار تجربة تجديدية تستلهم الانظمة الاوروبية. فتونس هي الوحيدة الى جانب مصر التي كان لها تجربة اصلاحية تحديثية مستقلة كان يمكن ان تكون نواة تغيير شامل في المنطقة العربية بأسرها لو لم يعاجلها الاستعمار الاوروبي بالغزو الذي اوقف تلك الحركات التحديثية وبترها، بعد ان عرقلها لسنوات قبل ذلك عند مطالبته بالديون المتراكمة لاوروبا على تونس ومصر على حد سواء.

كانت تونس قد دخلت في فلك الدولة العثمانية في القرن السادس عشر، واستمرت كذلك خلال القرون التالية: السابع والثامن والتاسع عشر رغم استقلاليتها التي انتزعتها كسياسة الامر الراهن تماما كما انتزعت مصر استقلاليتها ايام المماليك ثم ايام علي بك الكبير ثم محمد علي باشا عن طريق فرض هذه الاستقلالية كأمر قائم. ومع ذلك فقد ظلت تونس كما ظلت مصر تدور في فلك الدولة العثمانية. كانت السلطات العثمانية في الآستانة هي التي تسمي وزراء تونس وكبار موظفي مناصب «المخزن» او الحكومة، وكان هؤلاء في غالبيتهم من «الترك» الذين يشكلون الطبقة الحاكمة. وكان الباي يعتمد على اناضوليا والمناطق المجاورة لها في مده بهم، فكانوا يحضرون الى تونس كمماليك وكانوا يعدون لاحتلال جميع مناصب «المخزن» دون استثناء تقريباً. وكان هؤلاء يرتبطون بروابط تشدهم الى اترابهم في مصر والدولة العثمانية، الى جانب روابطهم التي كانت تربطهم بالبلاد التي كانوا يعيشون فيها. كان خير الدين تونسيا وعثمانيا في نفس الوقت كما كان محمد علي مصريا وعثمانيا في نفس الوقت ايضا.

وهكذا عرف القرن التاسع عشر ثلاث دول اسلامية مستقلة ومتشابهة في نفس الوقت، الجذر العثماني والفرعان العربيان. وقد واجهت

هذه الدول الثلاث نفس المشكلات السياسية ونفس التحديات الفكرية (الايديولوجية) القادمة من الغرب، وكانت استجاباتها لهذه التحديات متشابهة الى حد بعيد، كما ان العقبات التي واجهتها كانت متشابهة ايضا. في الدول الثلاث كان يسود الاعتقاد بأن تفوق الغرب الاوروبي هو تفوق عسكري بالدرجة الاولى وان النهوض انما يكون ببناء جيوش على النمط الغربي، وهكذا كانت بدايات التحديث في الدول الثلاث عسكرية بالدرجة الاولى. وفي الدول الثلاث كانت هناك رغبة حثيثة في تصنيع البلاد، وكان لكل بلد منها برامج تصنيعية على درجات مختلفة من النجاح. وفي الدول الثلاث كان الاعتماد على الخبراء والفنيين الاجانب على اشده، ولا سيما في الجيوش والتعليم. وفي الدول الثلاث كانت هناك محاولات لوضع دساتير تستلهم الليبرالية الاوروبية في القرن التاسع عشر. وفي الدول الثلاث عرف الحكام كما عرفت الشعوب لسعات سياط المرابين والرأسماليين والمحتكرين الاوروبيين. وفي الدول الثلاث انجذب الحكام الى مصيدة الاستعمار الاوروبي فاستدانوا من اوروبا بفوائد باهظة وعجزوا عن ايفاء ديونهم حتى اعلنت كل من مصر وتونس الافلاس فكان مقدمة وحجة لدخول الاستعمار الى البلاد.

لهذا كله فان المشكلات التي يعالجها خير الدين في مقدمة كتابه اقوم المسالك والحلول التي يقدمها هي مشكلات وحلول مشتركة بين تونس ومصر والدولة العثمانية. بل ان خير الدين نفسه عندما وضع كتابه كان يعرف ان ما يصدق على تونس يصدق الى حد بعيد على غيرها ولا سيما الدولة العثمانية وقد اشار هو نفسه الى ذلك في المقدمة. من هنا فان كتاب خير الدين وتجربته في تونس هما مدخل مشروع لفهم ما كان يجري في مصر وما كان يجري في تركيا العثمانية، فبرنامجه وحججه وحلوله أعم من ان تقتصر على تونس وحدها. وباختصار فان أقوم المسالك ليس فقط مصدرا لدراسة حقبة هامة من تاريخ تونس في القرن التاسع عشر، بل هو مصدر هام لفهم الاوضاع المماثلة في مصر وفي الدولة العثمانية على حد سواء.

مقدمة أقوم المسالك اهم اعمال خير الدين:

ظهرت الطبعة الاولى لكتاب خير الدين اقوم المسالك سنة ١٨٦٧، والكتاب يتألف من مقدمة طويلة، ثم من دراسة مقارنة مطولة لعشرين دولة اوروبية، كل دولة في فصل خاص بها، بعد ذلك يأتي باب موجز عن اقسام العالم الجغرافية وقاراته ولائحة مقارنة بالتقويمين الهجري والميلادي، واخيرا من ملحق يتضمن تقريظات معاصري خير الدين ومعارفه للكتاب. وبتعبير آخر فان الكتاب يشتمل على المقدمة ثم جسم الكتاب ثم الملاحق.

واهم ما في الكتاب المقدمة، التي تقدم حجج خير الدين العقلية والنقلية التي تدافع عن الاستفادة من المؤسسات السياسية الغربية بطريقة تذكرنا بكتابات رفاعة الطهطاوي تخليص الابريز ومناهج الالباب المصرية خاصة. الا ان كتاب خير الدين يتميز عن كتب الطهطاوي في ان صاحبه كان رجل سياسة في موضع المسؤولية الاولى في البلاد، فلقد اصبح خير الدين رئيسا للوزراء في تونس ثم صدرا اعظم[٤] في الدولة العثمانية، والكتاب اشبه ما يكون بمحاولة رجل سياسة لايجاد المبررات العقلية والنقلية لبرنامجه السياسي، وجعل هذا البرنامج الذي يستعير التجربة الاوروبية مقبولا لدى المسلمين. والمقدمة هي اهم ما في الكتاب، ويبدو ان خير الدين كان يعرف ذلك، فقد وافق على ان تنقل الى الفرنسية دون سائر الكتاب بعد سنة واحدة من ظهور الطبعة العربية الاولى. وقد ظهرت بالفرنسية تحت عنوان: اصلاحات ضرورية للدول الاسلامية:

دراسة القسم الاول من المصنف السياسي والاحصائي المعنون: اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك. وقد اعيد نشر المقدمة العربية في القسطنطينية سنة ١٨٧٦ ثم تبعتها الترجمة التركية في سنة ١٨٧٨.

منذ ظهور الكتاب تجاوز الاهتمام بالمقدمة الاهتمام بالكتاب حتى غطى هذا الاهتمام بالمقدمة على سائر اجزاء الكتاب واصبحت

الاشارة الى اقوم المسالك تعني الاشارة الى المقدمة وحدها. واذا كان هذا الاهتمام بالمقدمة يؤكد اهميتها البالغة، الا ان اهمال اجزاء الكتاب الاخرى كلية امر غير جائز بالنسبة للباحث المتخصص. صحيح ان ما في الكتاب من معلومات تاريخية وجغرافية وسياسية اصبح الان من الامور المعروفة والشائعة بل والتي تخطاها الزمن، الا انه من المهم بمكان معرفة كيفية معالجة خير الدين لموضوعه، وما هي الحكومات والدول الاوروبية التي اثارت اعجابه ودفعته الى دراستها، وفوق هذا وذاك ما هي المصطلحات السياسية العربية التي استخدمها للتعبير عن المفاهيم والمؤسسات السياسية الاوروبية.

ومع هذا تظل مقدمة الكتاب اهم ما فيه، وهي ما زالت تحتاج الى ان تدرس بعناية بالغة، لانها محاولة رجل سياسة مسؤول لاقناع معاصريه من المثقفين المسلمين في القرن التاسع عشر بضرورة الاصلاح والتغيير واهمية الاستعارة من اوروبا، خاصة وان هؤلاء المعاصرين من المثقفين كانوا ينتمون الى الاغلبية المحافظة التي ترى في التغيير والاصلاح خطرا على مصالحها وعلى المؤسسات الدينية السائدة، الامر الذي ما زال له الكثير من الصدى حتى بعد مضي اكثر من قرن على كتاب خير الدين وعلى تجربته في الحكم. وقد كان يتعين على خير الدين حتى يستطيع الوصول الى عقول قرائه والنجاح في مهمته التي تصدى لها ان ينتقي من المفردات والصياغات ما يقبله القارىء ممن عرف الثقافة العربية الاسلامية دون سواها، وهي المهمة التي اقدم عليها الطهطاوي قبله والتي لقيت الكثير من النجاح رغم صيحات الاستنكار ورغم الاتهام بالزندقة والهرطقة وما شابهها. وكالطهطاوي قبله فان خير الدين يلجأ الى وسيلة ناجعة استخدمها اكثر رجال الاصلاح في القرن التاسع عشر، وهي انكار ان تكون الاصلاحات التي يريد استعارتها من الغرب بعيدة عن الثقافة والتراث الاسلاميين، فهو باستمرار يحاول ان يبين ان اوروبا استطاعت ان تطور بعض المفاهيم والافكار الضرورية للتقدم والتي لا يعدم الفكر الاسلامي ان يجد لها مقابلا فيه.

والتونسي يقدم اهم افكاره، اذا لم نقل جميعها، في المقدمة التي لا تزيد على المئة صفحة، ولا يترك لجسم الكتاب اكثر من مهمة الوصف والتصنيف مما يمكن ان نطلق عليه الان اسم «دراسات في الحكومات المقارنة»(٥). واذا كان وصف خير الدين للدساتير والحكومات والانظمة السياسية للدول التي يعرض لها ــ ومنها الدولة العثمانية ــ وصفا دقيقا، فان اهمية الكتاب لا تزيد عن ذلك، بل ان خير الدين لم يتوخ من الكتاب اكثر من ذلك. ومنذ ظهور الكتاب كان يمكن اعتبار المقدمة عملا منفصلا او مستقلا، وقد ادرك خير الدين كما ادرك معاصروه ذلك بدليل ان خير الدين اجاز ترجمة المقدمة الى الفرنسية دون سائر الكتاب كما اشرنا، كما ان الطبعة العربية الثانية والطبعة التركية اقتصرتا على المقدمة وحدها. وقد كان لهذه المقدمة الصدى الكبير عند مثقفي القرن التاسع عشر فامتدحها الطهطاوي واشار اليها في كتابيه المرشد الامين ومناهج الالباب، كما كتب عنها عبد الرحمن الكواكبي واعتبر صاحبها من العرب القلائل الذين كتبوا في السياسة في القرن التاسع عشر مما يستحق ان يذكر.

في سنة ١٩٣٤ ظهرت مذكرات خير الدين تحت عنوان «الى اولادي: مذكرات حياتي الخاصة والسياسية»(٦) وفي السنة التالية ظهر برنامجه السياسي الذي قدمه للسلطان عبد الحميد تحت عنوان «برنامجي»(٧) مترجما الى الفرنسية. وعلى الرغم من الاهمية التاريخية البالغة لهذه الوثائق، الا ان ذلك لا يضيف الكثير الى افكار خير الدين السياسية والاجتماعية التي ظهرت في مقدمة اقوم المسالك. كتب خير الدين مذكراته او بالاحرى املاها بين سنتي ١٨٨٥ و١٨٨٦، اما برنامجه السياسي فهو الذي قدمه للسلطان في سنة ١٨٨٢. والمذكرات والبرنامج ليست الا شهادات تفوق اهميتها التاريخية اهميتها السياسية والفكرية، وتؤكد ان اهم ما اعطاه خير الدين بالاضافة لمحاولاته الاصلاحية اثناء فترة رئاسته للحكومة في تونس انما هو مقدمة كتابه اقوم المسالك.

فالمقدمة بالاضافة لكونها اهم ما كتبه خير الدين، تلخص كل ما كتبه وتغني عنه، وهي في نفس الوقت تلخص كل تجربة خير الدين التي تتلخص في مقاومة اوروبا عن طريق الاستعارة منها، والتمسك بالجامعة الاسلامية لدعم هذه المقاومة، ومحاولة اصلاح الولايات الاسلامية المختلفة كوسيلة وحيدة للبعث والنهوض. وخير الدين في موقفه هذا الذي يعرضه في مقدمته يعبر عن مواقف وآراء وافكار جميع رجال الاصلاح في عصره، مثل جمال الدين الافغاني الذي تلخص موقفه في الدفاع الخارجي والاصلاح الداخلي ايضاً. من هنا فان اهمية المقدمة تتجاوز حدود الكتاب وتتجاوز حدود تونس، وهي مدخل مشروع لفهم حركة الاصلاح والتجديد والتحديث في البلاد العربية خاصة والبلاد الاسلامية عامة.

خير الدين ومحاولات الباي أحمد الاصلاحية

يمكن الحديث عن محاولتين اساسيتين للاصلاح الداخلي في تونس في القرن التاسع عشر في الفترة السابقة على دخول تونس تحت النفوذ الفرنسي: المحاولة الاولى كانت على يد الباي احمد الذي امتد حكمه من سنة ١٨٣٧ حتى سنة ١٨٥٥، والثانية على يد خير الدين الذي حاول القيام ببعض الاصلاحات الداخلية في فترة توليه الوزارة في أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر، الا ان اصلاحاته الحقيقية جاءت بعد ذلك عند توليه رئاسة الوزارة بين سنتي ١٨٧٣ و١٨٧٧ وعندما اتيحت له ولبعض زملائه من المجددين الفرصة لتنفيذ بعض مشاريعهم الاصلاحية. واذا كان هناك بعض محاولات الاصلاح والتحديث قبل هاتين المحاولتين وخاصة على يد الباي حموده باشا الذي ظهر في اواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وعلى يد الباي محمود الذي خلف حموده على الحكم سنة ١٨١٤ وامتد حكمه حتى سنة ١٨٢٤، فكلاهما ساهم في القضاء على جيش المرتزقة واستبداله بجيش حديث على النمط الاوروبي، وكلاهما حاول الاستفادة من العناصر العربية التونسية



خير الدين باشا

في الحكم، الا ان الاصلاح الذي يستلهم التجربة الاوروبية بالمعنى الحديث للكلمة لم يبدأ الا مع تجربة الباي احمد ومع تجربة خير الدين بعد ذلك(٨).

عندما بدأ الباي احمد فترة حكمه التي امتدت على مدى ثمانية عشر عاما، كان الحكم في تونس ينحصر ببضعة افراد، وكان هؤلاء يعالجون امور الحكم بطريقة فردية شبه مطلقة اشبه ما تكون بالطريقة العشائرية. يضاف الى ذلك ان معظم هؤلاء كان ينتسب الى تلك الاصول الشركسية ــ التركية، ومع ان الكثير من هؤلاء كان قد ولد على ارض تونس كما ان بعضهم دعم علاقته بتونس عن طريق المصاهرة، الا ان الطبقة الحاكمة في غالبيتها ظلت طبقة غريبة ذات اصول غير تونسية وغير عربية. اما التمثيل التونسي العربي في الحكم فكان ينحصر في «القادة» الذين كانوا يرسلون الى المناطق وفي «الخلفاء» وهم زعماء القبائل وفي «العلماء» الذين كانوا في غالبيتهم الساحقة من التوانسة وكانوا ينتسبون الى المذهب المالكي، على عكس طبقة الحكام الترك الذين كانوا

ينتسبون الى المذهب الحنفي. وكانت الخدمات الاجتماعية تكاد تنحصر في التعليم الذي كان يشرف عليه العلماء وخاصة علماء جامعة الزيتونة .

كل هذا الوضع الذي يعتبر استمرارا للعصور الوسطى بدأ بالتغير عندما صعد الباي احمد الى سدة الحكم بعد وفاة أبيه سنة ١٨٣٧. وكان احمد معجبا ومتأثرا بتجربة محمد علي في مصر وقد بدأ عهده باصلاح الجيش وبنائه على نمط جيش نابليون الذي كان الباي احمد يكن له الاحترام الشديد، وقد امر بترجمة التاريخ الفرنسي ولا سيما تاريخ نابليون الى العربية.

ولعل خطوته الاولى في اصلاح الجيش كانت تأسيس كلية الهندسة او مدرسة البوليتكنيك سنة ١٨٣٨ التي سعى من ورائها الى تدريب ضباط جيشه تدريبا حديثا. وكان اكثر المدرسين في هذه المدرسة من الاساتذة الفرنسيين الذين استعان بهم الباي خصيصا لهذه الغاية. بعد ذلك استمر الباي احمد بالسير على خطوات محمد علي، فبعد مدرسة البوليتكنيك ومحاولة اصلاح الجيش، حاول الباي تصنيع البلاد لامداد الجيش بالاسلحة والمعدات اللازمة له، وكان يدرك ان البلاد التي لا تستطيع الاعتماد على نفسها في امداد الجيش بما يلزمه من المعدات والذخيرة ستضطر الى استجداء الدول الكبرى التي لا تعطي الا اقل مما تأخذ. وقد نجحت سياسة الباي التصنيعية الى حد بعيد كما نجحت سياسة محمد علي في هذا الميدان، وعرفت تونس في ايامه مصانع متنوعة للاسلحة والذخيرة والجلود والنسيج وغيرها، وتطور الجيش وتأسست البحرية التونسية وانشىء المرفأ البحري اللازم لها. وقد رافق كل هذا المزيد من الاستقلالية التي ظهرت في علاقات الباي مع الدولة العثمانية وقناصل الدول الاوروبية على حد سواء. بالاضافة لذلك كله بنى الباي قصرا باهظ التكاليف هو قصر المحمدية الذي اراده عنوانا لاستقلالية تونس ورمزا يتشبه به بالدول المستقلة.

كانت هذه الخطوات الاصلاحية المتعددة وغيرها تتطلب اصلاح الادارة الحكومية كما تتطلب المصاريف الباهظة. وعندما كان الباي يحدث الجيش والتعليم ويصنع البلاد اهمل الادارة ولم يعن بتحديث الاقتصاد كما فعل محمد علي في مصر، فكانت نتيجة ذلك ان استطاع احد وزرائه وهو مصطفي الخازندار الذي اشتهر بطمعه وجشعه ان يجني ثروة طائلة اثقلت كاهل الدولة الصغيرة ذات المداخيل المحدودة، خاصة وان مصطفي الخازندار هذا استطاع ان يشكل حوله عصبة من المستفيدين واستطاع ان يستمر في الوزارة حتى بعد عهد الباي احمد الى ان اقصي عن الحكم وصودرت امواله سنة ١٨٧٣. وقد تعلم خير الدين من تجربة مصطفى الخازندار درسا هاما، وهو ان الاصلاح في ظل ادارة سياسة فاسدة لا يؤدي الا الى خيبات الامل. ومن غريب الصدف ان يكون هذا الوزير الذي اشتهر بفساده، هو والد زوجة خير الدين نفسه وزميله في الوزارة قبل ان يصبح خير الدين رئيسا للوزراء بعد ان اقصي مصطفى الخازندار نهائيا وجرد من ثروته التي بنى بها خير الدين المدرسة الصادقية التي اشرنا اليها قبلا.

الا ان مصطفى الخازندار لم يقص عن الحكم الا بعد ان ورط البلاد بديون كبيرة وفوائد فاحشة كانت تدفعها تونس للمرابين الاوروبيين، وكانت تستنزف اقتصاد البلاد. وقد اتخذت هذه الديون ذريعة لتدخل المرابين الاوروبيين في اقتصاد تونس عن طريق تشكيل لجنة الديون الاجنبية سنة ١٨٦٩، قبل اتخاذ تلك الذريعة مرة اخرى حجة لدخول الجيوش الفرنسية الى تونس واستعمارها.

كانت محاولات الباي احمد الاصلاحية بمثابة دروس هامة تلقاها خير الدين واستفاد منها قبل ان تتاح له الفرصة للقيام بمحاولاته الاصلاحية الخاصة. ذلك ان خير الدين كان قد وصل الى تونس للعمل في بلاط الباي في سنة ١٨٤٠ اي بعد مايقرب من السنوات الثلاث على تسلم الباي احمد مقاليد الامور وبعد سنتين من تأسيس كلية الهندسة او مدرسة البوليتكنيك. كان خير الدين في ذلك الحين ما يزال في ريعان الشباب[٩]، الا انه استطاع ان يتقدم بسرعة بالغة. وقد قربه الباي منه ولم

يمض على وجوده في تونس اكثر من عشر سنوات حتى اصبح يده اليمنى، وقد ساعده ذلك في الاطلاع على المشاريع الاصلاحية التي كان الباي يحاول تنفيذها وعلى الافكار والمبادىء الجديدة التي كان يدين بها. وقد تيسر له في تلك الفترة الوقوف على النظام العسكري الجديد الذي وضعه الباي كما تيسر له الاتصال ببعض الخبراء العسكريين الفرنسيين الذين استقدمهم الباي لبناء جيشه، وببعض الاساتذة الذين كانوا يدرسون في البوليتكنيك. وفي هذه الفترة تعلم الفرنسية وكان ذلك سبب ارساله الى باريس سنة ١٨٥٣ في مهمة تتعلق بأحد زملاء مصطفى الخازندار الذي كان قد اختلس مبالغ ضخمة من خزينة الدولة وفر الى فرنسا وحصل على الجنسية الفرنسية. وهناك اتيحت له فرصة اوسع للاحتكاك المباشر بحضارة الغرب وثقافته، وهو ما اتيح للطهطاوي قبله بربع قرن تقريبا.

خير الدين على محك العمل

عندما عاد خير الدين من مهمته في باريس سنة ١٨٥٧ اسندت اليه وزارة الملاحة كما اسندت اليه رئاسة المجلس الذي كان قد اسسه الباي عملا بالدستور الجديد. وكان قبل ذلك قد تزوج ابنة مصطفى الخازندار الذي لمس في الشاب الجديد بوادر تبشر بمستقبل باهر. ورغم الصلة العائلية التي كانت تربط خير الدين بالخازندار، فان خير الدين رفض مماشاة هذا الاخير في فساده، وآثر الاستقالة من منصبيه الحكوميين سنة ١٨٦٢ بعد خمس سنوات تقريبا من توليهما. وكان سبب استقالته اختلافه مع والد زوجته حول امر الاستدانة من المرابين الاوروبيين. وعلى اثر ذلك غادر خير الدين تونس وعاش لمدة سبع سنوات في الخارج حيث تيسرت له فرصة وضع كتابه اقوم المسالك في تلك الفترة التي فرض فيها على نفسه الابتعاد عن السياسة والانصراف للدراسة والتأمل. وكأن خير الدين كان يدرك ان سياسة والد زوجته ستؤدي الى كارثة كبرى، فآثر ان لا يكون طرفا فيها على الاقل طالما انه لم يكن يستطيع تعطيلها وتجنيب البلاد نتائجها.

في سنة ١٨٦٩ وعلى اثر الوصاية المالية الاجنبية على تونس، عاد خير الدين ليرأس لجنة الديون الايطالية ـ الفرنسية ـ الانكليزية المشتركة حيث اختير لهذه المهمة، بعد ان اقصى الخازندار نهائيا عن الحكم. وفي اثناء السنوات الاربع التي ترأس فيها خير الدين الحكومة وتولى مقاليد الامور اتيحت له الفرصة لتطبيق برنامجه السياسي الذي عرضه في مقدمة كتابه.

في مذكراته التي املاها بعد حوالي العشر سنوات من اعتزاله السياسة وانتهاء تجربته في الحكم، يعدد لنا خير الدين الانجازات التي استطاع تحقيقها اثناء توليه منصب رئاسة الوزراء في تونس واكثرها يتناول اصلاح الادارة والتعليم وتحسين «معاملات» الحكومة للمواطنين وهي على الوجه التالي:

١ ـ الغاء الضرائب السابقة والتي تراكمت كديون على المواطنين.

٢ ـ الغاء الضرائب ولمدة عشرين سنة على الاراضي الزراعية التي تباشر زراعة الزيتون والنخيل تشجيعا لزراعة هاتين المادتين الاساسيتين للاقتصاد التونسي.

٣ ـ تحديد الضريبة المفروضة على رؤوس المواطنين منعا لطمع وجشع «القواد» الذين كان يترك لهم امر تحديد هذه الضريبة بطريقة تعسفية جائرة ومتحيزة في اكثر الحالات.

٤ ـ الالغاء الجزئي للنظام الضرائبي الذي كان يعطي نسبة مئوية لجامعي الضرائب الذين كانوا يبالغون في الضرائب ويجمعونها بالقوة الجائرة.

٥ ـ اعادة تنظيم الضرائب على الاستيراد والتصدير وتحديد ضريبة الاستيراد بـ ٥ ٪ خمسة بالمئة فقط وتخفيف ضريبة التصدير.

٦ ـ تأسيس نظام جديد لادارة الحبوس الوقفية وتحديثها.

٧ ـ اعادة تنظيم الدراسة في جامعة الزيتونة وتطويرها.

٨ ـ تأسيس مكتبة جديدة وتطويرها.

٩ ـ تعبيد الطرق.

١٠ ـ انشاء المدرسة الصادقية على نمط مدارس «الليسيه» الاوروبية.

١١ ـ الغاء الحملات العسكرية الباهظة التكاليف لجمع الضرائب من القبائل الرحل

التي اعتادت ان لا تدفع الضرائب المفروضة عليها الأعنوة[١٠].

فاذا اردنا ان نحلل هذه الانجازات التي ذكرها خير الدين في مذكراته التي حفظت لنا بالفرنسية وهي اللغة التي املاها بها صاحبها، فاننا نجد فيها نغمة الدفاع عن تاريخه السياسي وخاصة في فترة ذروة هذا التاريخ. فالمذكرات تختلف عن مقدمة اقوم المسالك في انها قد وضعت بعد انتهاء دور خير الدين السياسي، وليس عندما كان خير الدين يتأهب للعودة للنشاط السياسي كما كان الحال مع المقدمة. ولما كانت فترة تسلم خير الدين لرئاسة الوزراء لم تات مطابقة تماما لما كان يأمله وينشده، فان هذا يفسر نغمة الدفاع والتبرير التي نلمسها في المذكرات وفي تعداد الانجازات.

يضاف الى ذلك ان المذكرات والانجازات تؤكد على اهمية الاصلاح الاداري بشكل واضح، بل ان خير الدين يقرر في هذه المذكرات ان احد اهم اسباب عدم التقدم فساد الادارة وعدم اخلاص المسؤولين وتقديمهم لمصالحهم الخاصة على المصالح العامة، بل ان هؤلاء في نظر خير الدين هم علة عدم ثقة المواطنين بالسلطات السياسية وعدم تعاونهم معها، الامر الذي يؤدي الى تعطيل كل الخطوات الاصلاحية ويقود البلاد الى الهلاك. فكان خير الدين هنا يحاكم تجربة مصطفى الخازندار ويحملها مسؤولية كل ما آلت اليه الامور في البلاد بعد تجربة الباي احمد الاصلاحية. وخير الدين لا يبالغ ولا يتعسف في حكمه هذا، فهو خير من يدرك النتائج السلبية التي ترتبت على طمع وجشع وفساد الخازندار وهو الذي ابتعد عن الحكم لسنوات عندما ادرك النتائج الوخيمة المترتبة على سياسة هذا الاخير خاصة ان خير الدين لم يعد الى تونس الا بعد ان استنزفتها الديون والفوائد، فكانت مهمته محاولة انقاذ ما يمكن انقاذه، ومحاولة تجنيب السفينة الغرق ولكن بعد فوات الاوان. فلقد عاد خير الدين الى الحكم بعد ان وضع الاستعمار قدمه في داخل البلاد تمهيدا لغزوها والسيطرة عليها سيطرة كلية.

واذا كان خير الدين قد اهتم بالاصلاح الاداري فلأنه كان يؤمن ان خلق الادارة الجديدة التي تعمل بوحي «العدالة والمساواة» على حد تعبيره، والتي تستطيع ان تقضي على التعسف وسوء الاستعمال والاستغلال وتعيد للحكومة «دورها المقدس في حماية الشعب»، هي وحدها التي تستطيع ان تدير البلاد ادارة ناجحة وتقودها على طريق الازدهار[١١]. ولما كان خير الدين يدرك ان الضرائب المتراكمة تثقل كاهل المواطنين وتدفعهم الى عدم الثقة بالحكومة، خاصة وانه لم يكن هناك اي نظام دقيق لتحديد المداخيل وتحديد الضريبة كما يعترف في مذكراته، فانه يعطي الاولوية لاصلاح النظام الضرائبي كما هو واضح من تعداد الانجازات.

ومن قراءتنا للانجازات كما يعددها خير الدين وكما اشرنا اليها نقف على اهتمام خير الدين بالتعليم واعطائه العناية البالغة. وكنا قد اشرنا اعلاه الى المدرسة الصادقية ودورها البالغ في دفع عجلة التطور والتحديث في تونس. ولا شك ان الفضل في ذلك يعود الى خير الدين الذي عني باعادة تنظيم التعليم في جامعة الزيتونة وتطويره ومحاولة تحديثه. وفوق هذا كله فقد عني خير الدين بالمكتبات واسس مكتبة حديثة على نمط المكتبات الحديثة التي تعرف اليها خلال اقامته في الخارج.

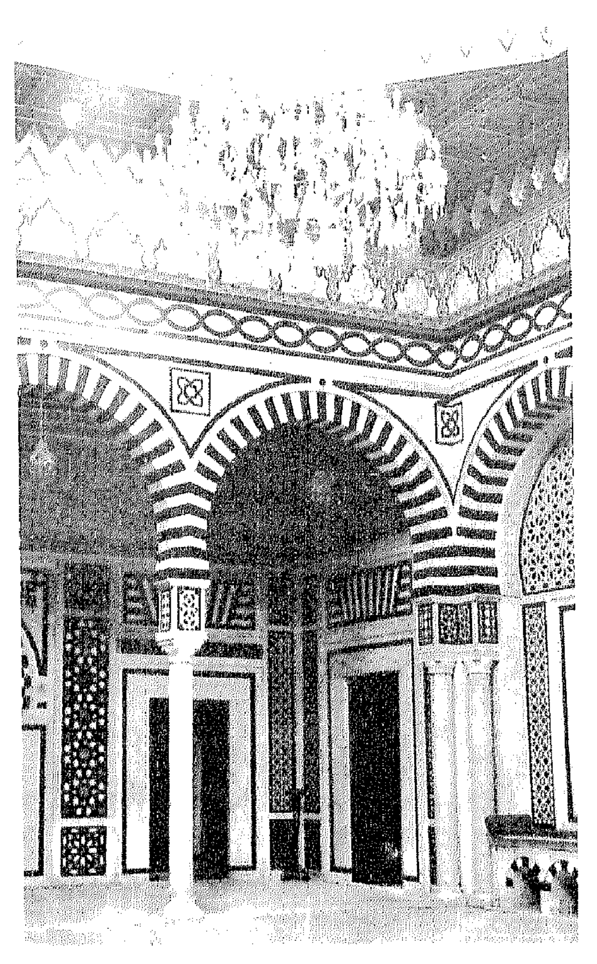
اما المشكلة التي كانت تعاني منها تونس باستمرار وهي مشكلة البدو والقبائل الرحل، واضطرار الحكومات الى تجريد الحملات العسكرية السنوية لجمع الضرائب منها ولاشعارها بوجود الدولة، فلا تتشجع هذه القبائل على غزو المناطق السكنية واقلاق امنها، فقد حاول خير الدين حلّها ونجح في ذلك الى حد بعيد. كان خير الدين يعتقد ان القبائل المتنقلة مثل غالبية المواطنين على كامل الاستعداد لدفع ما يترتب عليها اذا شعر هؤلاء بان الضرائب المفروضة عليهم تتناسب مع حجم الخدمات التي يتلقونها. وقد ناقش خير الدين هذا الموضوع في المذكرات واشار الى وجهة نظره التي تتلخص في ان القبائل على استعداد لارسال الضرائب بنفسها اذا

ما شعرت بأن الدولة توفر لها الحماية اللازمة لأمنها، واذا ماكانت هذه الضرائب تتصف بالاعتدال وتمثل بحق ماتشعر القبائل بانه يتوجب عليها. ويضيف خير الدين الى ذلك اعتقاده بان نظاما ضرائبيا من هذا النوع سيوقف غزوات القبائل من جهة، وسيحرم الخارجين عن القانون من مكان امين يجدونه عادة بين القبائل.

وموقف خير الدين المتعلق بالبدو والقبائل يتصل بموقف اعم واشمل قوامه ان الحكومة القوية التي تستطيع ان تفرض ارادتها وتستطيع ان تكتسب احترام المواطنين وثقتهم هي الحكومة التي تستطيع ان توفر الامن للبلاد وتنظيم المجتمع وتجنبه الفوضى والتعسف الذي انتهت اليه العهود السابقة. والتونسي يفخر في مذكراته بان سنوات حكمه قد تميزت بأن شهدت النساء «يتجولن منفردات ويتنقلن من قرية الى اخرى في مناطق كان الرجال لا يجرؤون فيها على السفر حتى وسط جماعات كبيرة مسلحة»(١٢). فقد كان خير الدين يسعى ان ينقل الى تونس الأمن الذي وجده في اوروبا اثناء اقامته فيها، والذي اثار ولا شك اعجابه البالغ خاصة وان المجتمعات الشرقية في القرن التاسع عشر كانت تحن الى عصور الامان التي عرفتها في سنوات مجدها وازدهارها.

كان خير الدين ينشد ان يحقق في بلاده ما شاهده في اوروبا وما عبر عنه خير تعبير في مقدمة كتابه. وهو في المذكرات يفخر بما استطاع انجازه في فترة حكمه التي لم تطل كثيرا والتي استمرت لمدة اربع سنوات فقط، فيذكر شق الطرق وتعبيدها وتوسع رقعة المواصلات ووصل المناطق بعضها ببعض. كما يفخر بمحاولاته لإقامة علاقات مباشرة مع المواطنين ويذكر انه قد وضع صندوقا خاصا للشكاوى في مكان عام واحتفظ بمفتاحه لنفسه حتى يتعرف على شكاوى المواطنين وآرائهم ويقف على ما يريدون دون ان يكون بينه وبينهم اية حواجز.

ولكن الى جانب هذه الانجازات التي يفخر بها خير الدين، فان المذكرات توقفنا على حقيقة وجهة نظر خير الدين ورأيه في الحكومة



دار الباي بالقصبة وهي اليوم مقر مجلس الوزراء

وطبيعتها. وتتلخص وجهة النظر هذه في ان صاحبها لا يبتعد كثيرا عن وجهة النظر الاسلامية التقليدية في الحكم والتي تفصل فصلا شبه قاطع بين الحاكم والمحكوم، وتعتبر الحاكم الفاضل هو ذلك الذي يعنى بأمور الرعية كرعية تحتاج الى من يعنى بها. وموقف خير الدين هذا يذكرنا بموقف الطهطاوي وحديثه عن المستبد المستنير وهو الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما يقول خير الدين، والملك انما هو «الوازع» الذي يهيمن على الرعية فلا يعتدي بعضهم على بعض كما سنرى فيما بعد. لم يكن مايلهم خير الدين الى الحاكم العادل الفاضل الديموقراطية والعدالة الاجتماعية التي شهدتها اوروبا التي عرفها خير الدين، بل ظل يقيم ذلك الفصل بين الحاكم والمحكوم بطريقة اقرب ماتكون الى الطريقة التقليدية. بل ان خير الدين عندما تيسر له

اختيار وزرائه آثر ان يختار غالبية هؤلاء من ابناء الطبقة الحاكمة كما عرفتها العهود السابقة، وهي طبقة المماليك «الترك» ذات الاصول الشركسية واليونانية وما يشبهها. واما حديث خير الدين عن انجازاته، فقد تناول الاصلاحات الادارية والخدمات واهمل الحديث عن الدستور والتمثيل والفصل بين السلطات مما يعتبر اقرب الى روح التجربة الاوروبية التي تحدث عنها في مقدمته مناصرا ومدافعا.

واذا كان خير الدين قد وجد في الرابطة العثمانية مصدر قوة للدفاع الخارجي، فقد ظل مخلصا امينا لهذه الرابطة ولتقاليدها السياسية سواء على الصعيد المحلي او على صعيد السلطة، ولم تتجاوز حدود اصلاحه الداخلي روح تلك التقاليد. بل ان خير الدين في خطواته الاصلاحية نفسها كان يسير في ركاب غيره من العثمانيين كمحمد علي باشا والسلطان محمود وغيرهما ممن سبقه على الدرب. وخير الدين لم يذكر لا في مقدمته ولا في مذكراته انه سعى يوما الى ما يتجاوز حدود التقاليد والاعراف الاسلامية.

ومع هذا فان مقدمة كتابه اقوم المسالك تعتبر حجر الزاوية في تجربة النهوض في المرحلة السابقة للهيمنة الاستعمارية، فقد وضعت هذه المقدمة الاسس النظرية للتحديث والتجديد استحق عليها صاحبها اسم «ابو النهضة» لانها كانت بمثابة الباب الواسع للدخول الى العصر الحديث بحدود تجاوزت ما كان يطمح اليه صاحبها. واذا كان خير الدين قد حصر نفسه في تعداده لمنجزاته بما استطاع تحقيقه في فترة توليه الحكم، فان الانجاز الاكبر الذي يسجل لخير الدين هو مقدمة كتابه كما ذكرنا قبلا. فابو النهضة التونسية لم يكن ابا لهذه النهضة بما انجزه كسياسي اصلاحي بل بما انجزه ككاتب ومفكر نظر لنقل تجارب الامم الاخرى، لا نقل التقليد بل نقل الاستيعاب والتمثيل الواعيين... لقد كان من تأثير افكار خير الدين في المقدمة على معاصريه وتلامذته من المثقفين ان نسب نشوء الحركة الوطنية التونسية الى البذور التي بذرتها هذه المقدمة والتي اثمرت واينعت على يد بعض تلامذة خير الدين من امثال بشير صفار الاب الثاني للنهضة كما يعرف في تونس. ●

الهوامش

(١) قارن بـ«مقدمة اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك» لخير الدين التونسي، تحقيق ودراسة الدكتور معن زيادة، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٨، ص ١٧ وما بعدها.

(٢) ظهرت الطبعة الاولى لكتاب: **اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك** ١٨٦٧.

(٣) Micaud, Charles A. with Leon Carl Brown and Clement Henry Moore: Tunisia, the Politics of Modernization, New York. London 1964. القسم الاول بقلم ليون كارل براون، ص ٣ وما يليها.

(٤) في السنة التالية لعزل خير الدين من منصب رئاسة الوزراء في تونس استدعاه السلطان عبد الحميد واستعان به في بعض اللجان الاقتصادية، وفي نفس السنة اصبح خير الدين صدرا اعظم ولمدة تقل عن السنة اختلف فيها مع عبد الحميد واعتزل السياسة حتى وفاته سنة ١٨٨٩.

(٥) Al-Husry, Khaldun S., Three Reformers. A study in Modern Arab political Thought, (Khayat Beirut 1966) p. 36.

(٦) «A Mes Enfants: Mémoire de ma vie privée et politique» in M.S.M. Jali and J. Pignon, «Documents sur Khéreddine» Revue Tunisienne, no. 18 (1934).

(٧) «Mon programme» Revue Tunisienne (1936) pp. 51-80.

(٨) قارن مقدمة ليون كارل براون للترجمة الانكليزية لمقدمة اقوم المسالك:
Brown, Leon Carl: the *Surest path*, Horvard Middle Eastern Monograph Series 1967.

(٩) هناك اختلاف في تاريخ ميلاد خير الدين، البعض يجعله سنة ١٨١٠ والبعض الاخر يجعله سنة ١٨١٩. والارجح ان التاريخ الثاني اقرب الى الواقع من التاريخ الاول. قارن المرجع السابق ص ٢٩.

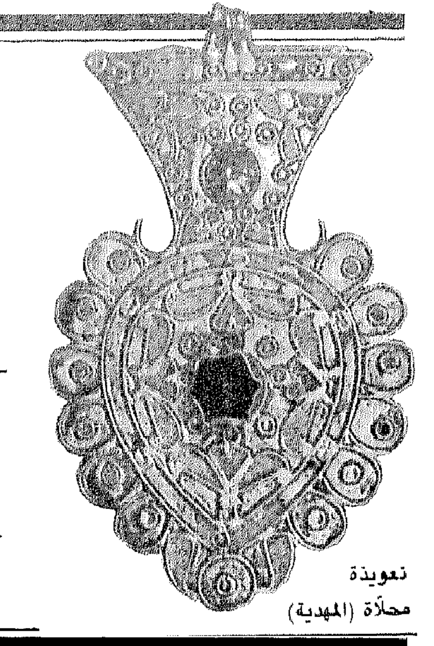
(١٠) قارن مذكرات خير الدين A mes enfants ص ١٩٣، قارن مقدمة الترجمة الانكليزية ص ٣٢.

(١١) نفس المرجع ص ٣٢.

(١٢) «A mes enfants» p. 196.

محاولة في إعادة تحديد تاريخ الغزوة الهلالية الافريقية

الاستاذ. محمد الشابي
مؤرخ وباحث بالمعهد القومي للآثار والفنون ــ تونس.


تعويذة
محلاة (المهدية)



نشر الأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد سنة ١٩٥٤ مجموعة من «المجلات المستنصرية» وهي سجلات وتوقيعات، وكتب لمولانا الامام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه، الى دعاة اليمن وغيرهم، قدس الله أرواح جميع المؤمنين[١]، وقد أثبت المحقق صحة هذه السجلات بأدلة كثيرة، لا تدع مجالاً للطعن في صحة نسبتها الى المستنصر، في مقدمة الكتاب، فليراجع من أراد ذلك.

تحتوي هذه السجلات، التي كتبت في فترة طويلة نسبياً عن حكم المستنصر الفاطمي، على معلومات هامة جداً تتعلق سواء بالأحداث السياسية في العالم الاسلامي أو بأسرار الدعوة الفاطمية، وقد كتبت الى ملوك الصليحيين دعاة الفاطميين في اليمن، والهند، فيما بين سنتي ٤٤٥هـ (١٠٥٣م) و٤٨٩هـ (١٠٩٦م).

وقد ألفت نظري خاصة، السجل رقم (٥)[٢]، المؤرخ في رمضان سنة ٤٥٥هـ (١٠٦٣م) اذ يتضمن معلومات هامة جداً حول تاريخ أفريقية وعلاقتها بالخلافة الفاطمية خلال العقد الخامس من القرن الخامس هجري، وأنه يلقي أضواء ساطعة، خاصة، على هجرة الأعراب، المسماة بالغزوة الهلالية ولم أر أحداً من المؤرخين، القدماء منهم والمحدثين، استغل هذه الوثيقة لاعادة النظر في تحديد تاريخ هذا الحدث الهام، سوى اشارة عابرة لها أوردها الدكتور ابراهيم حسن في كتابه تاريخ الاسلام السياسي، كما أشار اليها باختصار شديد الدكتور عبد الهادي شعيرة في فصل نشره في الكتاب الضخم الذي يتضمن مجموعة مقالات وفصول حول تاريخ ليبيا[٣]، أما ما عداهما، فلا أعلم أن أحداً استعمل هذه الوثيقة، فيما بين يدي من المصادر على الأقل.

لذا حاولت، على ضوء هذا السجل، تحقيق ومراجعة تاريخ ثلاثة أحداث هامة، مترابطة تاريخياً وسياسياً، وقعت في أفريقية، في هذه الفترة من حكم المعز بن باديس، وحكم المستنصر الفاطمي في مصر وهي:

١ ــ استقلال المعز عن الدولة الفاطمية.
٢ ــ الغزو الهلالي.
٣ ــ وفاة المعز.

وقد عمدت في هذا التحقيق، الى المقارنة بين ما أورده المؤرخون وما أورده السجل، لذلك استندت الى هذين المصدرين:

الاول: استعراض تاريخ هذه الأحداث الثلاثة، كما أوردها المؤرخون، الذين لم يستغلوا قط، على ما أعتقد، وثائق الشيعة في أخبارهم، وتواريخهم.

الثاني: استعراض نفس الأحداث كما جاءت في سجل المستنصر، لنخرج في النهاية بفكرة

واضحة نسبياً، عن هذا الموضوع الشائك الذي تخبط فيه المؤرخون كثيراً.

المصدر الأول: استعراض الأحداث الثلاثة كما وردت في كتب المؤرخين.

١ ــ الاستقلال:

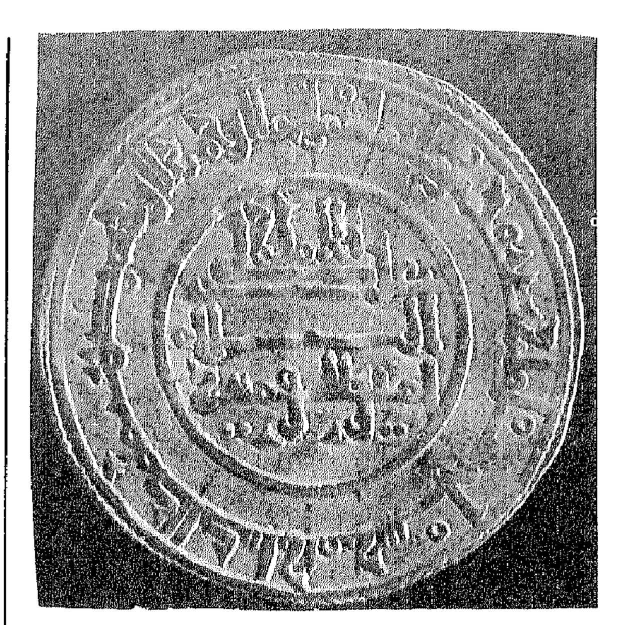
لن أتكلم عن الأسباب المختلفة التي دفعت المعز بن باديس إلى إعلان انفصاله عن الدولة الفاطمية، والرجوع بالدعوة إلى العباسيين، لأن ذلك ليس من غرض هذا التحقيق، لكنني سأناقش بعض ما أورده المؤرخون حول السنة التي وقع فيها التصريح بالاستقلال:

فابن عذارى، وابن خلدون، وابن الأثير يحددون له عام ٤٤٠ هـ، وابن تغري بردى، والمقريزي يجعلانه في ٤٤٣ هـ، ويؤيدهما في ترجيح هذا التاريخ الأستاذان مختار العبادي وابراهيم حسن، من أن وزارة اليازوري ــ الذي كان خلافه مع المعز من أسباب هذا الانفصال ــ تبدأ سنة ٤٤٢ هـ[٤]، أما عالم النميات الانكليزي ستانلي لين بول، فيحدد وقوع هذا الحدث الهام بسنة ٤٣٨ هـ، معتمداً على آخر عملة ضربت في المنصورية باسم المستنصر[٥]، واستناداً على العملة ذاتها لا يمكن قبول سنتي ٤٣٨، أو ٤٤٣ كتاريخ للاستقلال، لأني قرأت شخصياً دنانير باسم المستنصر ضربت بصبرة أيضاً سنة ٤٤٠[٦]، كما قرأت دينار المعز بن باديس الذي يعلن فيه الاستقلال ضرب بمدينة عز الإسلام والقيروان سنة ٤٤١ هـ[٧].

إذاً فإن التاريخ الصحيح للاستقلال يكون أواخر سنة ٤٤٠ هـ، أو أوائل سنة ٤٤١، وقد أيدت النقود ما ذكره ابن عذارى، نقلاً عن ابن شرف أن الأمر بلعن بني عبيد على منابر أفريقية وقع في صلاة عيد الأضحى من سنة ٤٤٠ هـ، ونقد المعز الجديد ضرب في شعبان من سنة ٤٤١ هـ[٨] وليس بينه وبين ابن ناجي الذي يقول: أن لعن بني عبيد وقع في عيدالفطر من سنة ٤٤٠ هـ، خلاف كبير[٩].

وأحدث خروج أفريقية عن سلطة الفاطميين، صدى عميقاً في طرابلس، وبرقة، فاقتدى الناس بالمعز بن باديس، فقد قام الفقيه أبوالحسن بن المنتصر بتحريض العامة على الشيعة، واشترك معهم في قتلهم، ثم قطع من الأذان عبارة «حي على خير العمل»، وأذّن أذان أهل السنة بنفسه[١٠]، أما برقة فقد كتب أميرها، مختار بن جبارة العربي، سنة ٤٤٣ هـ، إلى المعز بن باديس يبايعه بالطاعة، ويخبره بأنه وأهل برقة، أحرقوا المنابع التي كان يدعى عليها للعبيدية، وأحرقوا راياتهم، وتبرأوا منهم، ولعنوهم على منابرهم، ودعوا للقائم بأمر الله العباسي[١١]، وكان هؤلاء الأعراب متمركزين منذ القديم ببرقة لا يهابون سلطان الفاطميين، ولا الصنهاجيين[١٢]. مما يسهل عليهم الخروج مع أي ثائر.

هذا تقريباً أهم حدث وقع في أفريقية في تلك الفترة، أما في مصر فقد كانت الخلافة للمستنصر الفاطمي، والوزارة للناصر للدين أبي محمد اليازوري الذي تقلدها سنة ٤٤١ هـ، عوض أبي البركات الجرجرائي[١٣]، واليازوري هذا هو الذي أشار على المستنصر بالسماح للأعراب المستقرين شرقي النيل بالهجوم على أفريقية كعقاب للمعز على حركته الانفصالية، هذا ما يتفق عليه جل المؤرخين، عدى ابن خلدون، الذي يضيف: ان أحقاداً شخصية بين المعز، واليازوري، حملت هذا على الفتك به وبملكه إذ يشير إلى أن رتبة اليازوري كانت دون رتبة الجرجرائي، لذلك نجد المعز يستعمل في كتابته إليه ألقاباً دون ما كان يستعملها للجرجرائي قبله[١٤]، فأرسل الأعراب انتقاماً منه، أظن أن تعليل ابن خلدون غزوة الأعراب بهذه العلة، ليس جديراً بأن نعطي له نفس الاهمية التي أعطاها له صاحبه، فحتى لو كان هذا من الأسباب، وأنا أشك في ذلك فإنه لا يمكن أن يكون سبباً رئيسياً، فإن تقلد اليازوري، على ما أعتقد، للوزارة في هذه الفترة بالذات أي سنة ٤٤١ هـ، كان لمواجهة الأحداث المستجدة في الدولة، وهي أحداث جد مهمة، خاصة، مواجهة الوضع الاقتصادي الذي بدأ ينذر بالخطر بعد أن استمر هبوط مستواه أعواماً كثيرة، وقد بدأت نذر الشدة العظمى، التي ستنجم بعد ذلك، تذر بقرنها، كذلك محاولات الانفصال، التي بدأها المعز بن باديس



دينار ذهبي من عهد المرابطين (٤٤٨ ــ ٥٤٠هـ)
الخلف:
ــ الوسط: الامام عبدالله أمير ا لمؤمنين.
ــ المحيط: بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار بمرسيه سنة أربع وخمسمائة

(الصورة من كتاب Islamic coins,)

في أفريقية، وتبعته طرابلس، وبرقة، وربما تتجرّأ مناطق أخرى على الاقتداء به، فلا يمكن للجرجرائي الشيخ أن يجابه كل هذه المصائب وهو الذي وزر للحاكم، ثم للمستنصر وحده أربعة عشر عاماً، فلا بد، والظروف تلك، من تعيين وزير أقدر منه على المواجهة، والتدبير، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن مخاطبة المعز لليازوري، إن كانت، أصبحت بعد الاستقلال مخاطبة الند للند، لا مخاطبة العامل لرئيسه، كما كان مع الجرجرائي، من هنا يجب أن نفهم أن المعز، بعد أمره بلعن بني عبيد، لم يعد يعطي المنزلة التي كان يعطيها للجرجرائي، لكل الفاطميين، لا لليازوري وحده.

٢ ــ قدوم العرب:

ونتيجة لحركة الانفصال الخطيرة، سمح اليازوري للأعراب المستقرين، شرقي النيل بالعبور إلى أفريقية حسب ما يذكره المؤرخون، لكن هؤلاء كالعادة، لا يتفقون على ضبط تاريخ موحد لقدومهم، فإبراهيم حسن يذكر أن خروجهم من مصر كان في سنة ٤٤٠[١٥]، أما ابن ناجي فيضطرب اضطراباً كبيراً إذ يجعل ثلاثة تواريخ مختلفة لهزيمة المعز، وخراب القيروان، فهو يذكر أن هزيمة المعز وقعت في العشر الأوائل من شهر ذي الحجة سنة ٤٤١هـ، بينما يذكر في مكان آخر أن هزيمة المعز وخراب القيروان حدثا في اليوم الأول من رمضان سنة ٤٤٩هـ وهو يشير أيضاً في فقرة ثالثة أن ابن شرف هرب من القيروان عند اشتداد فتنة الحرب عليها سنة ٤٤٧هـ[١٦]، ويذكر ابن الأثير أن الأعراب نزلوا أفريقية سنة ٤٤٢هـ ويؤرخ دخولهم إلى القيروان بسنة ٤٤٦هـ[١٧] بينما يحدد ابن عذارى قدومهم سنة ٤٤٣هـ[١٨]، أما لامنس، في الموسوعة الإسلامية فيؤكد أنهم دخلوا أفريقية سنة ٤٤٤هـ[١٩]، ويذكر ابن خلدون أنهم احتلوا طرابلس والقيروان سنة ٤٤٦هـ[٢٠]، وهي السنة التي يحددها ابن الأثير أيضاً لاحتلال طرابلس والقيروان.

ولا يسع الباحث، أمام هذا الاضطراب الكبير الذي تخبط فيه المؤرخون، لتاريخ هذا الحدث الهام، إلا أن يعتمد كل التواريخ المذكورة، أو يرجّح تاريخاً واحداً، ويمضي في حال سبيله.

٣ ــ وفاة المعز بن باديس:

وتتالف الأحداث سريعة حادة، تخبرنا بسقوط القيروان وخلوها من سكانها، وأن المعز هرب إلى المهدية سنة ٤٤٩، وأنه توارى بها إلى أن توفي سنة ٤٥٣هـ، حسب ابن الأثير[٢١] وسنة ٤٥٤هـ، حسب جل المؤرخين[٢٢]، عدا ابن عذارى الذي يراجع نفسه في فقرة أخرى من كتابه، فيذكر نقلاً عن ابن شرف، أن وفاة المعز كانت في سنة ٤٥٥هـ[٢٣]، وبينما لا يحدد جل الذين أرخوا وفاة المعزّ بن باديس، اليوم والشهر، يذكر ابن خلدون يوم ٤ شعبان من السنة ٤٥٤هـ[٢٤]، ويذكر ابن عذارى والباجي المسعودي، أن الوفاة حدثت يوم ٢٥ شعبان من نفس السنة[٢٥].

المصدر الثاني:

هذا ما أورده المؤرخون لتاريخ تلك الأحداث الثلاثة، وهي كما نرى كثيرة الخلاف والاضطراب لا يستطيع الباحث، نظراً لذلك، أن

يعتمد عليها في اثبات تاريخ مدقق مضبوط.

لذلك فإنه يحسن بنا أن نستعرض ما ورد في المصدر الثاني، وهو سجل المستنصر إلى علي بن محمد الصليحي. المشار إليه، لمحاولة ضبط تاريخ، على ضوئه، لتلك الأحداث الثلاثة.

١ ـ الاستقلال:

لم يحدد السجل تاريخاً معيناً لاستقلال المعز بل يذكر فقط أن المستنصر أخبر الصليحي، في سجل سابق، بوقوع هذا الحادث... «وقد كان انتهى إليك من حضرة أمير المؤمنين خبر ابن باديس اللعين في التياث أموره عليه لما أصبح جسم طاعته للدولة ملتاثاً، وانتكثت مرائر سعادته لما ثبت عهدها، فكان كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً[٢٦]...» ولما كنا لا نعلم تاريخ هذه الرسالة التي أعلمه فيها بخروج ابن باديس عن الطاعة، فإننا إلى حد الآن نرجح سنة ٤٤٠ هـ سنة الاستقلال استناداً إلى العملة أولاً، وإلى المصادر التاريخية ثانياً، إلى أن نكشف ما يخالف ذلك.

٢ ـ قدوم الأعراب:

(أ) **تاريخ قدومهم**: تذكر المصادر التاريخية، كما أسلفنا، أن قدوم الأعراب إلى أفريقية، بقصد الحرب حدث بين سنتي ٤٤٢ ـ ٤٤٩ هـ لكن الوثيقة التي بين أيدينا تخالف ما أوردته المصادر التاريخية، فهي تشير إلى أن المستنصر أطلق نحو المعز قبائل زغبة ورياح في تاريخ لا يبعد عن تاريخ هذا السجل ـ (رمضان ٤٥٥ هـ) ـ ربما يكون سنة ٤٥٣، أو ٤٥٤ هـ، إذ تقول... «وأن أمير المؤمنين رماه من كنانة رأيه بنبال أصابت مقاتله، وضربه بنصال بتت مفاصله، وأطلق نحوه من أعدة قبائل الرياحية والزغبية، من منعه أن يبل ريقاً، وسد لأنفاسه طريقاً، ورمى به في أسر حصار لا يكاد يكون منه طليقاً، وملك جميع دياره التي كان بها يدل، ونال منه النيل الذي هو على وشك بواره بإذن الله تعالى يدل[٢٧]...» ودليلي على ذلك:

أولاً ـ أنه سير الأمير أمين الدولة ومكينها ـ حسن بن علي[٢٨]، بوصلهم إلى أعمال أفريقية ليؤلف بين قلوب العرب المقدم ذكرهم[٢٩]....

ثانياً ـ أن الحسن بن علي ما زال مع الأعراب يوحد كلمتهم، ويجمع شملهم ولم يعد بعد إلى مصر حتى تاريخ كتابة هذا السجل، فهو يشير صراحة أنه أرسل إلى أمير المؤمنين كتاباً يخبره فيه أنه نجح في مهمته التي أرسله من أجلها... «ولما كان في هذا الوقت ورد كتاب إلى حضرة أمير المؤمنين يذكر تصبحه في وجهته بوجه الاقبال، وفوزه في نهضته ببلوغ الآمال، وأنه لم يذر غلاً في الصدر ولا نزعه، ولا شملاً في إصلاح الجمهور إلا جمعه وأن أصناف العرب دانت له دين الأمم لربها، ودارت على قضايا أمره ونهيه دور الرحى على قطبها»[٣٠].

ثالثاً ـ لما جمع شتات الأعراب ووحد كلمتهم «سار فيهم بجيش يغص بهم البر، وجحافل كأنهم في صفحات البر والبحر».

رابعاً ـ يشير السجل إلى أن ذلك الجيش «أحدق بحصن الخائن» ابن باديس، «الذي لا يكاد من بأس الله يحصنه ولا من أخذه الأليم يؤمنه»[٣١]، ثم يذكر في فقرة لاحقة أنه فتح حصن قابس، فأي حصون الخائن يقصد؟ فإن كان يقصد العاصمة فكيف لا يذكرها صراحة وهي أعلى أمانيه، وهدف كل عملياته؟ إذ من الغريب أن يهمل ذكر سقوط القيروان، أو صبرة **أو حتى حصارهما ويشيد بفتح قابس**.

خامساً ـ ينوه باستسلام بعض أصهار المعز، وأقربائه، بقوله...« وخرج إليه (إلى الحسن بن علي) ابن بلكين صهره على أخته، وابن يلمو الذي هو متقدم قومه وابن حمّاد الذي هو أخو صاحب قلعة كتامة مستأمنين، وبعفو أمير المؤمنين لائذين، وعلى بابه ترسلا عن صنهاجة وافدين»[٣٢].

سادساً ـ يذكر أنه فتح حصن قابس، وأقام عليه الدعوة النبوية، وصرف العين والورق على السكة المستنصرية، وولى عليه ابن يلمو المذكور[٣٣].

يخبرنا السجل بكل هذه الأخبار التي استفادها بدوره من الكتاب الذي أرسله الحسن ابن علي إلى حضرة أمير المؤمنين، وأراد أمير

المؤمنين أن يرسل بها للمصليحي كي يذيعها على أنها أخبار جديدة، كما يفيدنا السجل أيضاً أن الحسن بن علي قادم من أفريقية، لم يصل بعد إلى مصر، «وهو وارد قريب المسافة، وصحبته خلق من الحجيج، يذكر أنهم لا يطئون للبدو، ولا للحضر، إلا مواطىء الطاعة موطئاً[٣٤]» كما يذكر في فقرة اخرى» واستصحب من مشائخ تلك الأعمال قوماً رغبوا في الشرف بالهجرة إلى الحضرة، والمشافهة بالشكر والدعاء لما نجاهم الله من تلك الغمرة[٣٥]»

تؤيد كل هذه النصوص ما ذهبت إليه من أن المعارك بين المعز بن باديس، والأعراب، بدأت قبل سنة ٤٥٥ هـ، تاريخ كتابة هذا السجل، بمدة وجيزة، يمكن تقديرها بالعام أو العامين، ولم تحدث أبداً قبل سنة ٤٥٠ هـ، ودليلي على ذلك:

١ ـــ أن عزل الحسن بن علي اليازوري، من الوزارة، الذي يجمع المؤرخون على وقوعه في شهر المحرم من سنة ٤٥٠ هـ، يجب أن يعاد فيه النظر، كما لا أجاري المؤرخين الذين أخبرونا أن هذا العزل وقع لأسباب فوضوية[٣٦]، فقط، بل أعتقد أن عزله، ان وقع في هذه السنة كان القصد منه التفرغ التام لاعداد الحملة ضد أفريقية، وقد استغرقت عمليات التهيئة، ولم شتات الأعراب المتفرقين، وتوجيههم نحو بدء العمليات العسكرية بحر هذه الخمس سنوات.

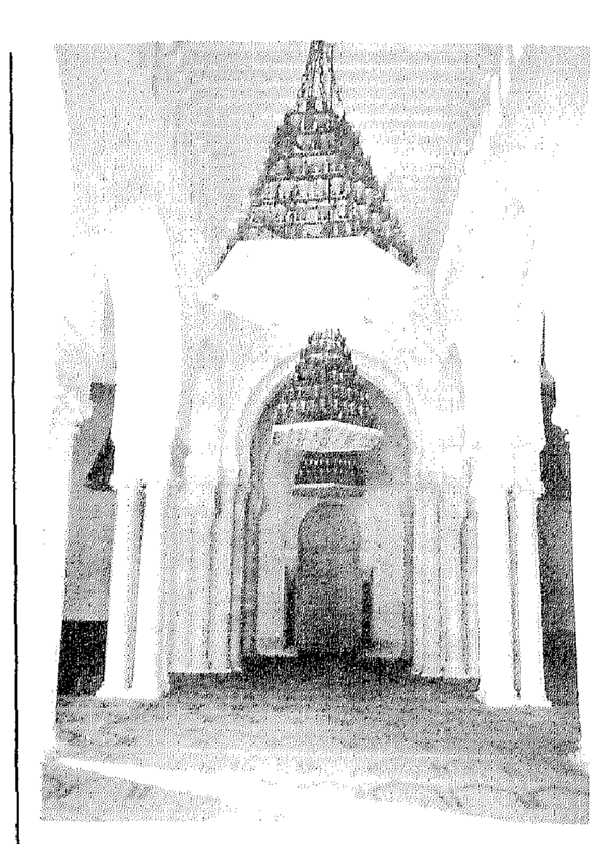
٢ ـــ لو اعتمدنا التواريخ التي حددها المؤرخون لهزيمة المعز وخراب القيروان، لكانت سنة ٤٥٠هـ النهاية لكل **العمليات** الحربية، بينما يفيدنا السجل أن اليازوري قاد أولى الحملات بنفسه، وفتح حصن قابس، وولى عليه ابن يلمو ثم قفل راجعاً إلى مصر وهو لم يصل إليها بعد حتى رمضان سنة ٤٥٥ هـ، فلو صدقنا روايات المؤرخين، لكان اخبار المستنصر للمصليحي عن سقوط قابس تمّ بعد اثني عشر عاماً من وقوعه، وبما أن اليازوري ما زال في الطريق، فإن فتح قابس حدث في تاريخ قريب جداً من سنة ٤٥٥ هـ لذا فإن ما يرويه المؤرخون من أن قابس سقطت بين أيدي الأعراب سنة ٤٤٣ هـ، لا يعتد به.

٣ ـــ اعتماداً على ذلك فإن الحوادث الكبرى كهزيمة المعز، وخراب القيروان، لم يقعا بعد حتى تاريخ كتابة السجل، فيكون حدوثهما إذاً، بعد سنة ٤٥٥ هـ، لا يمكن أن تهمل الاشادة بحدثين هامين، بينما تنوّه بمحاصرة حصون الخائن ابن باديس، بصفة عامة وفتح قابس بصفة خاصة.

وإن قال قائل ربما أخبره عن ذلك في رسائل أخرى لم تصل إلينا، فيكون جوابي، وما الفائدة في ذكر أشياء مر على حدوثها زمن طويل. فلو صدقنا روايات المؤرخين، لكانت سنة ٤٥٠ هـ، هي النهاية لكل العمليات العسكرية، كما قلت سابقاً، فيكون من المعقول أن المستنصر أخبر المصليحي به في ذلك الوقت وانتهى الأمر، لذا يكون من العبث إعادة ذكر أحداث مر على وقوعها اثني عشر عاماً، كفتح قابس، وست أو سبع سنوات كهزيمة المعز وخراب القيروان وقد احتوى كتاب الدكتور ماجد المشار إليه ثلاث سجلات كتبت في السنوات التالية، ٤٥٥ هـ و٤٤٨ هـ، و٤٥٠، أيكون من الصدف السيئة أن لا تشير ولو بحرف واحد إلى الأحداث الدائرة في أفريقية؟ كما أنه يكون من العبث أيضاً الاخبار عن إرسال الحسن بن علي للاتصال بالأعراب، ليقوموا بعمليات قد تمت، بالاضافة إلى أننا لا يمكن أن نتصور أن الحسن بن علي بقي بأفريقية اثني عشر عاماً، كذلك كيف يتكلم المستنصر على المعز باعتباره حياً، مع العلم، أنه قد توفي منذ سنة حسب روايات المؤرخين.

٤ ـــ أرجح هذا الرأي اعتماداً على العملة أيضاً فهي لا تظهر باسم المستنصر، في أفريقية، إلا في سنة ٤٥٩، فقد قرأت ديناراً ضرب في المهدية باسم المستنصر في هذه السنة[٣٧]، لذلك أعتقد أن هزيمة المعز، وخراب القيروان، وقعا في سنة ٤٥٩، أو قبلها بقليل إلا إذا أظهرت الوثائق الأثرية أو التاريخية ما يخالف ذلك.

٥ ـــ ان قتل مختار بن جباره أمير برقة من طرف المعز[٣٨]، الذي لا نعلم في أي تاريخ تم لكن النصوص تسمح لنا أن نفرض أنه حدث بعد سنة ٤٤٣ هـ، وهي السنة التي استقل فيها مختار عن حكم الفاطميين، كما أنها هي



مسجد المهدية

السنة التي يحددها المؤرخون لبداية الحرب في أفريقية ــ يقوم دليلاً آخر على خطأ التواريخ التي يحددها الاخباريون لهذه الحرب، فهل يسع المعز بن باديس الوقت والامكانيات، لتجريد حملة ضد برقة، بينما تعيش بلاده في أتون حرب ضارية؟ الحقيقة أنه لم يقتل جباره إلا لما اطمأن إلى أن حركته الانفصالية بعد بها الزمن، فلن يكون لها رد فعل من الفاطميين.

(ب) مكان الاتصال: لم يصرح السجل باسم المكان الذي وقع فيه لقاء الحسن بن علي بالأعراب، ولا نعلم من هم الزعماء الذين تحادث معهم، سوى أن يشير إلى أن المستنصر «سير أمين الدولة ومكينها، الحسن بن علي بوصلهم إلى أعمال أفريقية[٣٩]»، فهل حدث هذا الاتصال أو الوصل شرقي النيل بمصر، كما يذكر المؤرخون، أم في برقة أم في أفريقية؟ يبدو أن الجواب على هذا السؤال عسير التحقيق لأنه يرتكز على كثافة تواجد الأعراب في منطقة من هذه المناطق الثلاثة من ناحية، وعلى تأمين العمل السياسي، لجمعهم، ولم شتاتهم، وهذا، كما لا يخفى يتطلب جهداً، واتصالات، واجتماعات كثيرة متوالية من ناحية أخرى، كما أن لفظ «بوصلهم»، في الجملة المشار إليها، يعني معنيين الاتصال بهم، أو ايصالهم، فإذا كان المعنى الأول، هو الاتصال بهم في أفريقية، فيعترضنا مشكلان يصعب الجواب عنهما بدقة.

أولهما: هل كان الأعراب متواجدين في أفريقية قبل عملية الغزو التي دفعوا إليها من طرف المستنصر؟

ثانيهما: لو فرضنا أنهم كانوا بأفريقية فعلاً، فكيف جاءوا إليها من جهة، وكيف يمكن للحسن بن علي الاتصال بهم وهي أرض عدوة بالنسبة له؟ من جهة أخرى.

أما إذا فهمنا المعنى الثاني، «وهو أيضاً لهم إلى أعمال أفريقية»، فإن الأعراب، إذن يكونون مستقرين في موضع غير أفريقية، ربما يكون مصر، وربما يكون برقة، وفعلاً فإن بعض بطون هؤلاء الأعراب كانوا موزعين منذ القدم بين هذين البلدين، فمختار بن جبارة أمير برقة الآنف الذكر، لم يكن إلا زعيم قبيلة أو قبائل من هؤلاء الأعراب، المبعثرين على هذه الأرض الأفريقية، كذلك إشارات صريحة عند المؤرخين تفيد أن بعض الأعراب كانوا مستقرين ببرقة قبل بداية الأحداث، ربما هاجروا إليها منذ بدء الأزمات الاقتصادية في مصر إذ تشير بعض الوثائق التاريخية إلى أن الحالة الاقتصادية في هذا البلد بدأت تتدهور منذ سنة ٤٣٨ أو ٤٣٩ ولربما هي التي أدت إلى نزوح فروع من قبيلة سليم إلى برقة ونواحيها، ثم أرسلوا إلى بني عمهم شرقي النيل يستدعونهم، وأن قدوم هؤلاء كان مع بدء نقصان النيل سنة ٤٤٣ هـ[٤٠]، وأعتقد أن هجرتهم اشتدت في سنة ٤٤٦ هـ، عند بدء الشدة العظمى، والمظنون أنهم لم يستقروا ببرقة فقط، بل ربما تقدمت فلول منهم إلى أفريقية، إذ نجد في كتب المؤرخين أن المعز بن باديس قد قرب مؤنساً الرياحي إلى بلاطه، وزوجه ابنته، ومؤنس هذا زعيم بطن من بطون رياح.

ذكرت آنفاً أن هجرة الأعراب إلى برقة، وأفريقية ربما اشتدت عند بدء الشدة العظمى، ويحسن بي أن أختصر الكلام عن هذه الأزمة

الاقتصادية الكبرى التي وقعت في الجناح الشرقي للأمة الإسلامية، والتي وصفها المؤرخون بكثير من الرعب والهلع، لأن لها صلة عميقة بموضوعنا. فقد ذكر المقريزي أنه في سنة ٤٤٤ هـ، قصر مد النيل، فتحرك السعر بمصر[٤١]، ثم قصر أيضاً مد النيل في سنة ٤٤٦ هـ، فقوى الغلاء، وكثر الموت في الناس[٤٢]، ونتيجة لهذه النكبة «أهملت الزراعة، وانتشرت المجاعة، وانقطع ماء النيل، وعم الوباء الذي يعتبر أطول وباء عرفته مصر في العصور الوسطى، وامتد ثماني سنين (٤٤٦ ــ ٤٥٤ هـ)، ونكبت به جميع البلاد الإسلامية من مصر إلى سمرقند، ودونت عنه قصص مروعة حتى قيل أنه كان يموت بمصر كل يوم عشرة آلاف نفس، وعدمت الأقوات حتى أكل الناس» الكلاب، والقطط، ثم أكل بعضهم بعضاً[٤٣]».

هذه الشدة العظمى التي كانت تجتاح الجناح الشرقي للأمة الإسلامية، لم تشمل الجناح الغربي، على ما يبدو، فإن المؤرخين الذين تحدثوا عن هذه النكبة لم يصنفوا أقطار المغرب ضمن بلدان الأمة الإسلامية، التي عمها القحط والجوع، بل ان هذه الكوارث امتدت من مصر إلى سمرقند، بالاضافة إلى أن البكري، الذي كتب كتابه في هذه الفترة تقريباً، يشيد بالرخاء والازدهار الاقتصادي، الذي كان يعم أفريقية ومنطقة المغرب عامة، نلمس ذلك من وصفه لمختلف مدن هذا الاقليم، وتنويهه بوفرة محاصيلها الزراعية وثراء مداخيلها التجارية.

ألا يمكن، والحالة في مصر كما ذكرنا آنفاً، أن نعزو قدوم الأعراب إلى الوضع الاقتصادي السيء في ذلك البلد، وأن ندعي أنهم جاءوا فعلاً على كرات في تلك السنوات التي ذكرها المؤرخون لطلب العيش، لا لشن الحرب، وقد استقر أغلبهم في برقة، لكثرة تواجد بني عمهم فيها بينما اندفع بعضهم الآخر إلى أفريقية؟ فإذا رجحنا هذه الفرضية، يسهل علينا، عندئذ، أن نرجح أيضاً أن المستنصر، أرسل الحسن بن علي ليتصل بهم في برقة، لا في مصر، ولا في أفريقية، وأن يقوم فقط بوصلهم إلى أعمال أفريقية، وأن يفتح بهم حصن قابس في سنة ٤٥٤ هـ، أو أوائل سنة ٤٥٥ هـ، وأن يرجع إلى مصر.

أرجح أن تكون برقة نقطة الاتصال لسببين:

أولهما: كثافة الأعراب بها، نظراً لوضعها الاقتصادي الحسن، فلو سلمنا بوجود أعراب مستقرين في صعيد مصر، كما يذكر المؤرخون، فلا بد وأن يكونوا منهكين من مخلفات الشدة العظمى، لا طاقة لهم بالتحرك فكيف بالحرب، كما أنه لا يمكنه الاتصال بعرب أفريقية لقلتهم، من ناحية، ولأنها أرض عدوة بالنسبة له، لا يطمئن إلى سلامة العمل السياسي بها من ناحية أخرى، بالاضافة إلى أن الفئة القليلة التي هاجرت إلى هذا البلد، سرعان ما انصهرت في مجموع السكان على ما أعتقد، إذ وجدت الأمن والأكل، وليس أدل على ذلك من الصداقة الحميمة بين المعز بن باديس، ومؤنس الرياحي.

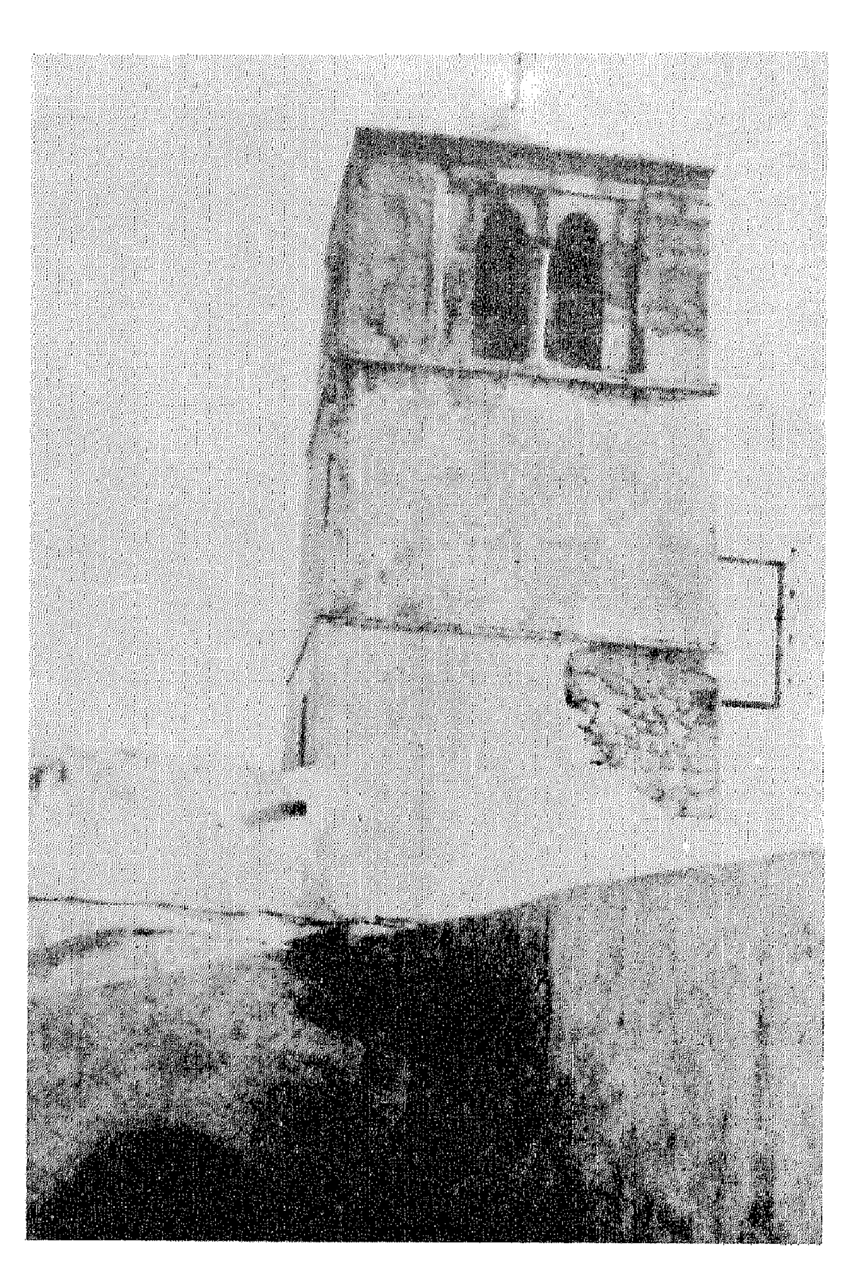
ثانيهما: إمكانية العمل السياسي ببرقة، خاصة بعد قتل مختار بن جبارة، من طرف المعز بن باديس بالذات، إذا لا يستبعد أن يستغل الحسن بن علي الأحقاد القبلية ويوجهها ضد من قتل زعيمهم، وفعلاً فقد ارتكب المعز بقتله مختاراً أفدح غلطة سياسية، إذ فتح على نفسه باباً يعسر سده فلو كان مختار حياً، لما تجرأ قائد فاطمي على الدخول إلى بلده والتحكم في الأعراب المستقرين فيه من ناحية، ولما أيد الأعراب الفاطميين نظراً لعداء زعيمهم الشديد لهم من ناحية أخرى.

٣ ــ موت المعز بن باديس:

ألهب الحسن بن علي صدور تلك الجموع المتبدية، ووضع في يدهم آلة الحرب والخراب: ووجههم إلى أفريقية، ثم قفل راجعاً إلى مصر، وقد «خلف ابن باديس اللعين محصوراً في مثفأة من الأرض، محصوراً على شفا جرف الأخذ والقبض، قد فغر الردى له فمه، ولكن يبعد بعون الله أن يلتقمه[٤٤]».

هذا ما يذكره سجل المستنصر عن المعز بن باديس، الذي لو تتبعنا المؤرخين، يكون قد انتقل إلى جوار ربه منذ سنة على الأقل بالنسبة إلى تاريخ كتابة السجل، فيتحتم إذن، أن نعيد النظر في هذا الموضوع أيضاً.

فإذا تتبعنا الأحداث، حسب الترتيب

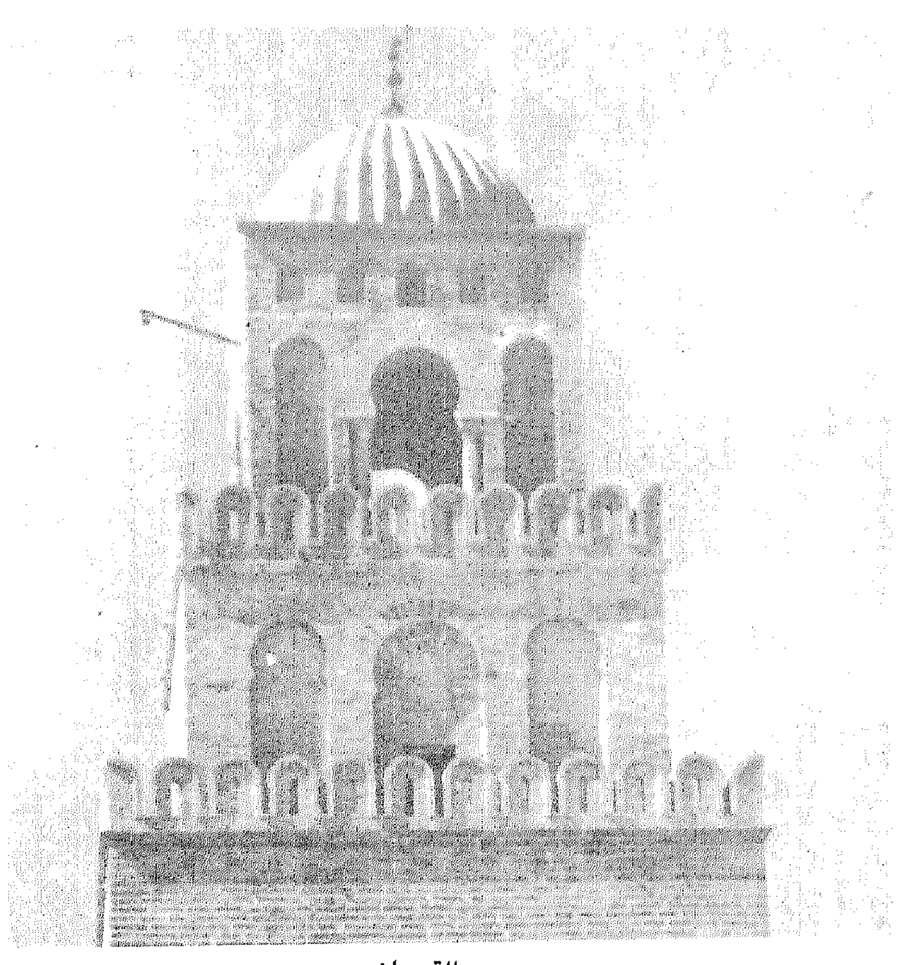


قابس
منارة مسجد
سيدي بولبابا

التاريخي، فإن موت المعز وقع بعد هزيمته أمام الأعراب، وسقوط القيروان، بمدة لا تقل عن خمس سنوات، حيث يحدد المؤرخون سنة ٤٤٩ هـ للهزيمة وسقوط القيروان وسنة ٤٥٤ هـ، للموت حسب رواية أغلبهم، لكن السجل، كما رأينا، يذكر أنه ما زال حياً، حتى رمضان من سنة ٤٥٥ هـ، وهو يوافق ما أورده ابن عذارى فقط من بين جميع المؤرخين.

فإذا قررنا، اعتماداً على نص السجل أن هزيمة المعز، وخراب القيروان، لم يقعا بعد، حتى هذا التاريخ، فإن موت المعز أيضاً يجب أن يتأخر كذلك، وإذا علمنا أن سك النقود رجع باسم المستنصر في المهدية في سنة ٤٥٩ هـ(٤٥)، فإن تاريخ هزيمة المعز، وسقوط القيروان لا يبعدان كثيراً عن هذا التاريخ، لأنه بسقوط العاصمة ينتهي كل شيء ولا يمكن أن ينتظر المحتل أربع أو خمس سنوات، ليضرب العملة، وهي أول شيء رسمي يسرع المنتصر بابرازه للعامة، ليدعم به انتصاره العسكري والسياسي فهل يخالفني المنطق التاريخي، اعتماداً على ما سبق، أن اقترح أن تلك الحوادث وقعت في سنة ٤٥٧ هـ، أو ٤٥٨؟ أرجو ذلك...

فهو لم يقم بأي فعل عسكري، لأنه لا طاقة له، وحالة مصر الاقتصادية على غاية من الانهيار،



مسجد القيروان

من كتاب **Les Moquées de Tunisie — Maison Tunisienne de l'édition**

فلما انفرجت الأمور نسبياً سنة ٤٥٤ هـ، هيأ للأمر تلك الحملة المخربة، لأن الوثائق المنشورة التي كتبت بين سنتي ٤٤٠ ـ ٤٥٥ لم تشر إطلاقاً إلى هذا الحدث، فلو كانت الحرب دائرة ـ حسب ما يدعيه المؤرخون ـ لتتبعنا، ولأشار إليها في رسائله ولو إشارات عابرة.

وقد يعترض معترض بأنه ربما قد يكون أشار إليها في سجلات ضاعت، فأجيب أنه ليس من الصدف أن تضيع كل الرسائل، خاصة، ونحن نملك حوالي ثماني رسائل كتبت ما بين سنتي ٤٤٠ هـ ـ ٤٦٠ هـ[٤٦]، فإنه ليس من المعقول أن تهمل الرسالة المؤرخة سنة ٤٤٥ هـ، سقوط قابس، الذي يزعم المؤرخون أنه وقع في سنة ٤٤٣ هـ، ولو شاءت الصدف السيئة أن تضيع، فكيف يعود إلى ذكر هذا الحدث بعد اثني عشر عاماً من وقوعه، ثم أنه ليس من المعقول لنفس السبب أن تهمل الرسالتان اللتان كتبتا سنتي ٤٤٨ هـ، و٤٥٠ هـ، ذكر هزيمة المعز، وخراب القيروان، الذي يحدده المؤرخون سنة ٤٤٧ هـ، أو ٤٤٩ هـ، بينما يُفهم من السجل الذي نتكلم عنه أن هذين الحدثين لم يقعا بعد، إذ أنه يشير إلى أن الحسن بن على أحدق فقط بحصون المعز، وأنه لن يلبث أن تسقط في يديه.

وصفوة القول فإنه لم يبق عندي مجال للشك في أن التاريخ الصحيح للحرب التي دارت بين الأعراب والمعز ابتدأت منذ سنة ٤٥٤ هـ، حينما انفرجت الشدة العظمى في هذه السنة، ولكننا أيضاً لا نجد إشارات لأحداثها في الرسائل التي كتبت بين سنتي ٤٥٥ ـ ٤٦٠ هـ، لعل ذلك يعود إلى أن القحط والجوع والأوبئة، عاودت مصر من جديد منذ سنة ٤٥٦ إلى سنة ٤٦٠ هـ أو ٤٦١، فانصرف المستنصر عن تتبع أحداث أفريقية، منشغلاً بمشاكله الداخلية.

والخلاصة، هل يمكننا، اعتماداً على ماسبق، أن نرفض ما أورده المؤرخون من تواريخ لتلك الأحداث الثلاثة، وأن نؤخر ذلك عشر سنوات على الأقل، فندعي:

١ ــ أن الاستقلال حدث سنة ٤٤٠ ــ ٤٤١ اعتماداً على العملة.

٢ ــ هجوم الأعراب العسكري وقع سنة ٤٥٣ ــ ٤٥٤ هـ، بعد الانفراج النسبي للشدة العظمى بينما قدمت مجموعات منهم قبل ذلك لطلب الأكل لا للحرب.

٣ ــ أن هزيمة المعز، وخراب القيروان وقعا في سنة ٤٥٧ هـ، أو ٤٥٨ هـ، لأن العملة رجعت باسم المستنصر سنة ٤٥٩ هـ، بمعنى أن النفوذ الفاطمي رجع إلى أفريقية بعد تسعة عشر عاماً من القطيعة، كما أن موت المعز يمكن أن يكون في هذه السنة، إذا راعينا الترتيب التاريخي، لأني لا أعتقد أن تضرب العملة باسم المستنصر في المهدية، والمعز على قيد الحياة.

●

(السجل رقم ٥)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين.

من عبدالله ووليه: معدّ أبي تميم، الإمام المستنصر بالله، أمير المؤمنين، إلى سيف الإمام، المظفّر في الدين، نظام المؤمنين، عليّ بن محمد الصليحي.

سلام عليك، فإنّ أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو، ويسأله أن يصلي على جده محمّد، خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وعلى آله الطاهرين، ويسلم تسليماً(١).

أمّا بعد: فالحمد لله الذي أرسل سماء جوده على ساحات أمير المؤمنين مدراراً، وجعل فلكها يتضاعف عزّة وإقباله دوّاراً، وملائكتها أعواناً لنصره وأنصاراً، المنتقم من كل عدوّ وَلَدَ فاجراً كفاراً، الهاتك ستره وقد هتك لحرمة الصنيعة عنده أستاراً، المدير دائرة السوء عليه أن اتخذ دار البغى على مصطنعه داراً، وسالبه النعمة إن لم يحسن (...) للمنعم عليه جِواراً، ذلكم الله لا إله غيره الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً.

يحمده أمير المؤمنين إلهاً واحداً قهاراً، ويشكر له جزيل نعمه إعلاناً وإسراراً، ويسأله أن يصلي على جدّه الذي بعثه من بين الأنام مختاراً، محمد الداعي إلى الحقّ إعذاراً وإنذاراً، الواضع بهدايته عن الخلق أغلالاً وآصاراً، وعلى وصيّه في أمته السامي مناراً، وسيف نبوته الماضي غراراً ــ عليّ بن أبي طالب ــ العالي شرفاً ومقداراً، وعلى الأئمة من ذريته الحامين جاراً، الزّاكين نجاراً، الذين جعلهم الله لمساجده عُماراً، وبلطائف هممهم في ملكوت السماء سُفّاراً، وقد كان إنتهى إليك من حضرة أمير المؤمنين خبر ابن باديس اللعين في التياث أموره عليه لما أصبح جسم طاعته للدولة ملتاثاً، وإنتكاث مرائر سعادته لما ثبت عهدها؛ فكان كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً، وأن أمير المؤمنين رماه من كنانة رأيه بنبال أصابت مقاتله، وضربه بنصال بتّت مفاصله، وأطلق نحوه من أعنة قبائل الرياحية والزغبية من منعه أن يبل ريقاً، وسدّ لأنفاسه طريقاً، ورمي به في أسر حصار لا يكاد يكون منه طليقاً، وملك جميع دياره التي كان بها يُدِل، ونال منه النَّيلُ الذي هو على وشك بواره بإذن الله تعالى يُذَلّ،وسيّـر الأمير، أمين الدولة ومكينها ــ حسن بن عليّ ــ بوصلهم(٢) إلى أعمال أفريقية ليؤلّف بين قلوب العرب المقدّم ذكرهم على الطاعة تأليفاً يذعن له جموحهم، ويمنعهم من أن يتنازعوا فيفشلوا وتذهب ريحهم، ولتكون كلمتهم على استئصال الكفر للنعمة متّفقة، وآراؤهم فيما يؤدي إلى كشف الغمّة بمكانه موفقة، ولما كان في هذا الوقت ورد كتاب إلى حضرة أمير المؤمنين يذكر تصبحهُ في وجهه بوجه الإقبال، وفوزه في نهضته ببلوغ الآمال، وأنه لم يذَر غِلّاً في الصدور الا نزعه، ولا شملاً من صلاح الجمهور إلا جمعه، وأن أصناف العرب دانت له دَيْن الأمم لربها، ودارت على قضايا أمره ونهيه دور الرحى على قطبها، وأنّه سار فيهم بجيش يغص بهم البر، وجحافل كأنهم في صفحات

البر، البحر، وبنود أمير المؤمنين ظللت على رأسه من النصر غماماً، وطلعة أعلامه أرته من طوالع السعد أعلاماً، حتى أحدقوا بحصن الخائن الذي لا يكاد من بأس الله يحصنه، ولا من أخذه الأليم يؤمّنه، فأطل عليهم إطلال من يجد قلبه من وقع سيف المنايا رجيفا، ومن وقوع سهامها حفيفاً، وخرج إليه ابن بُلكين صهره على أخته، وابن يلمو الذي هو مقدم قومه، وابن حمّاد الذي هو أخو صاحب قلعة كِتّامة(٣) مستأمنين، ويعفو أمير المؤمنين لائذين، وعلى بابه ترسلاً في مثله عن صهاجه وافدين، ثم فتح حصن قابس(٤) وأقام على منابره الدعوة النبوية، وصرف العين والورق على السكّة المنتصرية، وولى عليه ابن يلمو المذكور، وسار بالباقين إلى الباب، وأنّه لم يبق في حصون البحر، وضواحي البر، إلا ما ألقى الله إلى أمير المـؤمنـين مقـاليـده؛ ومكّن منه أنصاره وعبيده، وأطلع فيه من سعادة النـداء بشعاره نجـوماً، جعلهـا للشياطين رُجـوماً، واستصحب من مشايخ تلك الأعمال قوماً رغبوا في الشرف بالهجرة إلى الحضرة، والمشافهة بالشكر والدعاء لما نجاهم الله تعالى منه من الغمرة، وكشف عن وجوههم بإضلال ذلك الخائن من الحيْرة، والتماس تدبير أمورهم ممّا يؤذن بتمام صلاحها بعد أن كساهم الله برحمته رونقاً، ونفى عن مشاربهم بحمد الله رنقاً، فديارهم بالمسارّ مشمولة، وعراصهم بالتهاني مأهولة، وهو وارد قريب المسافة وصحبته خلق من الحجيج، يذكر أنّهم لا يطئون للبدو والحضر إلّا موطىء الطاعة موطئاً، ولا يصادقون [إلا] مذعناً لها ولصفقته(٥) معطياً، وأنّة خلّف ابن باديس اللعين محصوراً في مثفاة(٦) من الأرض، محصولاً على شفا جُرُف الأخذ والقبض، قد فغر الرّدى له فمه، ولن يبعد بعون الله أن يلتقمه، وأمير المؤمنين يسأل الله جلّت عظمته معونته، على شكر نعمه التي هو عن القيام بواجب أقلّها محصور، ولسانه عن الوفاء بأيسره مقصور، ويقول: لله الذي أذهَبَ عنّا الحَزَنَ إنّ ربنا لغفورٌ شَكُورٌ.

أعلمك أمير المؤمنين نبأ هذه العارفة الطارفة لتنشره على المنابر، وتُذيعه في البوادي والحواضر، إن شاء الله تعالى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتب في شهر رمضان سنة خمس وخمسين وأربعمائة.

والحمد لله وحده، وصلىّ الله على المصطفى محمد خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وعلى آله الطاهرين المهديين، وسلم تسليماً، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ونعم المولى، ونعم النصير.

---

(١) في الأصل: وليعمل إن شاء الله، وأمامها علامات خطأ؛ كأنه يريد حذفها من النص.

(٢) يخطىء الهمداني في قراءة الاسم، فيقرأه: حسن بن علّي بن ملهم، وأكبر الظن أن الاسم هو حسن بن علّي، وأن الكلمة التالية ليست ابن ملهم وإنما بوصلهم.
أنظر: The Letters (B.S.O.S).VII, 1933-1935

(٣) في الأصل. كيانه.

(٤) في الأصل، فاس، في الواقع، لم يصل الفاطميون إلى فاس في مراكش، ولكن نشاطهم بقى في أفريقية، أي تونس الحالية.

(٥) في القاموس: «صفق يده بالبيعة»، أي وضع يده في يد الخليفة، ويريد أن يقول: إن هؤلاء الأشخاص دانوا بالطاعة للخليفة.

(٦) المثفاة هي المنفى.

الهوامش

(١) ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي

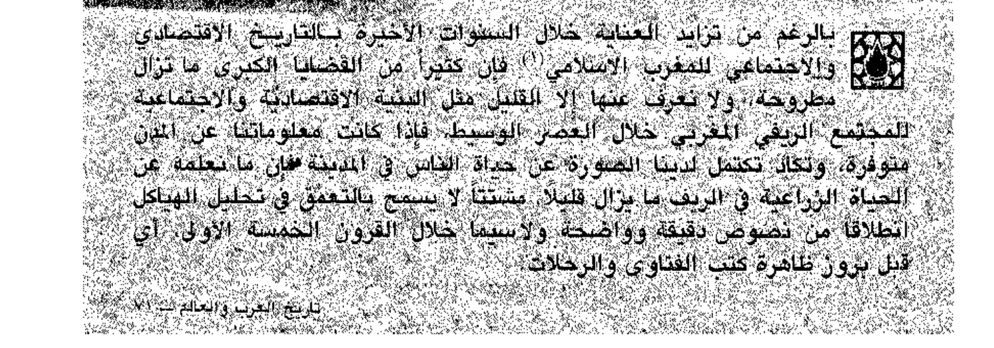
(٢) نسخة منه مصاحبة لهذا البحث.

(٣) ابراهيم حسن تاريخ الاسلام السياسي، ج ٤، ص ٣٤٩ وأنظر أيضاً: ليبيا في التاريخ ص ٢٣٩.

(٤) تاريخ المغرب الكبير، ج ٢، ص ٦٦١ ابراهيم حسن ــ تاريخ الإسلام ج ٣، ص ١٥٥.

(٦) أنظر كتابي: النقود العربية في تونس: أرقام: ٢٤٨، ٢٨٥، ٢٨٦، ص ١٢٧، ١٢٨ ط البنك المركزي تونس.
(٧) نفس المصدر ص رقم ٣٠٣، ص ١٣٣.
(٨) ابن عذارى: البيان ١ ص ١٧٧ ـــ ٢٧٨.
(٩) المعالم: ج ٣ ص ٢٤٣ ـــ (ترجمة أبي عبدالله محمد الكوفي).
(١٠) المغرب الكبير: ج ٢، ص ٦٦٤.
(١١) ابن عذارى: البيان: ص ٤١٦.
(١٢) ابن عذارى: البيان: ص ٣٧٥ ـــ تاريخ المغرب الكبير، ج ٢، ص ٦٥٧.
(١٣) المقريزي: أتعاظ: ص ٢٧٩.
(١٤) ابن خلدون: التاريخ، ج ٤، ص ١٣١ ط بيروت.
(١٥) ابراهيم حسن: المصدر السابق، ج ٤ ـــ ص ٢٢٩.
(١٦) المعالم: ج ٣ ـــ ص ٢٢٨، ٢٣٦، ٢٣٩.
(١٧) الكامل: ج ٨ ـــ ص ٥٥، ٥٦.
(١٨) البيان: ج، ص ٢٨٨، أنظر أيضاً كتاب المغرب الكبير ج ٢، ص ٦٨٨.
(١٩) encyclopedie de l'Islam t. IV p. 1300
(٢٠) ابن خلدون: التاريخ، ج ٤، ص ١٣٢.
(٢١) الكامل: ج ٨، ص ٢١ ـــ حوادث ٤٥٣ هـ.
(٢٢) ابن خلكان: الوفيات ج ٤ ص ٣٢٢، الخلاصة النقية للباجي المسعودي ص ٤٧، أعمال الاعلام ٣ ص ٧٤ البيان المغرب، ٢٩٨ ـــ الاعلام للزركلي ج ٨، ص ١٨٦ ـــ الموسوعة الاسلامية، فصل (بنوزيري) ج ص ١٢٩٩.
(٢٣) البيان، ص ٢٩٥ ـــ ٢٣ ابن خلكان: الوفيات ج ٤، ص ٣٢٢.
(٢٤) ابن خلكان: نفس المصدر.
(٢٥) البيان، ص ٢ ـــ الخلاصة النقية، ص ٤٧.
(٢٦) السجلات المستنصرية، السجل رقم ٥ ـــ ص ٤٣.
(٢٧) السجل رقم ٥، ص ٤٣.
(٢٨) إذا كان المقصود بالحسن بن علي هو أبو الحسن بن علي بن عبدالرحمن اليازوري، الذي وزر للمستنصر بدل الجرجرائي، المحرم من سنة ٤٤٢ هـ، إلى المحرم ٤٥٠، حيث عزل أو قتل على خلاف بين المؤرخين فإن السجل يجعلنا نتجه إلى احتمالين الأول: إعادة النظر في أسباب عزل اليازوري، ولا يمكن قبول رأي من أدعى أنه قتل (ابراهيم حسن بتاريخ الدولة الفاطمية ص ١٧١) الثاني: أنه عزل قصداً سنة ٤٥٠، من أجل تكليفه بمهمة السفر للاتصال بالأعراب والتوفيق بينهم وإرسالهم إلى أفريقية. وإذا كان المقصود رجل آخر فإني لا أعلم عنه شيئاً لكني أرجح أن اليازوري نفسه هو الذي اضطلع بالمهمة، لأننا لا نعلم غيره تسمى بهذا الاسم، ونال تلك الألقاب في هذه الفترة.
(٢٩) السجل رقم ٥، ص ٤٣ ـــ ٤٤.
(٣٠) السجل رقم ٥، ص ٤٣ ـــ ٤٤.
(٣١) السجل، ص ٤٤.
(٣٢) السجل، ص ٤٤.
(٣٣) السجل، ص ٤٤ أنظر أيضاً الكبرى ص ١٨ حيث يذكر قصة مفادها، أن ابن وانمو صاحب قابس.
(٣٤) السجل ص ٤٤ ـــ ٤٥.
(٣٥) السجل ص ٤٥.
(٣٦) ابراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٧١.
(٣٧) سجل النقود العربية في تونس ـــ رقم ٢٨١ ـــ ص ١٢٦.
(٣٨) المغرب الكبير، ج ٢، ص ٦٦٧.
(٣٩) السجل: ص ٤٣ ـــ ٤٤.
(٤٠) المغرب العربي، ج ٢ ـــ ص ٦٦٨.
(٤١) المقريزي: أتعاظ ص ٢٧٩.
(٤٢) المقريزي: أتعاظ ص ٢٨٠.
(٤٣) ابراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٧١.
(٤٤) السجل ص ٤٥.
(٤٥) النقود العربية في تونس رقم ٢٨١ ـــ ص ١٢٦.
(٤٦) وهي تحمل الأرقام الآتية: ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٧، ٢١، ٣١.

الصور من كتاب Lumières de Tunisie cérès productions



نظام ملكية الأرض في تونس والمغرب العربي

القرن الأول ـ القرن السادس هجري

د. الحبيب الجنحاني
استاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية
بالجامعة التونسية

بالرغم من تزايد العناية خلال السنوات الأخيرة بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الاسلامي [1] فإن كثيراً من القضايا الكبرى ما تزال مطروحة، ولا نعرف عنها إلا القليل مثل البنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الريفي المغربي خلال العصر الوسيط. فإذا كانت معلوماتنا عن المدن متوفرة، وتكاد تكتمل لدينا الصورة عن حياة الناس في المدينة فإن ما نعلمه عن الحياة الزراعية في الريف ما يزال قليلاً مشتتاً لا يسمح بالتعمق في تحليل الهياكل انطلاقا من نصوص دقيقة وواضحة ولاسيما خلال القرون الخمسة الأولى، أي قبل بروز ظاهرة كتب الفتاوى والرحلات

أن المشكلة الأولى التي تعترض سبيلنا في محاولة التعرف إلى الهياكل الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الزراعي المغربي هي نظام ملكية الأرض، فإذا كانت كتب الجغرافيين العرب(٢) تمدنا ببعض المعلومات عن المناخ، وعن الموارد المائية، وعن زراعة البستنة في الواحات وفي ضواحي بعض المدن(٣)، وعن أنواع الزراعات، وعن تربية الماشية، فإنها لا تفيدنا شيئاً ذا شأن عن نوع ملكية الأرض، وأوجه انتقالها، وأساليب استغلالها.

وأود في هذا الصدد الاشارة إلى الملاحظات الأساسية التالية:

أولاً: تهدف هذه المحاولة إلى معرفة الواقع التاريخي لهذا الجانب الخطير من جوانب الحياة الاقتصادية في المغرب الإسلامي الوسيطي، وهو واقع قد تجاوز نظرية الإسلام في ملكية الأراضي، فإنه من المعروف أن الدول الإسلامية التي قامت في المشرق والمغرب معاً لم تحترم ـ في أغلب الأحايين ـ المبادىء التي طبقت على الأراضي المفتوحة في العصر الراشدي، وهي التي حاول العودة إليها الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز فيما أدخله من تغيير على الملكية الزراعية وعلى النظام الجبائي الأموي(٤)، وقد مسّ التجاوز المذكور نظام ملكية الأرض، وخاصة أرض الصوافي من جهة، والضرائب الموظفة على انتاج الأرض من جهة أخرى.

ونبادر إلى القول هنا بأن المعلومات النظرية معروفة ومصادرها متوفّرة(٥)، ولكنّها لا تعكس الواقع التاريخي وتطوره واختلافه من منطقة إلى أخرى.

ثانياً: وتتبدّل الصورة في بلاد المغرب ابتداء من القرن السادس الهجري حيث تمدنا كتب الفتاوى بمعلومات دقيقة عن أساليب ملكية الأرض في كثير من المناطق المغربية، وإذا كان المتتبّع يقف على إشارات في هذا المجال هنا وهناك في كتب التاريخ والطبقات تتصل بفترة بروز دول مغربية مستقلة عن مركز الخلافة ابتداء من نهاية القرن الثاني للهجرة فإنها أندر من الكبريت الأحمر خلال عصر الولاة (أعني خلال القرنين الأول والثاني).

ونلمس في هذا الصدد فرقاً واضحاً في هذا المجال بين المشرق والمغرب؛ فهنالك معلومات دقيقة عن ملكية الأرض في العراق، ولا سيما في أراضي السواد وفي بلاد الشام(٦)، وفي مصر أيضاً فابن عبد الحكيم يسهب في الحديث عن خراج مصر، وعن أساليب جبايته في صدر الإسلام، ويحدثنا عن القطائع، وعن أصحابها(٧).

ثالثاً: إنني أميل إلى الاعتقاد بأن للخصائص الجغرافية لبلاد المغرب(٨) ولميزاتها الديمغرافية تأثيراً عميقاً في اكتساب نظام ملكية الأرض في المغرب سمات تميّزه عن كثير من المناطق الأخرى للمجتمع العربي الإسلامي.

رابعاً: إن معرفة أساليب ملكية الأرض وخصائص البنية الاقتصادية الاجتماعية للريف والعلاقة بينه وبين المدينة أمر أساسي وضروري لمعرفة أساليب العيش، وأنماط الانتاج، والنمط السائد بينها.

إن الجهد التنظيري في تحليل البنى الاقتصادية والاجتماعية والحديث عن النمط (الآسيوي للانتاج)(٩)، وعن نوعية (الاقطاع) المغربي وعن (نمط الانتاج الرعوي) وغيرها من المفاهيم التي ما تزال في حاجة ملحة إلى التوضيح والتدقيق بالنسبة للتاريخ الإسلامي عامة، يبقى محدوداً طاغياً عليه الطابع النظري التخميني ما لم تدعمه أبحاث تاريخية وجغرافية اجتماعية تنطلق أساساً من النصوص، ومن قراءة جديدة لها ومن نتائج الحفريات، ومن دراسة علمية للعملة، ومن كشف دقيق عن الموارد المائية.

وقد أكدت كثيراً على دور التجارة الكبرى فيما عرفه المغرب الإسلامي الوسيطي من تطور عمراني كبير(١٠) ولكنني بالرغم من ذلك لا أتفق مع الأستاذ سمير أمين في كتابه (الأمة العربية)(١١) فيما ذهب إليه من تقليص دور الفلاحة وحصر أسباب الازدهار العمراني في التجارة الكبرى. إن المجتمع المغربي الوسيطي يبقى مجتمعاً زراعياً أولاً بالذات رغم ما عرفه من شبكة مسالك نشطة، ومن مدن مزدهرة تجارياً كان لها أثر فعال في الدورة التجارية العالمية عصرئذ، وذلك بفضل ربطها بين



واجهتين تجارتين ـ حسّاستين: الواجهة البحرية والواجهة الصحراوية، ومدّ حركة التبادل التجاري الدولي ببضاعتين ثمينتين من بضائع العصر: الذهب والرّقيق.

ونعتقد أن تطور التجارة البعيدة المدى قد ساهم في تطور الفلاحة حيث أصبحت كثير من المنتوجات الزراعية تحتل مكاناً بارزاً في قائمة البضائع المتبادلة، وقد أدّى ارتفاع ثمن بعض هذه المنتوجات إلى العناية بها، وتطوير الأساليب الزراعية لانتاجها مثل زراعة القمح في واحة سجلماسة فهو بضاعة ثمينة في تبادلها التجاري مع بلاد السودان فاعتنى السجلماسيون بالزراعة السقوية في البساتين المقامة على الوادي. ويشبه ابن حوقل زراعتهم السقوية بزراعة المصريين على ضفتي النيل قائلاً: (ويزرع بمائه حسب زروع مصر في الفلاحة وربما زرعوا سنة عن بذر وحصدوا ما راع من زرعه وتواترت السنون بالمياه فكلما أغدقت تلك الأرض سنة في عقب أخرى حصدوه إلى سبع سنين بسنبل لا يشبه سنبل الحنطة ولا الشعير بحب حلي المكسر، لذيذ المطعم، وخلقه ما بين القمح والشعير)(١٢). ويسمي البكري هذا القمح بالصيني، ويسع مدّ النبي (ص) منه خمسة وسبعين ألف حبة.

إن هذه الاشارات تدل على عناية خاصة بتطوير هذه الزراعة وهي عناية تتجاوز في رأينا تلبية الحاجات الاستهلاكية لسكان الواحة بل تكمن وراءها أهمية هذا الانتاج الفلاحي في العلاقات التجارية بين المغرب وبلاد السودان ونجد مثالاً آخر يوضّح مدى ارتباط الازدهار التجاري، وبروز فئات إجتماعية ثرية متخصصة في التجارة الكبرى وبمحاولة تطوير الزراعة وتسديد حاجات استهلاكية جديدة رغم صعوبة المناخ الجغرافي في مدينة تجارية صحراوية مثل مدينة أودغست(١٣) فقد استفاد مزارعوها من تجربة واحة تافيلالت واعتنوا بزراعة القمح السقوي لما يدره من أرباح نظراً لندرة البضاعة في مدينة تسكنها فئات التجار الأثرياء، يقول البكري «وهي مدينة كبيرة آهلة رملية يطل عليها جبل كبير موات لا ينبت شيئاً... وحولها بساتين النخل، ويزرع فيها القمح بالفؤوس ويسقى بالدلاء يأكله ملوكهم وأهل اليسار منهم، وسائر أهلها يأكلون الذرة»(١٤).

ويتحدّث أبو العباس الناصري السلاوي عن النمط المعيشي لقبائل الملثمين وقد كان موطنهم أرض الصحراء والرمال الجنوبية فيما بين بلاد المغرب وبلاد السودان فيقول: «وفيهم قوم لا يعرفون حرثاً ولا زرعاً ولا فاكهة وإنما أموالهم الأنعام وعيشهم اللحم واللبن، يقيم أحدهم عمره لا يأكل خبزاً إلّا أن يمر ببلادهم التجار فيتحفونهم بالخبز والدقيق»[١٥].

وقد عرفت الزراعات المتخصصة تطوراً كبيراً نتيجة ازدهار الحركة التجارية مثل زراعة قصب السكر في منطقة قرية تارودانت ببلاد السوس الأقصى، «وهي اكثر بلاد الله قصب سكر وفيها معاصر السكر كثيرة... ومنها يجلب السكر إلى جميع بلاد المغرب والأندلس وأفريقية»[١٦].

إنه بالرغم من تأثير التجارة الكبرى في ميادين فلاحية معينة فقد بقي هذا التأثير محدوداً ولم يساهم رأس المال التجاري مساهمة ذات أثر في تقدم الزراعة وتطور المجتمع الريفي المغربي، ولا تقدم لنا النصوص المعروفة معلومات عن استثمار أرباح التجارة الكبرى في شراء الأراضي واستصلاحها في المغرب كما كان الشأن بالنسبة للعراق مثلاً[١٧].

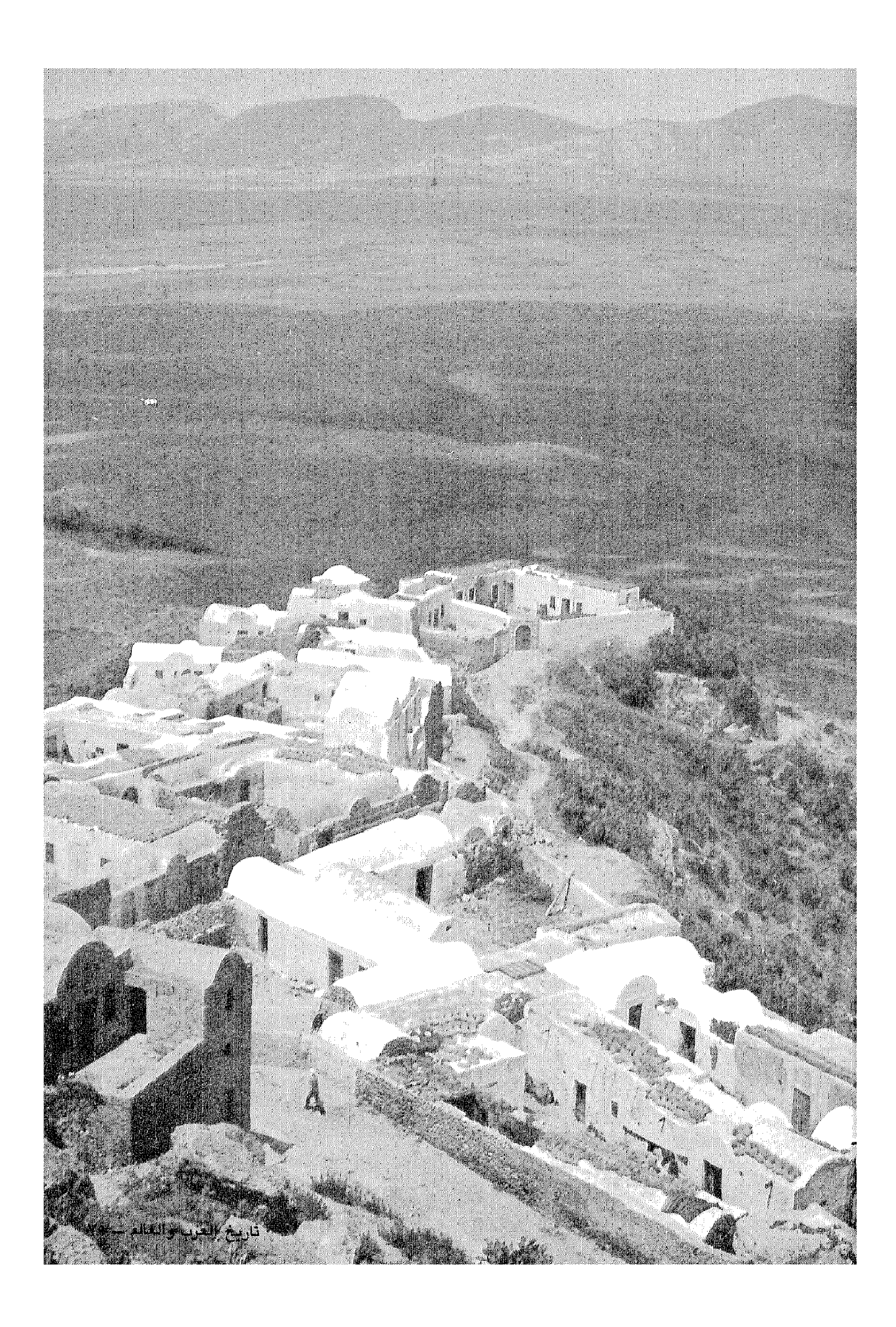
خامساً: ولا بد من الاشارة هنا إلى أن مشكلة المفاهيم المتصلة بالملكية الزراعية في البلاد المفتوحة مثل الفيء والغنيمة والجزية والخراج والضياع والاقطاع والحماية، ونظم الجباية الموظفة على إنتاج الأرض ما تزال مطروحة رغم ما كتب عنها قديماً وحديثاً[١٨]، فهي مفاهيم قد تطورت حسب واقع اقتصادي ــ واجتماعي معين، واختلفت من منطقة جغرافية إلى أخرى لأسباب متنوعة، فما نعرفه من تنظيم لشؤون الجزية والخراج في صدر الإسلام في مناطق مثل العراق ومصر يبقى غامضاً في بلاد المغرب، وأنواع الإقطاع الذي عرفته الخلافة العباسية ابتداء من القرن الرابع الهجري[١٩] لا نجد له أثراً واضحاً في المغرب، ومن هنا جاء تلميحنا إلى دور الخصائص الجغرافية لبلاد المغرب وميزاتها الديمغرافية في تفرّد نظام ملكية الأرض في المغرب العربي الإسلامي بسمات خاصة.

وبعد هذه الملاحظات العامة التمهيدية أعود إلى مشكلة ملكية الأرض في المغرب وما عرفته من تحول خلال الفترة التي ندرسها هنا أي من القرن الأول إلى سقوط الدولة المرابطية (٥٤٠هـ/ ٤٧ ــ ١١٤٦م) لطرح السؤال التالي:

كيف كانت سياسة الدولة الإسلامية في المغرب بعد الفتح وبعد اتخاذ قرارالاستقرار، وتأسيس القيروان لتكون مصراً جديداً للعرب الفاتحين على غرار أمصار المشرق مثل الكوفة، والبصرة والفسطاط.

إن العرب المسلمين قد انتهجوا ــ دون ريب في الفترة الأولى ــ نفس السياسة التي انتهجوها في العراق، وفي بلاد الشام، وخاصة في مصر حيث كان المغرب تابعاً لولاية مصر[٢٠]، وقد شارك في فتحه كثير من العرب المسلمين المقيمين في الفسطاط «وكان الناس قبل أبي المهاجر يغزون إفريقية ثم يقفلون إلى الفسطاط»[٢١].

والقضية الأولى التي تعترض سبيلنا في المستوى النظري هي: هل فتحت افريقية عنوة أو صلحاً، وهي القضية الكلاسيكية التي واجهت الفقهاء والمؤرخين في فتح العراق وبلاد الشام، ومصر[٢٢] نقل عبدالله بن أبي زيد في كتابه (النوادر والزيادات على المدونة) عن سحنون، قال: كشفت عن أرض إفريقية فلم أقف هنا على حقيقة، هل هي عنوة أو صلح، وسألت عن ذلك علي بن زياد فقال: (لم يصح عندي فيها شيء). وأما بلاد المصامدة وأرض مراكش قال ابن عبدالحليم اتفق أشياخ بلادنا من أهل العلم أنها أسلم عليها أربابها وليس فيها صلح ولا عنوة وقال عن أبي الأصبغ القرشي: أدركنا أهل الفقه والورع في بلاد الأندلس يشترون الأرض فيها ويبيعون ونحن متبعون لهم وأنتم متبعون أسلافكم في مغربكم[٢٣]، وهناك رواية أخرى تشير إلى أن البلاد المغربية لم تجر في الافتتاح على قانون، بل منها ما افتتح عنوة، ومنها ما افتتح صلحاً. ونقف في تتبعنا للنصوص القديمة حول هذه النقطة على مفهوم جديد (أسلم عليها أهلها) وهي ما تعنيه عبارة «المعيار» للونشريسي «وأما بلاد أفريقية ــ وهي معظم المغرب ــ ففيها بلاد ليست بصلحية ولا عنوية»[٢٤]، ويخبرنا صاحب الاستقصاء أن



أحد عمال المنصور بن أبي عامر صاحب الأندلس حين تغلب على أرض فاس قال لهم: «أخبروني عن أرضكم أصلح هي أم عنوة؟ فقالوا له لا جواب لنا حتى يأتي الفقيه يعنون أبا جيدة، فجاء الشيخ المذكور فسأله العامل فقال: ليست بصلح ولا عنوة إنما أسلم عليها أهلها فقال: خلصكم الرجل»(٢٥).

وقبل الحديث عن وضع الملكية في بلاد المغرب خلال القرن الأول أود التذكير بالسياسة التي اتبعها المسلمون في مصر في هذا الميدان ايماناً منا بأن جوانب كثيرة من هذه السياسة قد طبقت في المغرب نظراً لارتباطه بمصر في هذه الفترة ارتباطاً وثيقاً. فقد سعى العرب الفاتحون أن يتم فتح مصر صلحاً لتكون لهم فيئاً وغنيمة؛ فلما عرض المقوقس على عمرو بن العاص التفاوض في صيغة الصلح «فاستشار عمرو أصحابه في ذلك فقالوا لا نجيبهم إلى شيء من الصلح والجزية حتى يفتح الله علينا، وتصير الأرض كلها لنا فيئاً وغنيمة كما صار لنا القصر وما فيه»(٢٦). وبالرغم من فتحها صلحاً على أرجح الروايات فقد ألح كبار الصحابة على عمرو بن العاص بقسمة الأرض فقد روى عن ابن أبي بردة يقول: «سمعت سفيان بن وهب الخولاني يقول إنا لما فتحنا مصر عهد قام الزبير بن العوام فقال أقسمها يا عمرو بن العاص فقال عمرو والله لا أقسمها قال الزبير والله لتقسمنّها كما قسم رسول الله (ص)خيبر. قال عمرو والله لا أقسمها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين فكتب إليه عمر أقرها حتى يغزو منها حبل الحبلة»(٢٧)، ولكن الخليفة عمر بن الخطاب إتبع نفس السياسة التي اتبعها في أرض السواد، وفي بلاد الشام حتى في المناطق المصرية التي فتحت عنوة مثل الاسكندرية والقرى الثلاثة التي ظاهر أهلها الروم على المسلمين «فلما ظهر عليهم المسلمون واستحلوهم، وقالوا هؤلاء لنا فيء مع الاسكندرية فكتب عمرو بن العاص بذلك إلى عمر بن الخطاب فكتب إليه عمر بن الخطاب أن تجعل الاسكندرية وهؤلاء الثلاث قريات ذمة المسلمين، ويضربون عليهم الخراج ويكون خراجهم، وما صالح عليه القبط قوة للمسلمين على عدوهم ولا يجعلون فيئاً ولا عبيداً ففعلوا ذلك»(٢٨).

وبعد تأسيس الفسطاط وزعت الخطط على القبائل المشاركة في الفتح لبناء الدور، «واختط حول عمرو والمسجد قريش والأنصار وأسلم وغفار وجهينة، ومن كان في الراية ممن لم يكن لعشيرته في الفتح عدد مع عمرو»(٢٩)، وتواصلت بعد ذلك حركة الخطط، واستحبت همدان ومن والاها الجيزة دون الفسطاط فبنى لهم عمرو الحصن الذي بالجيزة.

ولم تقتصر القطائع على أراضي الفسطاط وضواحيها لبناء المنازل والدور بل تجاوزتها لتشمل أراضي فلاحية قد تكون هذه الأراضي من الموات، أو من أراضي النبلاء البيزنطيين الذين فروا بعد الفتح تاركين وراءهم أراضي شاسعة ومن المعروف أن أغلب الأراضي المصرية قد بقيت بأيدي السكان الأصليين: القبط وقد وظف عليها الخراج، ولكن نص خطبة عمرو بن العاص يخاطب المسلمين الفاتحين من سكان الفسطاط يحثهم على الخروج إلى الريف المصري قائلاً «فحي لكم على بركة الله إلى ريفكم فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده وأربعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها فإنها جنتكم من عدوكم، وبها مغانمكم وأثقالكم، واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيراً..»(٣٠). يثير التساؤل التالي: أرض من هذه التي يحث على الخروج إليها للتمتع بخيرات ربيعها؟ هل هي الأرض التي تركت بأيدي القبط لاستغلالها ووظف عليها الخراج باعتبارها نظرياً ملكاً لعامة المسلمين أم هي أراضي البيزنطيين الذين غادروا البلاد وتركت بأيدي الفلاحين لزراعتها ولكنها ملك لبيت المال، وهي التي يقطع منها؟ إننا نميل إلى الاحتمال الثاني بالرغم من صمت النصوص.

ونلمس تحولاً في سياسة مركز الخلافة تجاه الجزية ونظام القطائع في مصر ابتداء من عهد معاوية بن أبي سفيان فقد أقطع عمرو بن العاص وردان أرضاً، وأقطع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ابن سندر منية الأصبغ فحاز لنفسه منها ألف فدان، وذلك في حالة معينة وحفظاً لوصية الرسول (ص)(٣١).



أما معاويــة فقد أراد تجـاوز شروط أداء القبط للجزية وقد كانت دينارين على كل رجل لا يزيد على أحد منهم في جزية رأسه أكثر من دينارين فكتب إلى وردان عامـل الخراج عـلى مصر: «أن زد على كل رجل منهم قيراطاً فكتب وردان إلى معاوية: كيف تزيد عليهم، وفي عهدهم أن لا يــزاد عليهـم شيء، فعــزل مـعـاويـة وردان»[٣٢]، وأقطع قرية كاملة إلى ابنه يزيد، يخبرنا ابن عبدالحكم عن ردود فعل المسلمين تجاه هذه السياسة الجديدة قـائلاً: «وأقـطع معاوية أيضاً يزيد قرية من قرى الفيوم فأعظم الناس ذلك وتكلموا فيه فلما بلغ ذلك معاوية كرة ما قال الناس فردّ تلك القرية الى الخراج كما كانت للمسلمين»[٣٣].

أما الوضع في المغرب فقد كـان شبيهاً في مرحلة الفتح بمـا طبق في مصر ولكننا نـرى ضرورة التأكيد على أمرين:

أولاً: إن المسلمين قد اكتفـوا في الغزوات الأولى التي سبقت تـأسيس القيروان بفـرض مبلغ معين من المال يؤديه سكان المغرب جزية، فقد صالح عمرو بن العاص سكان برقـة على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها إليه جزية على أن يبيعـوا من أحبـوا من أبنـائهم في جـزيتهم «ولم يكن يدخل برقة يومئذ جابي خراج، إنما كانوا يبعثون بالجزية إذا جاء وقتها»[٣٤] وقد طلب رؤساء أهل أفريقية بعد انتصار المسلمين وهزيمة جرجير في غزوة العبادلة سنة ٢٧ هـ إلى عبدالله بن سعد أن يأخذ منهم مالاً «على أن يخرج من بلادهم فقبل منهم ذلك ورجع إلى مصر ولم يـول عليهـا أحـداً ولم يتخـذ بهـا قيرواناً»[٣٥]، وبالرغم من أن معاوية بن حديج الكندي قد اتخذ قيرواناً عند القرن فإن ظاهرة القطائع لم تبرز لأنه سرعان ما رجع إلى مصر مكتفياً بالغنائم ووزعت الأراضي لبناء الدور بعد غزوة عقبة الأولى وتـأسيسه القيـروان «وأمر الناس بالتنقية والخطط ونقل الناس من الموضع الذي كان معاويـة بن حديـج نزله إلى مكـان القيروان اليوم»[٣٦].

ويلوح لنا أن الأحداث السياسية والعسكرية بصفة خاصة قد حالت دون — الاهتمام بقضية الأرض في هذه المرحلة المبكرة وهذا ما يفسر لنا نـدرة المعلومـات عن ملكيـة الأراضي وتنـظيم

شؤون الخراج وذلك بالقياس إلى مصر مثلاً.

ثانياً: إن أراضي الفئة الحاكمة وفئة النبلاء البيزنطيين قد أصبحت ملكاً عاماً يتصرف فيه الأمير باسم الخليفة ويقطع منه، ووظف الخراج على فئة اجتماعية معينة تسميها المصادر (الأفارق) «ولعلهم عجم أفريقية كما ورد في مصادر أخرى» وعلى من بقي من الروم بالبلاد ومن أقام معهم على النصرانية وأغلب هذه الأراضي في أفريقية وفي السهول الخصبة من شمال بلاد المغرب، أما الأراضي الكبرى التي تسيطر عليها القبائل وخاصة في جنوب أفريقية وفي المغربين الأوسط والأقصى فهي التي أطلق عليها ذلك المفهوم الجديد (أسلم عليها أهلها).

وبعد انتصار حسان بن النعمان الغساني على قوة المعارضة العسكرية لقبائل المغرب الأوسط، ولا سيما قبائل الأوراس بزعامة الكاهنة سنة ٨٢هـ بدأ التفكير من جديد في تنظيم شؤون أفريقية وفي مقدمتها شؤون الخراج وملكية الأرض «ودانت له أفريقية فدون الدواوين وصالح من ألقى بيده على الخراج وكتب الخراج على عجم أفريقية وعلى من أقام معهم على النصرانية من البربر والروم»[٣٧] أما إذا أسلم سكان المناطق المفتوحة فإن أرضهم تبقى بأيديهم ولا يدفعون عنها إلا العشر.

يحدثنا صاحب «الأخبار المجموعة» عن فتح موسى بن نصير لطنجة سنة ٨٩هـ فيقول: «أسلم أهلها واختطها قيرواناً للمسلمين وأوطنها إياهم»[٣٨] وحتى أراضي مناطق القبائل البربرية حاربها موسى بن نصير في زغوان، وفي بلاد هوارة وزناتة وكتامة وصنهاجة وغيرها من المناطق فإنها بقيت بأيدي أصحابها، وسرعان ما اعتنقت هذه القبائل الإسلام فأصبحت أراضيها ممن (أسلم عليها أهلها)؛ فلم يبق ــ إذن ــ ملكاً عاماً للمسلمين يقطع منه والي أفريقية على رؤساء الجند وزعماء القبائل إلا الأرض الموات أو الأراضي المهجورة التي تركها البيزنطيون، ولم تقطع هذه الأراضي لرؤساء الجند ولرؤساء العشائر العربية النازحة إلى المغرب بل استغلها الأمراء أنفسهم فاختط موسى بن نصير بالقرب من القيروان، فقد روى بعض أهل افريقية «أن موسى ركب يوماً حتى خرج من القيروان فوقف قريباً من افريقية على رأس أميال فأخذ بيده تراباً فشمه من ثَمَّ، ثم أمر بحفر بئر وأبتني داراً ومنية، واتخذ فيها خيلاً فسميت منية الخيل فليس يعلم بالمغرب بئر أعذب منها»[٣٩].

وكان الولاة يعطون أراضيهم الخاصة للوكلاء لزرعها، يقول ابن عذاري في حديثه عن ولاية يزيد بن حاتم (١٥٥ ــ ١٧١هـ): «أن بعض وكلائه زرع فولاً كثيراً في بعض رياضاته، فقال له يا ابن اللخناء أتريد أن أعير بالبصرة فيقال يزيد بن حاتم باقلاني، ثم أمر بأن يباح للناس»[٤٠].

ولكن يبدو أن الاقطاع قد تطور بسرعة وسمحت الرتب الادارية والعسكرية بامتلاك قرى كاملة حيث نقرأ في ترجمة أبي عبدالله محمد بن مسروق من أهل القيروان أن أباه مسروقاً كان خليفة موسى بن نصير بالمغرب فلما مات أبوه بات ينظر في كتبه، وفي أمواله ومنازله، وقد ترك له أبوه قرى كاملة ملكاً له «فكان بعد ذلك (بعد تزهّده) يمرّ بالقرية من قرى أبيه فيخرج اليه أهلها، ومن فيها فيقولون: نحن عبيدك، وكل مالنا في هذه القرية فهو لك فيقول: إن كنتم صادقين فأنتم أحرار وما أملك لكم»[٤١].

إن هذه الملكية الشاسعة لا يمكن أن يكون مصدرها غير الاقطاع، ونحن في مطلع القرن الثاني الهجري والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن: من كان يملك هذه القرى قبل الفتح؟

إننا نميل إلى أنها كانت بيد أفراد الأسرة الحاكمة أو فئة النبلاء البيزنطيين وهكذا فإننا نستطيع أن نتحدث عن استقرار ملكية الأرض بعد انتهاء مرحلة الفتح واستقرار الوضع السياسي والعسكري في بلاد المغرب ويمكن أن نتحدث عن أنواع ثلاثة للملكية بالاضافة إلى أراضي الوقف: ملكية الفئة الحاكمة، وملكية فردية بأيدي الفلاحين في القرى أو بأيدي فئات مقيمة في المدن وتستغل الأرض عن طريق العبيد أو الأجراء، والملكية الجماعية وهي أهم أنواع ملكية الأراضي في المغرب الإسلامي، ولا سيما ملكية القبائل الرحّل التي تسيطر على مناطق سباسبيّة أو صحراوية شاسعة، يتحدث ابن



أبي زرع الفاسي عن قبائل المرابطين فيقول: «وهذه القبائل كلها صحراوية، حوز بلادهم القبلة مسيرة سبعة أشهر طولاً ومسيرة أربعة أشهر عرضاً، من نول لمطه إلى قبلة القيروان من بلاد أفريقية وهي ما بين بلاد البربر وبلاد السودان»[42]. وقد عرفت الملكية الفردية مساحات شاسعة انجرّت غالباً عن طريق الاقطاع، فقد كان عبدالرحيم الزاهد (توفي سنة ٢٤٧ هـ) من أصحاب سحنون يملك ضيعة كبرى تحتوي على سبعة عشر ألف شجرة زيتون[43]، وكان الأمراء من كبار الملاكين، ويشترون في بعض الحالات الأراضي التي يرغبون فيها، ولا يستطيع السكان الرفض خوفاً من المصادرة والاضطهاد فقد أباح إبراهيم بن أحمد الأغلبي عبيد السودان على نساء أهل (أبيانة) حين امتنعوا من بيعها منه[44].

وقد كانت سياسة التغريم التي انتهجها الفاطميون بصفة خاصة عاملاً أساسياً من عوامل انتقال الأراضي من أصحابها إلى الدولة[45]، وقد أقطع الخلفاء الفاطميون ضياعاً إلى أنصارهم ومواليهم، فقد أقطع المهدي ضيعة بكورة الجزيرة للأستاذ جوذ[46]. وكان له وكيل يدير شؤونها، ولم يعرف نظام الملكية في العهد الزيري قبل الهجرة الهلالية تحولاً يذكر بالنسبة لما كان عليه في العصر الفاطمي، فقد أقطع بنو زير، وبنو حماد ضياعاً لأنصارهم وعمالهم، كما تحدثنا بعض الفتاوى عن نظام المغارسة والمناصفة في إفريقية خلال الفترة الزيرية.

أما بعد سقوط القيروان، واستيلاء قبائل بني هلال وبني سليم على إفريقية والمغرب الأوسط فقد تدهور نظام ملكية الأرض واضطرب.

ويحصل هذا التحول في نظام ملكية الأرض في المغربين الأدنى والأوسط في نفس الوقت الذي تظهر فيه في المغرب الأقصى دولة جديدة غلب عليها الطابع العسكري، وقامت على أساس التحام العصبية بالدعوة الدينية، واعتبر مؤسسها عبدالله بن ياسين الجزولي المناطق التي فتحها غنيمة فقسّم الخمس على اللمتونيين.

إن المصادر التي بين أيدينا لا تحدثنا عما سنّه المرابطون من جديد في نظام ملكية الأرض في بلاد المغرب، ولا سيما في الأراضي الخصبة

التي فتحوها بالسيف مثل أراضي قبيلة برغواطة في منطقة تلمسنا على سواحل المحيط، ولكن نصاً ثميناً يقدمه لنا أبوبكر الطرطوشي يدل على أنهم أدخلوا تغييراً جذرياً بسنّهم لنظام (الإقطاع) العسكري وذلك بالنسبة للأراضي التي هي ملك الدولة، وقد طبق هذا النظام في الأندلس ولا يستبعد أن يكون قد طبق في بلاد المغرب أيضاً(٤٧). فهل تأثرت الدولة المرابطية بنظام (الاقطاع) العسكري الذي عرفه البويهيون والسلجوقيون في المشرق؟ ●

الهوامش:

(١) أنظر كتابنا: (المغرب الإسلامي: الحياة الاقتصادية والاجتماعية)، تونس، ١٩٧٨؛ (دراسات مغربية) دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٠.

(٢) راجع مثلاً: اليعقوبي، البلدان، ليدن، ١٨٩١، ابن حوقل صورة الأرض، بيروت، دت: الاصطخري، المسالك والممالك، القاهرة ١٩٦٧؛ أبوعبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، الجزائر ١٨٥٧؛ الادريسي، نزهة المشتاق، ليدن، ١٨٦٤، ابن محشرة(؟)، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، الاسكندرية ١٩٥٨؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت ١٩٥٧، الحميري الروض المعطار في خبر الأقطار، بيروت ١٩٥٧.

(٣) راجع عن زراعة البستنة بضواحي مدينة تاهرت: المغرب الإسلامي، سبق ذكره ص ١٠٠، ١٣٢، وفي واحة تافيلالت نفس المصدر ص ١٧٢ وما يليها.

(٤) راجع في هذا الصدد: فلهوزن، تاريخ الدولة العربية، القاهرة ١٩٦٨، ص ٢٧٦ وما بعدها عبدالعزيز بن محمد الرحبي، فقه الملوك ومفتاح الرتاج المرصد على خزانة كتاب الخراج، بغداد ١٩٧٣، ج ١، ص ٣٩٨ وما بعدها.

(٥) راجع في هذاالصدد: الماوردي، الأحكام السلطانية، القاهرة ١٩٠٩؛ أبويعلى الحنبلي، الأحكام السلطانية، القاهرة ١٩٦٦؛ أبوعبيد، كتاب الأموال، القاهرة، ١٣٥٣؛ أبويوسف، كتاب الخراج، القاهرة، ١٣٥٢؛ الرحبي، فقه الملوك ومفتاح الرتاج، سبق ذكره؛ يحي بن آدم كتاب الخراج، ليدن ١٨٩٦؛ الطرطوشي، سراج الملوك، القاهرة، ١٣١٩ هـ.
ومن المراجع الحديثة أنظر في هذا الصدد: محمد عبدالجواد محمد، ملكية الأراضي في الإسلام، القاهرة ١٩٧١؛ ابراهيم فؤاد أحمد علي، الموارد المالية في الإسلام القاهرة، ١٩٦٨؛ محمد ضياء الدين الريس الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية القاهرة، ١٩٦٩؛ صبحي الصالح، النظم الإسلامية بيروت، ١٩٦٨.

(٦) كان موضوع رسالة الماجستير التي قدمها محمد علي نصرالله إلى قسم التاريخ بجامعة بغداد عن (تطور ملكية الأراضي في منطقة السواد حتى نهاية العصر الأموي) لم تنشر بعد؛ أنظر عن بلاد الشام: فالح حسين الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي، عمان، ١٩٧٨، ص ٤٣ وما بعدها.

(٧) ابن عبدالحكم، فتوح مصر وأخبارها، ليدن ١٩٢٠، راجع المعلومات الدقيقة عن طريقة جمع الخراج، وعن إحصاء السكان لتوظيفه ص ١٥٢، وما يليها، ص ١٥٦، وراجع عن القطائع ص ١٣٢ وما بعدها.

(٨) أنظر: سمير أمين، اقتصاد المغرب (بالفرنسية)، باريس ١٩٦٦، ص ٩٩ وما بعدها.

(٩) أنظر في هذا الصدد: أحمد صادق سعد، ست دراسات في النمط الآسيوي للانتاج بيروت، ١٩٧٩.

(١٠) أنظر التجارة في المغرب الإسلامي خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة ضمن كتابنا: المغرب الإسلامي...، سبق ذكره ص ١٣ ــ ٤٥.

(١١) بالفرنسية، باريس، ١٩٧٦، ص ٢٧.

(١٢) صورة الأرض، سبق ذكره، ص ٩٠.

(١٣) راجع: (أودغست: التطور العمراني ــ الحياة الاقتصادية والاجتماعية) ضمن كتابنا: المغرب الإسلامي...، سبق ذكره، ص ١٩١ ــ ٢١٧.

(١٤) المغرب، سبق ذكره، ص ١٦٨.

(١٥) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء ١٩٥٤، ج ٢ ص ٣.

(١٦) كتاب الاستبصار في عجائب الامصار، سبق ذكره، ص ٢١١ وما يليها.

(١٧) أنظر في هذا العدد: عبدالعزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، بيروت، ١٩٧٤، ص ٤٦.

(١٨) بالاضافة إلى المصادر المذكورة في تعليق رقم ٥ راجع عن (الاقطاع) عبدالعزيز الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، بيروت، ١٩٦١، ص ٨٦ وما يليها، الدوري، نشأة الاقطاع في المجتمعات الإسلامية مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد العشرون، ١٩٧٠، إبراهيم علي طرخان، النظم الاقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى القاهرة، ١٩٦٨، دائرة المعارف الإسلامية (مع قائمة مصادر ومراجع مفصلة)، الطبعة الفرنسية الجديدة، ليدن ١٩٧١، ج ٣، ص ١١١٥ ــ ١١١٨.

راجع عن الخراج: دائرة المعارف الإسلامية (مع قائمة مصادر ومراجع مهمة)، سبق ذكرها ج ٤، ص ١٠٦٢ ــ ١٠٨٧.

راجع عن الجزية نفس المصدر، ج ٢، ص ٥٧٣ ــ ٥٨١.

راجع عن الضيعة نفس المصدر، ج ٢، ص ١٩٣ ــ ١٩٤.

راجع عن الحماية نفس المصدر، ج ٣، ص ٤٠٦ وما يليها.

(١٩) أنظر الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، سبق ذكره، ص ٣٩ وما بعدها.

(٢٠) أنظر: ابن عبدالحكم، فتوح مصر، سبق ذكره، ص ١٩٧، أخبار مجموعة لمؤلف مجهول مجريط ١٨٦٧، ص ٢٥.

(٢١) ابن عبدالحكم، سبق ذكره، ص ١٩٧.

(٢٢) أنظر مثلاً عن مصر نفس المصدر، ص ٨٤ وما بعدها.

(٢٣) راجع الفصل المنشور من كتاب الأموال للداودي ضمن التأليف (دراسات في الاستشراق) (بالفرنسية) المهدى لذكرى ليفي بروفنسال، باريس ١٩٦٢، ج ٢، ص ٤٠٨.

(٢٤) ن.م.

(٢٥) شكري فيصل المجتمعات الإسلامية في القرن الأول بيروت، ١٩٦٦، ص ١٦٦ وما يليها.

(٢٦) ابن عبدالحكم، نفس المصدر، ص ٧٠.

(٢٧) ن.م.، ص ٨٨.

(٢٨) ن.م.، ص ٨٣.

(٢٩) ن.م.، ص ٩٨.

(٣٠) ن.م.، ص ١٤٠. ونلاحظ في هذا العدد أن الجند قد نهي عن الزرع، يقول ابن عبدالحكم (ص ١٦٢):
أن عمر بن الخطاب (أمر مناديه أن يخرج إلى أمراء الأجناد يتقدمون إلى الرعية أن عطاهم قائم، وأن عيالهم سائل فلا يزرعون ولا يزارعون).

(٣١) ن.م.، ص ١٣ وما يليها.

(٣٢) ن.م.، ص ٨٦.

(٣٣) ن.م.، ص ١٠١.

(٣٤) ن.م.، ص ١٧٠ وما يليها.

(٣٥) ن.م.، ص ١٠٣.

(٣٦) ن.م.، ص ١٩٦.

(٣٧) تاريخ أفريقية والمغرب المنسوب للرقيق القيرواني، تونس ١٩٦٨، ص ٦٤؛ أنظر أيضاً ابن عبدالحكم، سبق ذكره، ص ١٠٢، ونشير هنا إلى أن حسان بن النعمان قد قسّم الأرض على البربر الذين اعتنقوا الإسلام، وأصبحوا يقاتلون مع الجيش العربي (وأخرجهم مع العرب يفتحون أفريقية ويقتلون الروم، ومن كفر من البربر، فمن ذلك صارت الخطط للبربرية بأفريقية فكان يقسم الفيء بينهم والأرض، وحسنت طاعتهم فدانت له أفريقية، ودون الدواوين)، المالكي، رياض النفوس، القاهرة، ١٩٥١ ج ١، ص ٣٦.

(٣٨) أخبار مجموعة، سبق ذكره، ص ٤.

(٣٩) ابن قتيبة الدينوري، الامامة والسياسة، القاهرة، ١٩٦٣، ج ٢ ص ٨٦.

(٤٠) البيان المغرب، ليدن ١٩٤٨، ج ١، ص ٨١ وما يليها.

(٤١) المالكي، رياض النفوس، القاهرة، ١٩٥١، ج ١، ص ١٢٦.

(٤٢) الأنيس المطرب، الرباط، ١٩٧٣، ص ١٢٠.

(٤٣) رياض النفوس، سبق ذكره، ص ٣٢٨.

(٤٤) ن.م.، ص ٣٨٤.

(٤٥) راجع في هذا الصدد: السياسة المالية للدولة الفاطمية ضمن كتابنا (دراسات مغربية)، سبق ذكره، ص ٤٥ ــ ٧٠.

(٤٦) سيرة الأستاذ جوذر، القاهرة، ١٩٥٤، ص ٩٩.

(٤٧) يقول الطرطوشي: (وسمعت بعض شيوخ الأندلس من الأجناد وغيرهم يقولون ما زال أهل الإسلام ظاهرين على عدوهم وأمر العدو في ضعف وانتقاض لما كانت الأرض مقطعة في أيدي الأجناد فكانوا يستغلونها ويرفقون بالفلاحين فيربونهم كما يربي التاجر تجارته، وكانت الأرض عامرة، والأموال وافرة، والأجناد متوافرين والكراع والسلاح فوق ما يحتاج إليه إلى أن كان الأمر في آخر ابن أبي عامر فرد عطايا الجند مشاهرة بقبض الأموال على النطع، وقدم على الأرض جباة يجبونها فأكلوا الرعايا، واجتاحوا أموالهم واستضعفوهم فتهاربت الرعايا وضعفوا عن العمارة فقلّت الجبايات المرتفعة إلى السلطان وضعفت الأجناد، وقوي العدو على بلاد المسلمين حتى أخذ الكثير منها ولم يزل أمر المسلمين في نقص وأمر العدو في ظهور إلى أن دخلها المتلثّمون فردوا الاقطاعات كما كانت في الزمان القديم ولا أدري ما يكون وراء ذلك) سراج الملوك، القاهرة، ١٣١٩ ــ ص ١٠٧.

البلادُ التونسيَّة والدّولة العثمانيّة

د. خليفـة شـاطر
أستاذ بكلية الآداب والعلوم الانسانية
بالجامعة التونسية

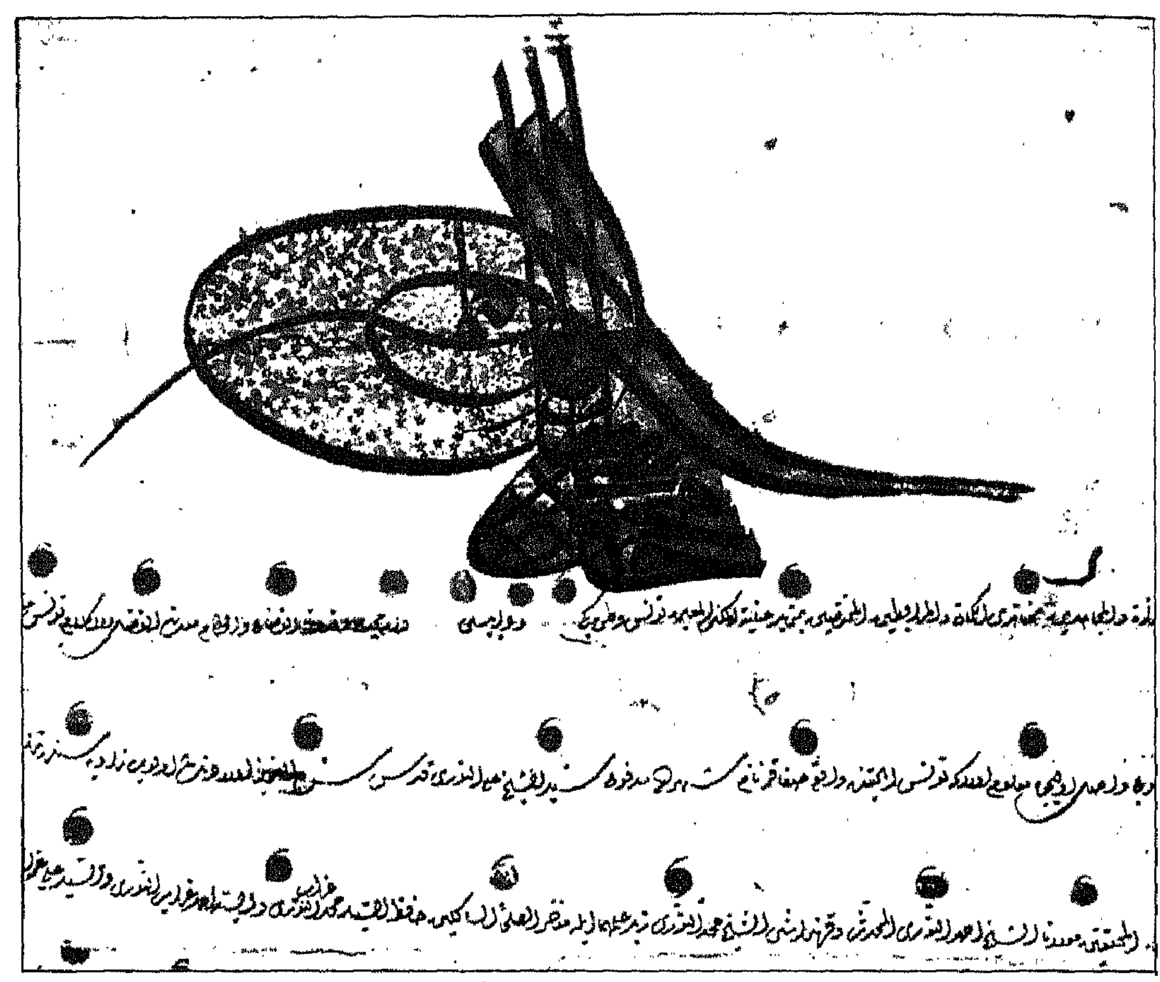
لا يزال هذا الموضوع محل نقاش المؤرخين[١] ولعل ذلك يرجع للطابع الخاص الذي اتسمت به العلاقات التونسية العثمانية اذ لم يفرض الباب العالي على ولايته التونسية حكمه المباشر بل اعترف بالأمر واقتصر على اصدار فرمانات مصادقة لمن يتولى الأمر من العائلتين الحاكمتين المرادية ثم الحسنية ابتداء من سنة ١٧٠٥. ولكن الدولة العثمانية سعت الى استراجاع شيء من نفوذها بعد احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ وزوال حكم القرمنليين في طرابلس الغرب سنة ١٨٨٥[٢] فتأزمت العلاقات التونسية العثمانية وكادت أن تقع القطيعة[٣]... ولكن سرعان مارجعت الأمور الى نصابها اذ لم يتجرأ حكام اسطنبول وتونس على الدخول في صراع بينما كانت الأطماع الاستعمارية تهدد العالم الاسلامي.. فرضت الظروف الدولية على الباب العالي وعلى تونس بان يحافظا على علاقات التضامن والالتحام بين المسلمين[٤] فزال سوء التفاهم وتقشعت الغيوم..

بقي الشعب التونسي متمسكاً بالدولة العثمانية بعد احتلال البلاد من طرف الفرنسيين. سنة ١٨٨١ أصبحت تونس مستعمرة خاضعة لمشيئة أوامر حكومة باريس مرتبطة في سائر ميادين السياسة والثقافة والاقتصاد بالساحة الفرنسية كانت اسطمبول طويلاً المركز البديل للتونسيين كانت محل آمال أجيال ما قبل الحرب العالمية الأولى ولكن مجرى الأحداث قد أبرز تقهقر الدولة العثمانية فأصبح الأمل سراباً اذ تفطنت الاطارات الوطنية بأن تركيا ليس لها حول ولا قوة وانها لا تمثل شيئاً بالنسبة لمراكز القوى الدولية فاعتمدت على نفسها وجندت القوى الشعبية وسعت الى اقناع الرأي العام الدولي وبسط القضية التونسية أيام مناطق النفوذ العالمية.

ولكن تونس لم تناصب العداء لتركيا.. انها لم تعش أي فترة من الهيمنة والحكم المباشر التركي ولم تكن ضحية أي «سياسة استعمارية تركية».. بل كان التونسيون يتحسرون على زوال عهود ما قبل الاحتلال، الفرنسي لينسوا محنة هذا الاستعمار الاستيطاني رغم ظروف الحكم في العهد العثماني وامتيازات جالية الأتراك ومن انتمى اليهم من كراغلة ومماليك واحتكار المناصب والسيطرة على أجهزة الدولة اعتماداً على هذه العناصر الدخيلة.

(أ) قضايا منهجية:

نحن نعرف أن على المؤرخ أن يحاول استقصاء الواقع لاجلاء الحقيقة وعليه أن يجعل الوثيقة التاريخية محل الدراسة والنقاش كي



«فرمان» عثماني موجه إلى الحاكم في صفاقس (القرن التاسع عشر) — متحف دار جلّولي.

لا تغالطه المظاهر السطحية فيبلغ اللب ويترك القشور وهنا بالذات يجب أن نلاحظ أن المؤرخين التونسيين في العهد الحسيني كانوا في خدمة البلاط ينقلون نظرياته السياسية ويبرزون مواقفه في جل الأحيان.. كانت دراستهم للعلاقات التونسية العثمانية محل شك اذ لا ننسى ان حكم البايات المراديين ثم الحسينيين وامتيازات الجالية التركية والمماليك تستمد شرعيتها من طبيعة هذا الحكم العثماني ومن النظرية الرسمية التي تعتبر الأتراك منقذي البلاد من الغزو الاسباني..

لا نستغرب اذن هذا الاهتمام بفترة دخول الأتراك لتونس وهذا الوصف الملحمي «الاسطوري» للغزو العثماني.

قال ابن أبي الدينار القيرواني مؤرخ القرن السابع عشر:

سمعت من أهل الحضرة من يقول سبب مجيء العمارة الى هذه الديار ان السلطان سليم رأى في منامه الشيخ الولي سيدي محرز بن خلف (ولي تونس الشهير) يستنجده على بلاده وقال له أنا محرز بن خلف فلما أصبح سأل عن الشيخ وعن بلده وقيل تونس.. وقيل أن العمارة كانت معينة في الأندلس.. ففتر عزم السلطان عن الأندلس وبعث بها الى تونس..

... وكان هذا الفتح القريب والنصر الغريب الذي شربه البعيد والقريب(٥).. وتمزج الأسطورة بالواقع في وصف الوزير السراج للفتح العثماني:

... فبينما الكرب مولوع بتسديد النصال

ومغرى بتعطيل الوصال اذ طلع من أفق الفرج ساطع اقبال وحوله أنجم لطاف لم تجر يوماً ببال وعود الله أن الحال ذات انتقال ودوام حال من قضايا المحال. الآ وأنها سفن نصر مشحونة بالأبطال، وقساورة وغى يسابق بطشها الأقوال، واطراد هيئة وبحور هبات، وحماة اولو وثَبَات، وكنوز صبر وثبات، فافترّ بسرور قدومهم ثغرُ البلاد وسوغوا مرّ الوغى بزلال الفتح في حلق الواد

وكان فتحاً أماط عن صبيح وجه الدهر الخمار وبدل فيه العسر باليسار وظهر به نشر راية الاسلام بعد الطي والاضمار وخفق بنسمات تأييده جناح الغزو والافتخار(٦)..

ان هذه الأوصاف الملحمية تبين موقف المؤرخ من الحدث وتبرز البعد العاطفي لهذا التاريخ الذي يتناول فترة حاسمة من الجهاد الاسلامي أثناء أوج الصراع المسيحي الاسلامي. في البحر المتوسط..

واذا ما اعتبرنا أن تاريخ العلاقات التونسية العثمانية يندرج في اطار قيام جبهة اسلامية لصد الغزاة الأوروبيين وانه يثبت شرعية الحكم القائم ويبرر امتيازات الجالية التركية تبين لنا أن على المؤرخ أن يتجاوز الديباجة السطحية ليقيم الحدث..

على المؤرخ أن يبحث عن مراجع تكميلية لمراجعة هذه النظرة السطحية ولكن جل المصادر تنتمي الى هذا التيار الرسمي المسيطر. لقد حاول المؤرخ الصغير بن يوسف أن يصف كشاهد عيان العلاقات بين الجالية التركية وسائر سكان البلاد وأبرز بوادر الصراع بين الفئة الحاكمة والرعية ولكنه درس القضية بوصفه كرغلي من زاوية الفئة المدللة التي تنتقد أولى الأمر لبداية اعتمادهم على العناصر التونسية(٧).

ولكن بعض الوثائق تبرز حقيقة الوضع خاصة إذا ما تناولنا دراسة بعض الأحداث (ثورة جند الترك سنة ١٨١٦) وبعض الاصلاحات (المساوات بين علماء المالكية المنفية في عهد أحمد باي)(٨) وحاولنا استقصاءها وابراز خلفيتها الاجتماعية.



جندي انكشاري

(ب) الطابع المميز للعلاقات التونسية العثمانية:

أصبحت تونس منذ سنة ١٥٧٤ ولاية عثمانية وكانت هذه الدولة قرصنية الأسس وتركية الأصل. كان هذا الوجه التونسي يعتمد على طائفة البحرية القراصنة أو غزاة البحار وعلى جند الترك أو جيش الانكشارية الذي انتصب في البلاد منذ الفتح العثماني. ان طرابلس الغرب أو الجزائر وتونس كانت تعتمد منذ تأسيسها على النشاط القرصني الذي كان يعتبر قاعدة تنظيم هذا الوجاق، ان هذا النشاط

القرصني كان يساهم بقسط وافر في تمويل الدولة واثراء رجالها ودعم النظام التركي في البلاد.

لم تكن الدولة العثمانية تحكم البلاد مباشرة اذ كان الخليفة ـ السلطان يصادق على ولاية كل داي يمسك زمام الحكم ثم أصبح وراثياً بين أفراد العائلة المرادية ثم الحسينية التي خلفتها. ينتصب ولي العهد على العرش اثر وفاة الباي الحاكم وتتم بيعته من طرف أهل الحل والعقد ثم تحرر وثيقة البيعة وتوجه للسلطان قصد المصادقة عليها وتحرير فرمان البيعة[8] (مكرر).

ان الباي يعترف بسلطة السلطان العثماني بصفة نظرية اذ تلقى خطبة الجمعة باسم السلطان وتضرب السكة باسمه ولكن الباي يتمتع بحرية التصرف. لا يتدخل السلطان الخليفة البتة في شؤونه: قال ابن أبي الضياف:

«ان هذه المملكة تقر للسلطان العثماني بالطاعة لأن الدولة العثمانية هي التي أنقذتها وأبقت بها كلمة الاسلام.

فلا جرم أنها من جملة مماليك الدولة العثمانية المرسومة في الطبع الجغرافي والسنة منابرها ودراهمها ودنانيرها وعامة أهلها تنادي بذلك فلا فرق في ذلك بين بدوي متوحش وبلدي متأنس..

ولأميرها الاذن في التصرف بالمصلحة من ولاية القضاة ورؤساء العساكر وجباية الأموال وصرفها في المصالح شأنها ولاية التفويض الشرعية»[9].

نلاحظ أن المؤرخين يبررون حرية التصرف التي يتمتع بها بايات تونس بالتفويض الخاص الذي يمنحه السلطان للباي بوصفه واليها أو باشا[10] وهكذا يكون الباي مستقلاً بالفعل تقتصر علاقاته بالسلطان على اعتراف أدبي وطاعة شكلية.

ولم تكن تونس تدفع أي ضريبة سنوية للباب العالي بل تقتصر على توجيه الهدايا الفاخرة كلما تولى سلطان جديد في اسطنبول أو باي جديد في تونس.

نستطيع أن نقول أن تونس كانت مجرد ولاية شكلية تعيش على هامش الامبراطورية العثمانية أنها مثل سائر بلاد المغرب لا تنتمي للساحة الاقتصادية العثمانية رغم وجود تبادل تجاري كثيف أحياناً فتجار القوافل كانوا يصلون الايالة بالمغرب والمشرق وأفريقيا السوداء كما أن لتونس صلات تجارية لا يستهان بها حتى أثناء عهود ازدهار القرصنة مع أوروبا عن طريق مرسيليا وليفورن ومالطة.

وأما بالنسبة الى طبيعة الحكم وجهاز الدولة فان التطور التاريخي الخاص بتونس أكسبها بعض الميزات بالنسبة للولايات العثمانية المجاورة كالجزائر وطرابلس الغرب وقد تفطن المؤرخ الكرغلي الصغير بن يوسف لظهور بوادر التمييز فبين أن طرابلس كانت في القرن الثامن عشر ولاية صحراوية تعتمد على البحر وغنائمه[11].. كما أن الدولة الجزائرية حافظت على ميزاتها التركية:

«... الجزائر سلطنة قوية براً وبحراً وغنيمة.. وحاكمهم تركي عجمي لا يقدمون كورغوليا ولو كان ملياً ولا يخدمون ويقدمون المراتب المعتبرة الاّ من جنسهم وابن عمهم تركي أعجمي... ولا يدخل محلة (الجباية) لا بدوي ولا عربي ولا رعية[12]..»

وأما حكام تونس فقد تجاوزوا هذه الاعتبارات شيئاً ما بالنسبة للجيش على الأقل اذ أصبحت محلتهم تضم خيالة القبائل اضافة لجند الترك كما بدأت تونسة أجهزة الدولة بصفة بطيئة لكنها أثارت سخط مؤرخنا الكورغلي:

«أولاد حسين (العائلة الحسينية) خدمتهم أولاد عرب ككتاب ترجمان وكتاب سر وحوانب وغيرهم وصاروا يطلعون على عورات الترك الذي (أصبحوا) في زاوية الترك.. وتركوا العديد يأكل مكاحلهم..»[13].

حافظ جند الأتراك رغم بوادر تونسة الجيش على امتيازاتهم ولكن وضعية تونس أصبحت تختلف شيئاً على الولايات العثمانية الأخرى وسيتواصل هذا التطور المميز لتونس عبر القرن التاسع عشر اذ تلاشت طائفة جند الترك وضعف نفوذها أثر تمرد جند الترك سنتي ١٨١١ و١٨١٦ والغاء القرصنة في تونس سنة ١٨١٦ وتغيرت طبيعة الدولة اذ فقدت ميزتها القرصنية وأصبحت تبحث عن قوى عسكرية



سفن تركية حربية

سفن تركية حربية

بديلة اذ أصبح الجيش التركي ثانوياً بعد أن كان العمود الفقري للدولة الحسينية وهكذا تغيرت نظرة الدولة للمحليين.

(ج) الأزمات التونسية العثمانية:

كانت تونس حريصة على ابراز ولائها للدولة العثمانية فقطعت صلاتها مع فرنسا استجابة لطلب الباب العالي لما احتلت جيوش بونابرت مصر سنة ١٧٩٨[١٤] وكذلك جهز حسن باي سنة ١٨٢٦ اسطولاً لاعانة الدولة العثمانية لما اندلعت الثورة اليونانية[١٥]، ولكن احتلال فرنسا للجزائر غير وضعية تونس الدولية وجعلها تحت ضغط فرنسا بينما كانت الدولة العثمانية لا تحرك ساكناً لحمايتها. وهكذا اضطر بايات تونس الى توخي سياسة خارجية تعتمد على اليقظة والحذر وتجنب المشاكل مع الدول الكبرى كي لا تفسح لها المجال ولا تمنحها أي تعلة لغزو تونس. كأن الدولة العثمانية لم تتفطن لخطورة موقف تونس ولم تعر أي اهتمام لظروفها الحرجة وكانت تنتقدها لتخاذلها في اعانة الجزائر وتشهر بعلاقاتها الحسنة مع فرنسا.

١ ـ اندلاع الأزمات التونسية العثمانية:

حالما اندلعت الأزمة الفرنسية الجزائرية حاصرت فرنسا الشواطىء الشمال أفريقية وأعلمت الباي التونسي حسين بذلك و «حذّرته وخوفته وقالت له: ان أردت الأمان على بلادك فكن في هذه النازلة حبيباً للفريقين وان أعنت الجزائر من البر تكن حرباً لنا مثلها»[١٦] وهكذا اضطر حسين باي الى توخي سياسة حياد وتجنب التدخل في هذه القضية الشائكة[١٧] وقد أرادت الدولة العثمانية أن توفد الى الجزائر مبعوثاً خاصاً يمر عبر الاراضي التونسية فأحسن الباي استقباله ولكنه منعه من النزول في حلق الوادي لمواصلة سفره للجزائر خشية أن تعتبر فرنسا هذه الاعانة مساندة للجزائر فغضبت

الدولة العثمانية وادعت أن تونس قد عرقلت مساعي الطاهر باشا و«قد عطلت مصلحة جمهور من المسلمين»[١٨].

وقد توخت فرنسا سياسة الترغيب والترهيب تجاه تونس فعرض حكام الجزائر تعيين أميرين تونسيين على رأس ولايتي قسنطينة ووهران وقبل الباي أن يمضي الاتفاقين مع الحاكم العام للجزائر كلوزال فأثارت سياسة التوسع التونسية سخط السلطان وأصبح لا يثق في هذا الباي التونسي الذي قبل أن يتعاون مع فرنسا المستعمرة دون أن يستشيره.

ولكن سرعان ما فشلت سياسة التعاون الفرنسية التونسية وتراجع الطرفان والغيا اتفاقي قسنطينة ووهران[١٩] وأسرعت تونس الى تسوية خلافها مع الباب العالي في أواخر سنة ١٨٣١.

٢ ـ الباب العالي يسعى الى تغيير وضعية تونس:

انتهزت الدولة العثمانية فرصة طلب الفرمان للباي الجديد مصطفى للمطالبة بتغيير وضعته تونس. تمت بيعة مصطفى باي يوم ٢١ ماي ١٨٣٥ فتسلم زمام الأمور وأرسل الوزير شاكير صاحب الطابع الى اسطنبول لطلب الفرمان على العادة فتمنّعت الدولة العثمانية وطلبت توظيف شيء من المال على الايالة التونسية تدفعه كل سنة مبينة ان الولاية موقوفة على قبول هذا الشرط ولقد رفض شاكير صاحب الطابع الدخول في أي مناقشة مقتصراً على الوعد بابلاغ المطالب العثمانية لمصطفى باي وقال:

«.. ان مصطفى باي تركته بتونس قاعداً مقعد أخيه وفي أعناق المسلمين بيعته وقلوب المملكة ملتفة حوله فان أردتم وصل حبل المسلمين فاجرونا على عادتنا والا افعلوا ما بدا لكم..»[٢٠].

وافقت الدولة العثمانية على اصدار فرمان تولية مصطفى باي ثم اعادت الكرة حينما طلب أحمد باي لقب مشير سنة ١٢٥٦هـ (١٨٤٠ ـ ١٨٤١) اذ طلبت من مبعوث الباي مصطفى البلهوان:

(أ) بأن يكون صنجق تونس مثل صنجق الدولة العثمانية لونا وشكلاً.

(ب) أن تدفع تونس ضريبة مالية سنوية.

(ج) أن تكون تولية المناصب العليا بأمر سلطاني.

(د) أن يمتنع الباي من ممارسة الشؤون الخارجية[٢١].

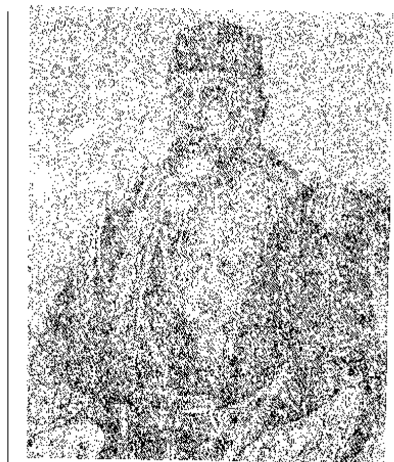
وكأن الدولة العثمانية أرادت أن تلحق تونس بالولايات التي تحكمها مباشرة بفضل سياسة الاقناع اذ أن فرنسا كانت تحمي السواحل التونسية من أي غزو عثماني متوقع خاصة بعد أن الحقت تركيا طرابلس الغرب بالباب العالي وقضت على حكم القرمنليين سنة ١٨٣٥.

ولم تتفطن الدولة العثمانية بأنها كانت تشجع بايات تونس على طلب حماية فرنسا والتعاون معها بقدر ما تسعى الى فرض هيمنتها وكان من نتيجة هذا التباعد[٢٢] أن أصبح أحمد باي يتجاهل أحياناً الدولة العثمانية ويتعامل مع الدول الأوروبية دون أن يراعي وضعيته الخاصة كباشا عثماني وقد جسم أحمد باي هذه السياسة الاستقلالية بالفعل حينما زار فرنسا سنة ١٨٤٦ أو رفض أن يلبي دعوة السلطان للذهاب لاسطنبول[٢٣].

ولكن أحمد باي أعرب على ولائه للدولة العثمانية اذ أرسل نحو الأربعة عشر الف مقاتل لاسطنبول للمشاركة في حرب القرم ومساندة السلطان وقد حرص محمد باي ١٨٥٧ ـ

مشهد صدامي في حرب القرم





فؤاد باشا

١٨٥٩ على المحافظة على علاقات جيدة مع الدولة العثمانية وصرح قائلاً:

«أرضى أن ترجيني دولة اسلامية خير لي من الخروج عن جماعة المسلمين وعن غضب السلطان الذي هو سيدي»[٢٤]..

ولكن الظروف الدولية الحرجة تجعل بايات تونس يجاملون فرنسا مع السعي على الحفاظ على علاقاتهم الحسنة مع اسطنبول.

وأدركت الدولة العثمانية ظروف تونس الحرجة وفهمت موقفها فراجعت سياستها واقتنعت بالادلة التي قدمها الوزير خير الدين باشا حينما زار تركيا اثر ثورة ١٨٦٤. فصرح الصدر الأعظم فؤاد باشا قائلاً:

«... ان السلطنة العلية لاحاجة لها بمال تونس ولا بتغيير حالتها الأصلية وانما الأمر الواجب على الجميع هو تقوية الربط الديني وجمع كلمة الأمة المحمدية حتى لاتتوجه نحوها الأطماع..»[٢٥].

٣ ــ أسباب الأزمة وأبعادها:

يشرح ابن أبي الضياف محاولة الدولة العثمانية ادماج تونس في الولايات التي تحكمها مباشرة بتطور المواصلات وظهور مركب البخار[٢٦] وهو تفسير ذكي جريء اذ لم يألف المؤرخون تجاوز التاريخ السردي وتفسير الأحداث بالتغيرات الجذرية الاقتصادية والاجتماعية والتقدم التقني وكأن مؤرخنا لمس أبعاد الثورة الصناعية ودخول عهد الآلة البخارية..

لا يجب أن نتجاهل نتائج هذه الاختراعات العلمية التي غيرت ظروف الجيش رأساً على عقب ولكن لا يجب أن ننسى أن الدولة العثمانية قد تفطنت الى تلاشي ولاياتها أثر اندلاع الثورات الوطنية في اليونان وبلاد الصرب وغيرها من الممالك التي تسكنها الشعوب المسيحية.. ثم أنها تفطنت الى خطر سياسة التوسع الاستعماري. وقد أضاعت الجزائر نتيجة الأزمة التي اندلعت بين فرنسا والسلطة المحلية فلهذا أرادت أن تمسك زمان الأمور لكي لا تمكن الدولة الأوروبية من استغلال بعض التعلات لبسط نفوذها على تونس أو طرابلس.

ولعل الدولة العثمانية أدركت خطر سياسة التسرب الاقتصادي الأوروبي على تونس وفهمت أن فرنسا كانت تحاول الهيمنة على تونس وبسط نفوذها بواسطة سياسة الترغيب والترهيب فأرادت عرقلة المساعي الفرنسية وصيانة تونس ولكنها أثارت خوف البايات الحسينيين الذين توخوا سياسة توازن بين فرنسا والدولة العثمانية كي يحافظوا على «حرية تصرفهم» أي استقلالهم الفعلي مع ولائهم للسلطان الخليفة..

معركة بين التونسيين والفرنسيين

الصور من:

L'art de la guerre — Emile Wanty

Epic Sea Battles, William Koenig. édited by. S. L. Mayer

عصر السلطان عبد الحميد واثره في الاقطار العربية. ج ١ المطبعة الهاشمية ــ دمشق.

هذا وان تصنيع أوروبا وزوال القرصنة قد ساعدا على تكثيف صلات تونس التجارية مع أوروبا وخروجها شيئاً فشيئاً عن الساحة الاقتصادية الشرقية[٢٧].

خاتمة:

انفصلت تونس عن الخلافة العثمانية اثر احتلالها سنة ١٨٨١ وأصبحت تنتمي الى منطقة النفوذ الفرنسي وتوخت السلطة الفرنسية سياسة استيطانية وشجعت نشر اللغة الفرنسية على حساب الثقافة العربية الاسلامية ولكن تونس بقيت متمسكة بالخلافة العثمانية حتى بعد الغائها. كما أن سكان الايالة بقوا متعلقين بالبلدان العربية الاسلامية متطلعين الى أخبار حكامها ومصلحيها. وحسبنا أن نذكر اهتمام التونسيين بملاحم مصطفى كمال وانجازاته واعتزازهم بها.

●

الهوامش

(١) درس هذا الموضوع المؤرخ التونسي أحمد بن أبي الضياف (١٨٠٤ ــ ١٨٧٤) في كتابه **اتحاف أهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الأمان**. تونس ــ ٨ أجزاء ــ من ١٩٦٣ الى ١٩٦٥. أنظر الجزء ٦، ص ١٣ ــ ٢٥.

ــ أنظر بيرم الخامس. صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار. ٥ أجزاء. القاهرة من ١٨٨٤ الى ١٨٩٤. أنظر الجزء الأول. ص ١٣٦ ــ ١٤٦. وقد تناول هذه القضية المؤرخ التونسي المعاصر البشير التليلي. **أنظر العلاقات الثقافية والايديولوجية بين الشرق والغرب في تونس في القرن التاسع عشر.** تونس ١٩٧٤ وقد درست هذا الموضوع في رسالة دكتوراه الدولة التي قدمتها في جامعة السوربون في ماي ١٩٨١. الايالة التونسية من سنة ١٨١٥ الى سنة ١٨٥٧.

(٢) قضى العثمانيون على حكم القرمنليين سنة ١٨٣٥ وعينوا عوضهم باشا يحكم البلاد مباشرة ويبدو أنهم فكروا في فرض حل مماثل في تونس.

(٣) وصف ابن أبي الضياف هذا الأزمة بأنها «تباعد» من طرف أحمد باي (الاتحاف.. ج ٦، ص ٢٩). واتهم أحمد باي بأنه يريد أن يستقل فكذب ذلك ابن ابي الضياف (أنظر ص ١٤ و٢٠).

(٤) يقول ابن أبي الضياف أن الدولة العثمانية كانت تستعمل مع أحمد باي سياسة الترغيب في جمع شمل الاسلام والترهيب من عواقب «الفرقة» (ص ١٦) كما أن ابن أبي الضياف شرح موقف أحمد باي قائلاً: وهو مع هذا الحذر (من الدولة العثمانية) لم يحدث نفسه باستقلال ولا سام ربط الاسلام باخلال ولا حام حول الخروج من تلك الظلال وان امتلأت اسماعه بأقوال الظلال المنتجة للاضمحلال (ج ٤ ص ١٢٧). لم يفكر البايات في استقلال عن الدولة العثمانية لأن الاستقلال بالنسبة اليهم خروج عن الجماعة الاسلامية ولكنهم تمسكوا بامتيازاتهم وباستقلالهم الفعلي اذ كانوا دائماً يتمتعون بحرية التصرف.

(٥) ابن أبي الدينار، المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس ــ تحقيق محمد شمام. تونس ١٢٨٧هـ ــ ص ١٧٨ و ١٩٢.

(٦) الوزير السراج. الحلل السندسية في الأخبار التونسية. تحقيق الحبيب الهيلة. ج ٢، قسم ١، تونس ١٩٧٣. ص ١٠.

(٧) الصغير بن يوسف. المشروع الملكي في سلطنة أولاد تركي. مخطوط بالمكتبة الوطنية التونسية عدد ١٨٦٨٨.

(٨) أنجز أحمد باي هذا الاصلاح في ديسمبر ١٨٤٢.

٨ مكرر. وهكذا أصبحت هذه الطريقة قاعدة تنصيب الباي كما تجلى ذلك في كتب التاريخ التونسية. أنظر مثلاً ابن أبي الضياف.. الجزء ٦. ص ١٤.

(٩) نفس المصدر. ص. ١٣ ــ ١٤.

(١٠) يبين بيرم الخامس أن الدولة العلية كانت عادتها في الولايات اطلاق التصرف للوالي بحيث يكون له التفويض المطلق لاتساع أطراف الممالك مع صعوبة المواصلة الآ بعد مدة مديدة لاسيما في مثل الأماكن التي طريقها البحر من مقر الخلافة كتونس وطرابلس والجزائر ومصر وغيرها وتسمى عندهم بالأوجاق.. (صفوة الاعتبار.. الجزء الأول ص ١٣٣).

(١١) المشرع الملكي. نفس المصدر. ص ٤٩.

(١٢) نفس المصدر.

(١٣) نفس المصدر. ص ٤٧.

(١٤) أنظر ابن أبي الضياف الاتحاف ج ٣ ص ٣٢.

(١٥) نفس المصدر ص ١٥٨.

وقد قدم المؤرخ التونسي بيرم الخامس معلومات ضافية على اسطول النجدة التونسي فبين أن محمود باي أرسل سبع سفن حربية ثم أردفها باثنين لاعانة الدولة العثمانية على حرب اليونان.. وأرسل حسين باي اسطولاً.. واحترق مع جملة سفن الدولة ومصر والجزائر وبعض أساطيل الدول الأوروبيـة (صفوة الاعتبار. ج ١، ص ١٣٦).

(١٦) حسب رواية ابن أبي الضياف الاتحاف ج ٣ ص ١٦٥ ــ ١٦٦.

(١٧) ولكن هل نستطيع أن نلومه على ذلك ونحن نعلم اختلال توازن القوى لصالح فرنسا ولا ننسى أن الدولة التركية قد اقتصرت على تقديم الاحتجاجات دون أن تعلن الحرب أو ترسل أي نجدة عسكرية (أنظر أرجمنت كوران السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر تعريب عبد الجليل التميمي تونس ١٩٧٠).

(١٨) ابن أبي الضياف ج ٣ ص ١٦١ ١٦٧.

(١٩) درسنا هذا الموضوع في نطاق رسالتنا للـدكتـوراه (الأيالة التونسية.. ص ٤٢٥ ــ ٤٧٧.

أنظر كذلك عبد الجليل التميمي مغامرة الحماية التونسية على وهران سنة ١٨٣١ للمجلة التاريخية المغربية ١٩٧٦ ص ٥ ــ ١٩.

أنظر كذلك ع التميمي بيليك قسنطينة والحاج أحمد باي (١٨٣٠ ــ ١٨٣٧) تونس ١٩٧٨.

(٢٠) ابن أبي الضياف الاتحاف ج ٣ ص ١٩٩.

(٢١) نفس المصدر ج ٦. ص ١٦.

(٢٢) واصل بايات تونس ارسال المبعوثين لشرح موقفهم وازالة كل سوء تفاهم (نفس المصدر. ج ٣ و ج ٤) وكانوا يخشون أن تتدخل الدولة العثمانية عسكرياً لالحاق تونس بولاياتها التي تحكمها مباشرة.

(٢٣) أنظر مراسلة أحمد باي ووالي مصر عباس باشا حول هذا الموضوع سنة ١٩٤٩ (نفس المصدر. ج ٤. ص ١١٩ ــ ١٢٣).

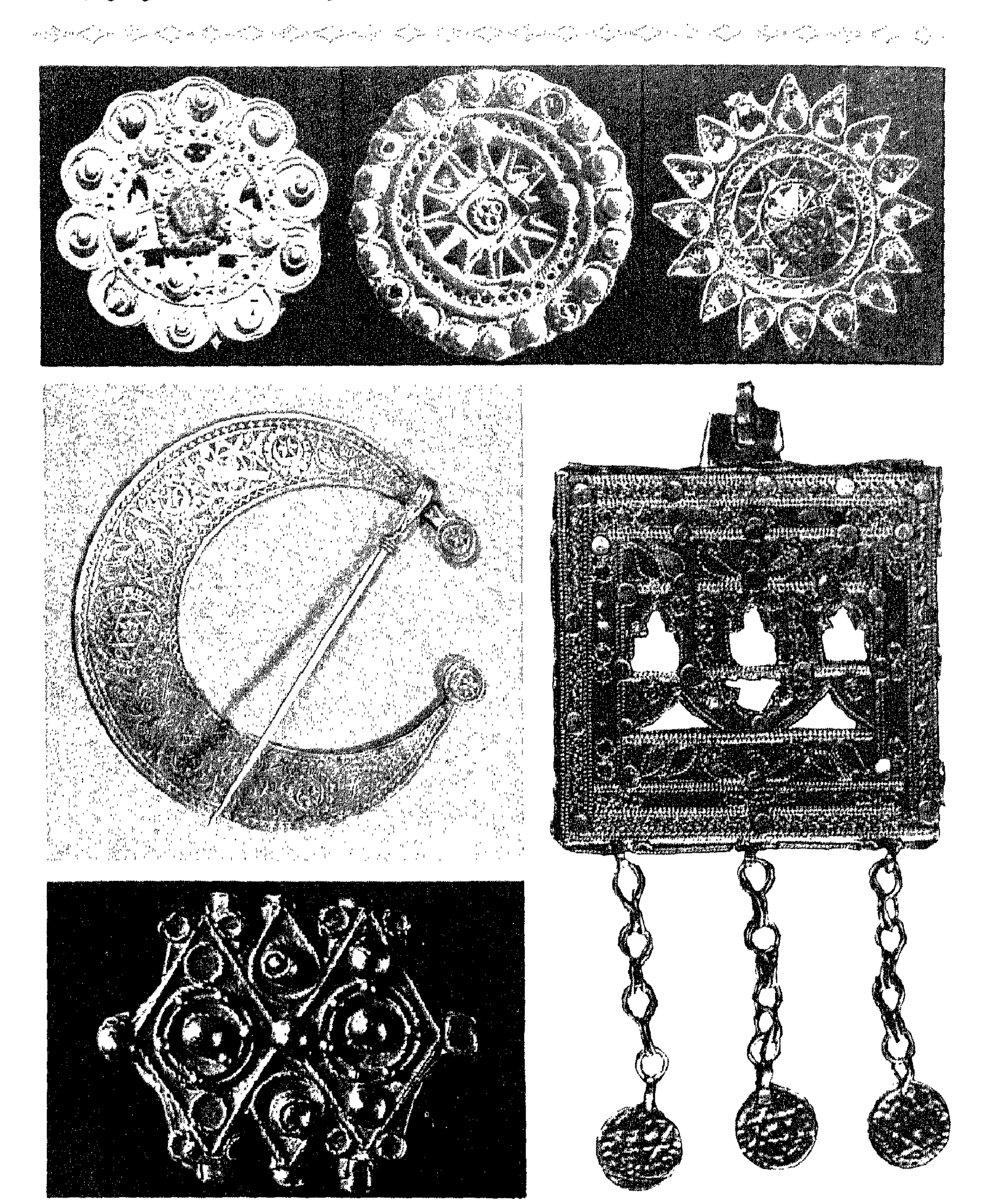
(٢٤) نفس المصدر. ج ٦. ص ٢١.

(٢٥) نفس المصدر. ص ٢٧ و ٢٨.

(٢٦) نفس المصدر. ص ١٥.

(٢٧) أنظر دراستنا «الايالة التونسية من ١٨١٥ الى ١٨٥٧». رسالة دكتوراه الدولة. باريس ١٩٨١.

مصوغات تونسية فولكلورية



الحياة الثقافية

مجلة ثقافية جامعة تصدرها وزارة الشؤون الثقافية - بتونس

مِنْ أهدافها :

- خِدْمة القارئ العربي في كلّ مكان
- المساهمة في تطوير البحث والإنتاج والنقد
- تقديم صورة صادقة عن الحركة الثقافية والفكرية في تونس.

العنوان : وزارة الشؤون الثقافية - القصبة - تونس
الهاتف : 263.819

الاشتراكات : عن ستة أعداد : 2,100 دينار تونسي أو ما يعادلها.

٢٥-٢٦

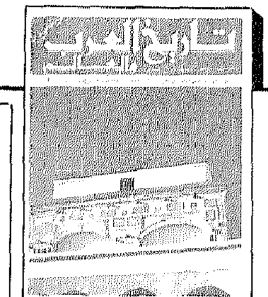
مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية

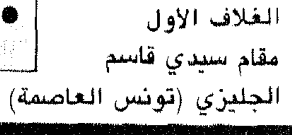
الفكر العربي

كانون الثاني - شباط - آذار ١٩٨٢ العددان الخامس والعشرون والسادس والعشرون السنة الثالثة

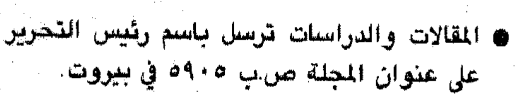
نظرية الأدب والنقد الأدبي

تصدر عن : معهد الإنماء العربي - بيروت





الغلاف الاول
مقام سيدي قاسم
الجليزي (تونس العاصمة)



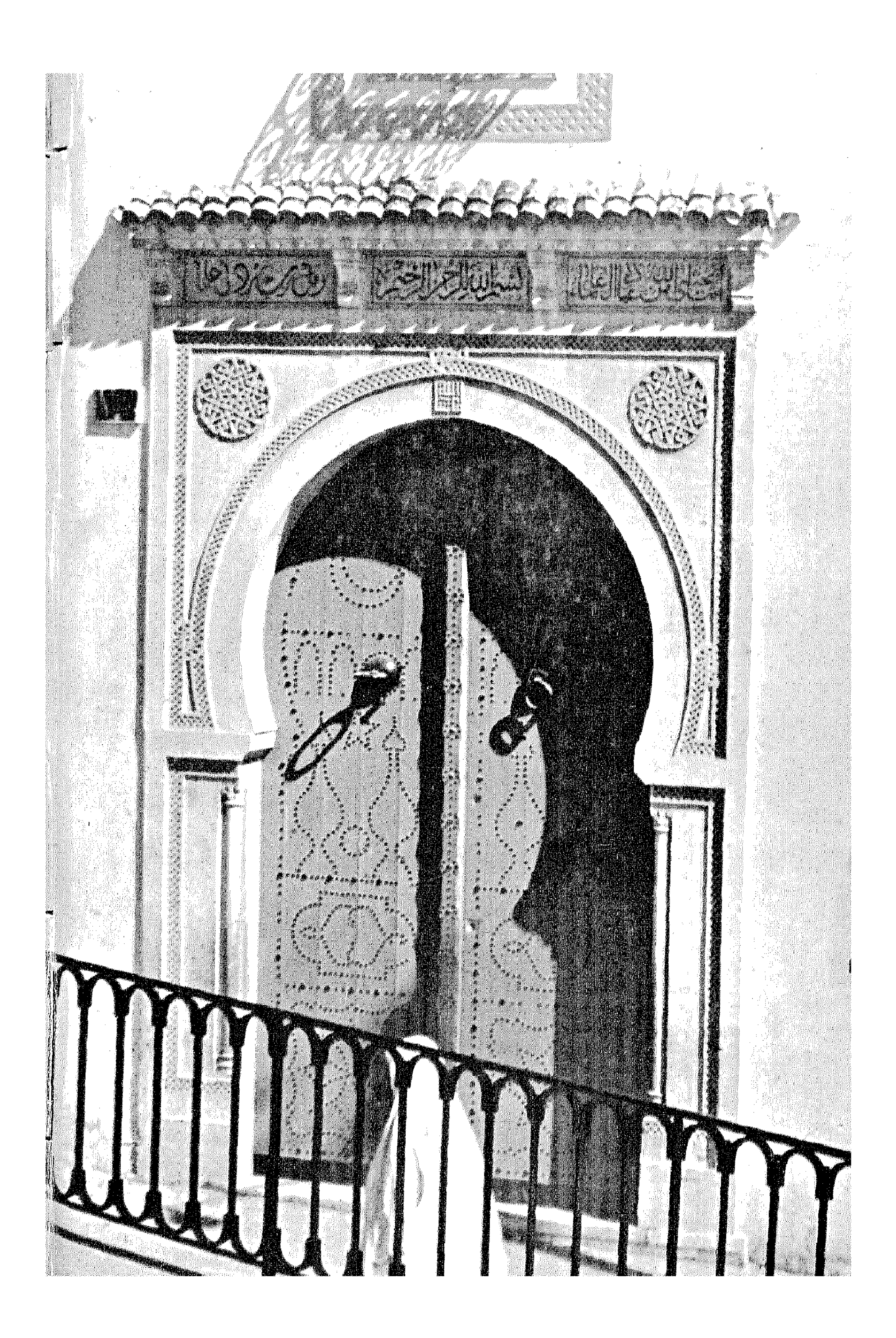
● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.



الغلاف الاخير
نقوش اسلامية على
باب بيت تونسي


بسم الله الرحمن الرحيم